مكتبة

غيوم ميسو

1110

فتاة بروكلين

رواية

إهداء لـ ..

زيد

من تمنى يوم فرحته

بفوز التانجو .. هذا الكتاب

تأتي الأيام

وتأتي مكتبة

لتؤكد دائما أنه ..

‹ثمة حاجة›.. وستأتي

غيوم ميسو

فتاة بروكلين

الكتاب

فتاة بروكلين

تأليف

غيوم ميسو

ترجمة

الجيلالي مويري

الطبعة

الأولى، 2022

الإيداع القانوني:

2022MO3380

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9920-657-45-7

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 0522 - 307651 0522

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

العنوان الأصلي للرواية:

La fille de Brooklyn

By: Guillaume Musso

© XO Éditions 2016

All rights reserved

مكتبة

t.me/soramnqraa

19 3 2023

غيوم ميسو

مكتبة | 1110
t.me/soramnqraa

فتاة بروكلين

رواية

ترجمة: الجيلالي مويري

المركز الثقافي العربي

سما للنشر

إلى إنغريد،
وإلى ناتان.

وهربَتْ مني...

أنتيب، الأربعاء 31 أغسطس 2016

بَدَت نهاية الأسبوع الطويلة، قبل ثلاثة أسابيع عن موعد زواجنا، استراحة ثمينة، وعودة للحظات حميمية تحت أشعة شمس نهاية فصل الصيف في الكوت دازور.

كانت الأمسية قد بدأت بداية حسنة: تجوّلنا فوق أسوار المدينة العتيقة، وشربنا كأساً من الميرلو، وتناولنا طبقاً من السباغيتي بالمحار تحت قبة مقهى ميكيلانجلو. وتجاذبنا أطراف الحديث قليلاً حول مهنتك، وحول مهنتي، وحول حفل الزفاف الذي نعتزم تنظيمه تنظيماً حميمياً، حفلاً كنا قد قرّرنا أن يقتصر على صديقين يشهدان على زواجنا، وعلى ابني تيو الذي سيصفق لنا.

وحين كنّا عائدين، قُدت السيارة المستأجرة على طريق الكورنيش على مهل، كي يتسنى لك أن تتمتعي بمنظر الشاطئ من علٍ. ما زلت أذكر جيداً تلك اللحظة، ما زلت أذكر نظرتك الزّمردية الشفافة، وجدائل شعرك المعقوصة ببوهيمية، وتنورتك القصيرة، وسترتك الجلدية غير المزرّرة وتحتها قميص أصفر يتوسطه شعار «السلطة للشعب». كنتُ كلما غيرت السرعة في المنعرجات، أنظر

إلى ساقيك الذهبيتين، ونتبادل البسمات. كنتِ تدندنين أغنية قديمة لآريتا فرانكلين. وكان الجو جميلاً، معتدلاً ومنعشاً. ما زلت أذكر جيداً تلك اللحظة، ما زلت أذكر لمعة عينيك، ووجهك المشرق، وخصلات شعرك المتطايرة مع الريح، وأصابعك الناعمة وهي تنقر على لوحة القيادة على إيقاع الأغنية التي كنت تردّدينها.

كانت الفيلا التي استأجرناها واحدة من عشرة منازل أنيقة في المجمع السكني الذي في ملكية صيادي المحار، وكانت تشرف على البحر الأبيض المتوسط. حين مشينا صعداً في الممرّ المفروش بالحصى، وسط غابة الصنوبر، اندهشتِ من المنظر الخلاب الذي يحيط بنا.

ما زلت أذكر جيداً تلك اللحظة التي كانت آخر لحظة تمتّعنا فيها بالسعادة معاً.

* * *

صوت زيز الحصاد. صوتُ ارتطام الأمواج بالصخور المهدهدُ. نسمة بحرية لطيفة تُخفف رطوبة الهواء الناعمة.

كنتِ قد جلست في الشرفة المطلة على صخور البحر، وأشعلتِ شموعاً مُعطَّرَة في أوانٍ لتساعد على إبعاد الناموس، وكانت أغنية لتشارلي هادن تصدح في المكان. وكنتُ قد جلست خلف منضدة البار في الهواء الطلق، كما في روايات فيتزجيرالد، وشرعتُ أحضّر شراباً لنا، ذلك الكوكتيل الذي تفضلينه، كوكتيل Long Island Iced Tea مع الكثير من قطع الثلج، وشريحة ليمون أخضر.

لم أركِ مبتهجة بذلك الشكل إلّا نادراً. كان يمكن أن نُمضي أمسية طيبة يومها، بل كان **يجب** أن نُمضي أمسية طيبة يومها. عوض ذلك، انغلقتُ على نفسي أجترّ فكرة كانت تستحوذ عليّ، فكرة

تلازمني منذ مدّة، لكنني كنت قد تمكّنت إلى ذلك الحين من التحكّم فيها: «لا ينبغي أن تكون لدينا أسرار نخفيها أحدنا عن الآخر يا آنا».

لماذا استحوذ عليّ الخوف ذلك المساء من أني لا أعرفك حقّاً؟ هل كان ذلك بسبب زواجنا الذي اقترب موعده؟ أهمية الخطوة التي سنتخذها؟ السرعة في اتّخاذ قرار قراننا؟ لا شك أنّ خليطاً من ذلك، بالإضافة إلى ما عرفته حياتي من خيانة أشخاص كنت أعتقد أني أعرفهم حقّ المعرفة، كان وراء ذلك الخوف.

ناولتك كأساً، وجلستُ قُبالتك.

- أنا جادّ في ما أقوله يا آنا: لا أريد أن أعيش في الكذب.

- وأنا كذلك. لكن عدم العيش في الكذب لا يعني أن لا يكون لنا أسرار.

- أنت تقرين إذاً بأن لك أسراراً!

- لكلّ الناس أسرار يا رافائيل! بل ويُستحسن أن تكون لهم أسرار، لأن أسرارنا تحدّد جزءاً من هويتنا، من تاريخنا، ومن غموضنا أيضاً.

- أنا لا أسرار لدي أخفيها عنكِ.

- بل ينبغي أن تكون لديك أسرار!

خاب أملك وغضبتِ. وأنا كذلك. تبخر كلّ ذلك الفرح والمرح اللذين سادا خلال بداية تلك الأمسية.

كان يمكن أن نتوقّف عن تجاذب أطراف الحديث في تلك اللحظة، لكنني تشبثت، رغماً عنّي، بمواصلة الحديث، وسقتُ كلّ الحجج الممكنة كي أصل إلى ذلك السؤال الذي كان يؤرقني:

- لماذا تتهرّبين كلما سألتك عن ماضيك؟

- لأنّ الماضي مضى، ولا يمكننا أن نغيّره.

تضايقتُ من كلامها:

- بل الماضي يسلّط الضوء على الحاضر، وأنت تعرفين ذلك جيداً. ما هو ذلك السرّ الذي تحاولين إخفاءه؟

- لا أخفي عنك شيئاً قد يهدّد علاقتنا. ثِقْ بي! ثِقْ بنا!

- كُفي عن هذه العبارات المبتذلة!

هويتُ بكفي على الطاولة، ففزعتِ. وأخذت ملامح وجهك تعبّر عن الضيق والخوف.

كنت غاضباً لأنني كنت في حاجة إلى أن أطمئن. كنتُ قد التقيتُ بك منذ ستة أشهر فقط، وكنت قد أحببت كلّ شيء فيك منذ لقائنا الأول. لكن تلك الخصال التي جذبتني إليك أول الأمر - غموضك، تحفّظك، تروّيك، طبعك الميّال إلى العزلة- صارت مع مرور الأيام مصدر قلق بالنسبة لي، قلق يلازمني.

- لماذا تُصرّ على أن تفسد كلّ شيء؟ سألْتِني بصوتٍ متعَب.

- أنت تعرفين كلّ شيء عن حياتي. لقد سبق لي أن ارتكبت عدّة أخطاء، ولا يمكن أن أسمح لنفسي اليوم بالاستمرار في ارتكاب الأخطاء.

كنت واعياً كلّ الوعي بأن كلامي يؤلمكِ، لكني كنت أشعر أني قادر على أن أسمع منك كلّ شيء، وأن أتحمل كلّ شيء، لأنني أحبك. لو كنت تخفين شيئاً مؤلماً ترغبين في أن تبوحي به، كنت أريد أن أسمعه منكِ كي أخفّف ألمكِ، وأشاركِكِ في حمل ذلك العبء الثقيل الذي تنوئين بحمله.

كان عليّ أن أتراجع وألّا ألحّ، لكن النقاش تواصل. ولم أكن رحيماً لأنني شعرتُ، هذه المرة، أنكِ ستبوحين لي بشيء ما. فألححتُ، وتعمَّدت أن ألحّ، لكي تبلغي من التعب مداه، فتعجزين عن الدفاع عن نفسك.

- لا أسعى إلّا إلى معرفة الحقيقة يا آنا.

- الحقيقة! الحقيقة! إنك لا تكفّ عن الكلام عن الحقيقة، ولكن هل سألتَ نفسكَ يوماً إن كنت قادراً على تحمّل عبء الحقيقة؟

زرع هذا الجدال الحادّ بيننا الشك في نفسي. أصبحتِ غريبة عليّ. كان الكحل فوق عينيكِ قد أخذَ يسيل، وكانت عيناك قد أصبحتا محمَّلتين بشرارة لم يسبِق لي أن رأيتها.

- هل تريد أن تعرف إن كنتُ أحتفظ بسرّ ما يا رافائيل؟ نعم، لديّ سرّ! تريد أن تعرف لماذا لا أريد أن أكشف عنه: لأنك بمجرد أن تعرفه، لن تكفّ عن حبي فحسب، بل وستكرهني أيضاً.

- هذا غير صحيح. أنا قادر على أن أسمع منك كلّ شيء، وأن أتفّم كلّ شيء، وأن أتحمّل كلّ شيء.

هذا ما كنت متأكداً منه في تلك اللحظة. كنت متأكداً أنْ لا شيء ممّا قد تعترفين به يمكن أن يزحزحني.

- لا يا رافائيل، ليست هذه سوى كلمات عابرة، كلمات تشبه ما تكتبه في رواياتك، أمّا الحقيقة فهي أقوى من الكلمات.

انعكس الوضع. انهارَ الحاجز. أدركتُ حينها أنكِ تتساءلين، أنت أيضاً، إن كنت أخفي عنك شيئاً. أدركتُ أنك تريدين أن تعرفي، أنتِ أيضاً، إن كنتِ لا تزالين تحبينني، وأني لا أزال أحبك، وإن كانت القنبلة اليدوية التي تستعدّين لتفجيرها ستدمِّر علاقتنا.

أخذتِ عندئذٍ تبحثين في حقيبتك، وأخرجتِ منها لوحة رقمية. نقرتِ عليها رمزك السرّي، وفتحت تطبيقاً خاصاً بالصور. وأخذتِ تبحثين عن صورةٍ ما على مهل. ثم نظرت إليّ جيداً. همستِ ببضع كلمات، وناولتني اللوحة. وأخذتُ أتأمّل ذلك السرّ الذي انتزعته منكِ.

- أنا مَن فعلتُ ذلك، قلتِ.

ذهِلتُ، وأخذتُ أتفحّص اللوحة مدقِّقاً النظر إلى أن أحسستُ بقلبي ينقبض وبألم في معدتي دفعاني إلى أن أشيح بوجهي. سَرَت قشعريرة في كامل جسدي، وأخذت يداي ترتعشان، والدم يغلي في رأسي. توقعت كلّ شيء. كنت أعتقد أني استبقت كل الاحتمالات، ولكنني لم أفكر قطّ في ذلك.

وقفتُ متحاملاً على نفسي. أحسستُ بدوخة، وفقدتُ توازني، لكنني جاهدتُ لكي أخرج من الصالون ثابت الخطوات.

كانت حقيبة سفري قد بقيت في مدخل البهو. حملتها دون أن أنظر إليكِ، وغادرت المنزل.

* * *

ذهول. قشعريرة. ألم في المعدة. حبيبات عرقٍ تحجب عني الرؤية.

أغلقتُ باب السيارة وانطلقتُ وسط الظلام كأنني إنسان آلي. كان الغضب والمرارة يسريان في عروقي. وكان رأسي يعجّ بأشياء مختلفة: عنف تلك الصورة، العجز عن الفهم، والإحساس بأنّ حياتي تنهار.

بعد بضعة كيلومترات، لاح لي شبح حصن «كاريه» المتماسك

منتصباً فوق قمة صخرته الصلبة، وهو آخر مرصد نصادفه قبل أن نغادر الميناء.

لا. لا أستطيع أن أذهب هكذا. لقد ندمتُ على ما أقدمت عليه. دفعتني الصدمة إلى أن أتصرّف على ذلك النحو، لكن لم يكن ممكناً أن أختفي من حياتك من دون أن أستمعَ إلى تبريراتك. ضغطت على المكابح، وعدت أدراجي، وفي اللحظة التي درتُ بالسيارة كدتُ أصدم دراجة نارية قادمة من الاتجاه المعاكس.

كان يجب أن أساندك وأن أساعدك على التخلّص من ذلك الكابوس. كان يجب أن أكون ذاك الذي كنت وعَدْتُ نفسي أن أكونه، ذاك الذي يستطيع أن يفهم ألمكِ، ويشاركك إياه، ويساعدكِ على التغلّب عليه. قطعت طريق العودة بأقصى سرعة: مررتُ بشارع الكاب، وبشاطئ الأوند، وبميناء الأوليفيت، وأمام مقرّ سرية مدفعية الغريون، ثم مضيت في الطريق الضيق الذي يؤدّي إلى المجمع السكني.

ركنت السيارة تحت أشجار الصنوبر، وهرعت نحو المنزل الذي كان بابه مواربا:

- آنا! صرختُ وأنا أقتحم البهو.

لا أحد في الصالون. كانت قطع الزجاج متناثرة فوق أرضيته. كان أحد الرفوف المليء بالديكورات قد جُذب بقوة، فسقط على الطاولة الزجاجية، فحطّمها تماماً، وتناثرت قطع الزجاج في كل مكان. وسط هذه الفوضى، كانت حلقةُ المفاتيح التي أهديتك إياها منذ أسابيع قليلة مُلقاةً على الأرض كيفما اتفق.

- آنا!

كانت النافذة المغطاة بستارٍ مفتوحة. أزحت الستار المتطاير مع

الريح كي أعود إلى الشرفة. وناديتك من جديد. اتصلت بهاتفك المحمول، لكن من دون جدوى.

جثوت على ركبتي وأمسكت رأسي بين يديّ. أين أنت الآن يا ترى؟ ماذا حدث في أثناء تلك العشرين دقيقة التي غبت خلالها؟ بماذا تسببتُ بنبش الماضي؟

أغمضتُ عينيّ فتراءت لي لحظات من حياتنا معاً، وأدركتُ أنّ ستة أشهر من السعادة تبخّرت إلى الأبد. تبخرت الوعود بمستقبل مشرق، تبخرت الأسرة التي كنا نعتزم بناءها، تبخر مشروع إنجاب طفل، تبخر كلّ ذلك ولن يتحقق أبداً.

لمتُ نفسي.

ما فائدة أن ندّعي أننا نحب شخصاً إذا كنا عاجزين عن حمايته؟

اليوم الأول

تعلُّمُ الاختفاء

مكتبة
t.me/soramnqraa

رجُلٌ ورقيٌّ

حين لا أقرأ كتاباً أو لا أحلم بتأليف كتاب، أشعر بملل لا يُطاق. يبدو لي أنّ الحياة لا تُحتمل إلّا إذا تجنّبناها.

غوستاف فلوبير

1.

الخميس 1 سبتمبر 2016

- زوجتي تخلد إلى النوم برفقتك كلّ مساء، لحسن الحظ أني لست غيوراً!

بدا سائق التاكسي الباريسي سعيداً بمزحته، فنظر إليّ في المرآة وغمزني. خفض السرعة وشغل إشارة تغيير الاتجاه كي يلتحق بالطريق السيّار مبتعداً عن مطار أورلي.

- إنها تحب كتبك كثيراً. قرأت أنا أيضاً اثنين أو ثلاثة من كتبك، قال وهو يداعب شاربيه. رواياتك مشوقة، لكنني لا أستطيع تحمّل ما تتضمّنه من قسوة. جرائم قتل، عنف. . . أعتقد يا سيد بارتليمي، مع كامل احتراماتي، أنك تنظر إلى الإنسانية نظرة قبيحة.

فلو كان عدد المنحرفين والمجانين في الواقع المعيش كعددهم في رواياتك، لكنّا في وضعٍ لا نُحسد عليه.

تجاهلتُ كلامه ناظراً إلى شاشة هاتفي. لم تكن لديّ أي رغبة ذلك المساء في أن أخوض في نقاش حول الثقافة أو وضع العالم.

كانت الساعة تشير إلى الثامنة وعشر دقائق، وكنت قد ركبت أول طائرة كي أعود إلى باريس عاجلاً. كان هاتف آنا يحيلني على مُجيبها الآلي. بعثتُ لها عدة رسائل نصية معتذراً ومُعرباً عن قلقي، وراجياً أن تردّ عليّ.

كنت مُضطرباً، إذ لم يسبق لنا قط أن تشاجرنا شجاراً حقيقياً.

لم أنَم ليلتها، وقضيت وقتي كله في البحث عنها. بدأت بالذهاب إلى مركز المراقبة في المجمع السكني فأخبرني الحارس أنّ عدداً من السيارات دخلت المجمع في أثناء غيابي، من بينها سيارة تابعة لشركة تأجير السيارات.

- أخبرني السائق أن السيدة آنا بيكر المقيمة في فيلا «الأوند» اتصلتْ به. اتصلتُ بها عبر الإنترفون فأكّدت لي ذلك.

- وكيف تأكدت أن السائق تابع لشركة تأجير السيارات؟

- كانت شارة الشركة مُلصقة على زجاج السيارة الأمامي.

- ألديك فكرة عن المكان الذي أخذها إليه؟

- ومن أين لي أن أعلم؟

كان السائق قد أخذ آنا إلى المطار. استخلصتُ ذلك بعد بضع ساعات، حين دخلت إلى موقع شركة الخطوط الجوية الفرنسية، حيث اكتشفت بعد أن نقرت رقمَيْ سفرنا المرجعيين -أنا من اشترى تذكرتَي سفرنا- أن المُسافرة آنا بيكر غيرت تذكرة عودتها لكي تتمكن من السفر على متن آخر طائرة تنطلق من نيس إلى باريس في ذلك

اليوم، على الساعة التاسعة وعشرين دقيقة مساءً، إلّا أنها أقلعت على الساعة الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة مساءً لسببين: التأخيرات الناجمة عن عودة المصطافين من السفر، وعطل في جهاز الكمبيوتر أرغمَ كلّ طائرات الشركة على عدم الإقلاع في موعدها المحدّد.

هدأتُ قليلاً. لقد كانت آنا غاضبة مني إلى درجة أنها حطّمت طاولة من زجاج، وقدّمت موعد عودتها إلى باريس، ولكنها سالمة غانمة على الأقل.

غادر التاكسي الطريق السيار، ومضى في إحدى طرق الضواحي. كانت حركة السير بطيئة، وزادت بطئاً حين وصلنا بوابة أورليان، بل وانتهى بها الأمر أن كادت تتوقف. كانت السيارات تسير بعضها خلف بعض ببطء وسط دخان أسود لزج تقذفه عوادم الشاحنات والباصات. أغلقتُ زجاج النافذة. أوكسيد الآزوت، ذرات مُسرطِنة، أبواق زاعقة، سباب. **إنها باريس**...

دعوتُ السائق إلى أن يذهب بي إلى مونروج. بالرغم أننا كنا قد بدأنا نسكن معاً في الأسابيع الأخيرة، احتفظت آنا بشقتها في مونروج، شقة من غرفتين في عمارة عصرية بشارع أريستيد-بريان. بقيَت متشبّثة بتلك الشقة التي كانت قد تركت فيها جلّ حاجياتها. كنت آمل أن تكون قد عادت إليها بدافع من غضبها مني.

عند دوّار «البقرة السوداء» عدنا إلى الاتجاه المعاكس، ومضينا.

- لقد وصلتَ سيدي الكاتب، أعلن السائق وهو يركن السيارة بمحاذاة الرصيف، أمام بناية حديثة غير جذابة.

إنه رجل ضخم الجثة، أصلع، ذو نظرات حذرة وشفتين

رفيعتين، صوته يشبه صوت راؤول فولفوني في فيلم **الأعمام القتلة**.

- هل يمكن أن تنتظرني قليلاً؟ سألته.

- طبعاً. سأترك العدّاد مشتغلاً.

أغلقت باب السيارة وانتهزت فرصة خروج طفل يحمل حقيبة على ظهره كي أتسلل إلى داخل البهو. كان المصعد معطّلاً كالعادة. صعدت الطوابق الاثني عشر من دون توقف، وطرقت باب شقة آنا منقطع الأنفاس، واضعاً يدَي على ركبتَي. لم يردّ أحد. أخذتُ أنصت. لا حركة. كانت آنا قد رمت مفاتيح شقتي على الأرض قبل أن تهرب.

إذا لم تكن في شقتها، فأين أمضت الليل يا ترى؟

ضغطت على أجراس كلّ شقق الطابق، إلّا أنّ الجار الوحيد الذي فتح لي بابه لم يفدني بشيء. لم يرَ ولم يسمع شيئاً. إنها القاعدة المعتادة السائدة في كلّ التجمعات السكنية الكبرى.

نزلتُ إلى الشارع مغتاظاً، وأعطيت راؤول عنواني في مونبرناس.

- متى صدرت آخر رواياتك يا سيد بارتليمي؟

- قبل ثلاث سنوات، قلت متنهداً.

- وهل ستُصدر رواية جديدة؟

أشرتُ برأسي نافياً.

- ليس في الشهور القليلة المقبلة.

- سيخيب أمل زوجتي حين أخبرها.

سعيتُ إلى أن أضعَ حدّاً لهذا الحديث، فطلبت منه أن يرفع صوت المذياع كي أستمع إلى الأخبار.

كان المذياع يبث أخبار نشرة التاسعة مساء من إحدى القنوات الشعبية: اثنا عشر مليون تلميذ يستعدون اليوم، الخميس فاتح سبتمبر، للعودة إلى المدرسة. فرنسوا هولاند يفتخر بالنمو الطفيف الذي عرفه الاقتصاد الفرنسي. فريق باريس سان جيرمان لكرة القدم يحصل على خدمات مهاجم أوسط جديد على بعد ساعات قليلة من انتهاء مدة التعاقد مع اللاعبين. الحزب الجمهوري في الولايات المتحدة الأميركية يستعد للإعلان عن اسم مرشّحه في الانتخابات الرئاسية المُقبلة...

- لم أفهم جيداً، قال السائق مُلحّاً. هل **اخترت** ألّا تكتب شيئاً حالياً، أم تراك تعاني من متلازمة الصفحة البيضاء؟

- الأمر أعقد من ذلك، أجبته وأنا أنظر من خلال النافذة.

2.

الواقع أني كنت قد توقفت عن الكتابة منذ ثلاث سنوات، لأنّ الرغبة في التمتع بالحياة فرضت نفسها عليّ.

لم أكُن أعاني من العجز عن الكتابة، ولم يكُن ينقصني الإلهام. فقد كنت أحكي لنفسي حكايات كثيرة منذ سنّ السادسة، ولمّا بلغت سن المراهقة أصبحت الكتابة أهم شيء في حياتي، والوسيلة المُثلى لتوظيف فائض الخيال. كان الخيال بالنسبة إليّ مَهرباً. كان أرخص تذكرة تسمح لي بالسفر على متن طائرة تأخذني بعيداً عن كآبة الحياة اليومية. لقد شغلني الخيال سنوات طويلة، واستحوذَ على وقتي وأفكاري. كنت أقضي الوقت أمام دفتر مسوداتي، أو أمام شاشة حاسوبي المحمول، وأكتب في كلّ مكان: على المقاعد العمومية، وعلى كراسي المقاهي، وأنا واقف في المترو. وحين لا أكتب أفكّر

في شخصيات رواياتي، في ما يؤرقها، وفي غرامياتها. لم أكُن أهتمّ بأيّ شيء آخر. لم تكُن ضحالة الواقع المعيش تستحوذ عليّ إلّا قليلاً. كنت دائم البُعد والتخلف عن الواقع، دائم السباحة في عالم خيالي أنا خالقه الوحيد.

منذ سنة 2003 -وهي السنة التي صدرت فيها أولى رواياتي- وأنا أنشر كتاباً كلّ سنة. جلّها كتب من صنف الروايات البوليسية والقصص المثيرة المشوقة. وقد تعودت، في لقاءاتي الصحفية، أن أؤكّد أني أكتب كلّ يوم عدا يوم عيد ميلاد المسيح، ويوم عيد ميلادي - والحقيقة أني سرقت هذا الجواب من ستيفن كينغ، وإنه جواب كاذب كجوابه. فأنا أكتب **أيضاً** يوم عيد ميلاد المسيح، كما لا أرى أيّ مانع معقول يعطّلني عن الكتابة يوم عيد ميلادي.

لأنه من النادر أن يكون لديّ ما أشغل به نفسي عدا الجلوس أمام شاشة حاسوبي لأعيش مع شخصيات كتبي.

كنت أعشق «مهنتي»، وكنت مرتاحاً في عالم التشويق، وجرائم القتل، والعنف، الذي أخلقه. إن الراشدين كالأطفال -تذكروا الغول في حكاية **القط أبو جزمة**، والأبوين المجرمين في حكاية **الإصبع الصغير**، والوحش ذي اللحية الزرقاء، والذئب في حكاية **ليلى والذئب**- يحبون أن يلعبوا الألعاب التي تُخيفهم، وهم في حاجة أيضاً إلى حكايات تُخلّصهم من الرعب الذي في دواخلهم.

لقد جعلني افتتان القراء برواياتي البوليسية أعيش على مدى عشر سنوات حياة رائعة استطعت خلالها أن أنضمّ إلى حلقة ضيقة من الكتّاب الذين يعيشون من عائدات كتبهم. وكنت أعلم، كلما جلست إلى مكتبي صباحاً، أني محظوظ لأن أناساً كثيرين، في مختلف بقاع العالم، ينتظرون صدور روايتي القادمة.

لكن جاذبية النجاح والإبداع توقفت منذ ثلاث سنوات بسبب امرأة. قدّمني مُلحقي الصحفي، خلال إحدى الجولات الترويجية في لندن، لناتالي كورتيس، وهي عالِمة إنجليزية الأصل موهوبة في مجالَي البيولوجيا والأعمال. كانت من بين مؤسسي شركة طبية مبتدئة تهتم بصناعة وتطوير نوع من العدسات اللاصقة «الذكية» القادرة على الكشف عن أمراض مختلفة اعتماداً على نسبة الجلوكوز في سائل العين.

كانت ناتالي تعمل ثماني عشرة ساعة في اليوم. تتنقل بسهولة مدهشة بين البرمجَة، والإشراف على تجارب طبية، وتصميم خطط العمل، وعبور المناطق الزمنية الذي يأخذها إلى مختلف بقاع العالم لتقديم التقارير للشركاء الماليين.

كنا ننتمي إلى عالمين مختلفين. فأنا رجل ورقي، وهي امرأة رقمية. كنت أعيش معتمداً على خلق القصص؛ وكانت تعيش معتمدة على خلق مُعالِجات دقيقة أدقّ من شعرة الرضيع. كنت شاباً درس اللغة اللاتينية في المدرسة الثانوية، يحبّ شِعر أراغون ويكتب رسائل غرامية بأقلام الحبر. وكانت شابّة غارقة في عالم التواصل الحديث، وعالم المطارات البارد الذي لا حدود له.

إلى الآن ما زلت عاجزاً عن إدراك السبب الذي جعلنا ننجذب إلى بعضنا. لماذا اعتقدنا، في تلك الفترة بالذات من حياتنا، أن قصتنا الغريبة يمكن أن يكون لها مستقبل؟

«إننا نحب أن نكون ما لسنا عليه» كتب ألبرت كوهن يوماً. ولعلّ ذلك ما يجعلنا نحب أحياناً أشخاصاً مختلفين عنّا تماماً، لا يُشاركوننا أي شيء. أو لعلّ الرغبة في التكامل تدفعنا إلى أن نتمنى التغيّر والتحوّل. كما لو أنّ وجودنا بجانب الآخر سيجعل منّا

أشخاصاً أكثر كمالاً، وأكثر غنى، وأكثر انفتاحاً. على الورق، تبدو الفكرة جميلة، لكن الأمر يختلف في الواقع، إذ لا تتحقق هذه الفكرة إلّا نادراً.

كان وَهْم حبّنا سيتبدّد سريعاً لو لم تحبل ناتالي. لقد أطال مشروع تأسيس أسرة عمر وهمنا، بالنسبة إليّ على الأقل. كنت قد غادرت فرنسا واستقررت معها في شقّتها المكتراة في لندن، في حي بيلغرافيا، ورافقتها، قدر المستطاع، خلال أشهر حملها.

«من بين الروايات التي كتبتَ، ما هي المفضلة لديك؟» هو سؤال كان يتكرر على ألسنة الصحافيين في كل جولة من جولاتي الترويجية. وعلى امتداد سنوات طويلة تحاشيت الجواب، مكتفياً برد مقتضب: «يستحيل أن أختار، فالكتب كالأطفال».

لكن الكتب ليست كالأطفال. كنت حاضراً في غرفة الولادة لحظة ولادة ابننا. ولمّا ناولتني القابلة تيو بجسده الصغير كي أحمله بين ذراعي، أدركتُ في تلك اللحظة كم كان ذلك التوكيد الذي طالما أدليتُ به للصحافيين كاذباً.

الكتب ليست أطفالاً.

للكتب سحرٌ خاص، إنها جواز سفر إلى مكان مختلف، ووسيلة للهروب من الواقع. تستطيع أن تساعدك على مواجهة مِحن الحياة. إنها كما يقول بول أوستر: «المكان الوحيد في العالم الذي يمكن أن يلتقي فيه شخصان غريبان لقاءً حميمياً».

لكنها ليست أطفالاً. لا يوجد في العالم ما يمكن أن نُقارنه بطفل.

3.

اندهشتُ لما عادت ناتالي إلى العمل عشرة أيام فقط بعد الولادة. لم تسمح لها ساعات العمل الطويلة وأسفارها الكثيرة بأن تتمتع بالأسابيع الأولى التي تلت الولادة -تلك الأسابيع السحرية والرهيبة في الوقت نفسه- غير أن ذلك لم يؤثر فيها على الإطلاق. وقد عرفت السبب ذات مساء، لما أخبرتني بصوت واهن وهي تغيِّر ملابسها في غرفة النوم:

- لقد وافقنا على اقتراح من غوغل سيصبح بموجبه مالكاً لغالبية رأسمال الشركة.

ذُهلتُ، فلم أستطِعْ النطق إلّا بعد عدة ثوانٍ:

- هل أنتِ جادة في ما تقولين؟

نزعت حذاءها شاردة، وأخذَت تدلّك كاحلها الذي كان يؤلمها قبل أن تهوي عليّ بقولها:

- كلّ الجد. ابتداءً من يوم الاثنين المقبل، سأذهب إلى كاليفورنيا للعمل رفقة فريقي.

حدّقتُ فيها مندهشاً. لقد قضت اثنتي عشرة ساعة في الطائرة، وكنت أنا مَن يشعر بأعراض التفاوت في التوقيت[1] لا هي.

- إنه ليس قراراً تستطيعين أن تتخذينه بمفردكِ يا ناتالي! يجب أن نناقشه. ينبغي أن. . .

جلسَتْ على حافة السرير خائرة القوى.

- أعرف جيداً أنه لا يمكن أن أطلبَ منكَ أن تتبعني إلى هناك.

---

(1) Jet lag: بالإنجليزية في النص. يلجأ ميسو إلى بعض المفردات والعبارات الإنجليزية التي أصبحت متداولة في اللغة الفرنسية، فلا أشير إليها - المترجم.

لم أتمالك نفسي، فصرخت:

- لكنني **مجبر** على أن أتبعك إلى هناك! أذكِّرك أنّ لدينا طفلاً لا يتجاوز عمره ثلاثة أسابيع!

- لا تصرخ! فأنا مندهشة مثلك، لكنني لن أستطيع ذلك يا رافائيل.

- ما الذي لن تستطيعينه؟

انفجرت باكية.

- أن أكون أمّاً صالحة لتيو.

حاولتُ أن أعارضها، لكنها واجهتني عدة مرات بتلك الجملة الرهيبة التي تعبِّر عمّا في قلبها: «لم أخلق **لهذا**. أنا آسفة».

وحين سألتها كيف تتصوّر مستقبلنا معاً، كيف تتصوّره **بشكل ملموس**، نظرت إليّ نظرة متشكِّكة، ثم أخرجَت الورقة التي احتفظَت بها منذ بداية نقاشنا:

- إذا كنتَ تريد أن تربي تيو في باريس **لوحدك**، فلا مانع عندي، بل أعتقد بأنه أحسن حلّ بالنسبة إلينا معاً.

أذعنتُ صامتا، مذهولاً من حجم الارتياح الذي عبَّر عنه وجهها، وجه أم ابني. ثم خيَّم علينا صمت ثقيل، وابتلعت ناتالي قرصاً منوّماً واضطجعَت في الظلام.

عدتُ إلى فرنسا بعد ذلك بيومين، عدت إلى شقتي في مونبرناس. كان يمكن أن أوظِّف مربية أطفال، لكنني لم أقدِم على ذلك. كنت قد قررتُ قراراً حاسماً أن أرى ابني وهو يكبر، لا سيما أني كنت مسكوناً بفكرة فقدانه.

على امتداد شهور عديدة، كنت أتوقع، عند سماع رنات الهاتف، أن أسمع محامي ناتالي وهو يعلن أنّ موكلته غيَّرت رأيها،

وأنها تطالب بحضانة تيو. لكن تلك المكالمة الكابوسية لم تَصلني قط. ومرَّت عشرون شهراً من دون أن أتلقى أيّ خبر من ناتالي. عشرون شهراً مرّت كما لو أنها نسمة عابرة. أيامي التي كانت تمضي على إيقاع الكتابة، صارت بعد ذلك تمضي على إيقاع الرضّاعات، ومِركنُ قضاء الحاجة، وتغيير الحفّاضات، والنزهات في الحديقة، والحمّام الساخن، والغسيل الذي لا ينقطع. وكنت أعاني خلال تلك الأيام من قلة النوم، ومن القلق حين ترتفع حرارة تيو ولو قليلاً، والخوف من أن لا أكون في المستوى.

إلّا أنني ما كنت لأبدِّل هذه التجربة مقابل أيّ شيء آخر في العالم. وتشهد الصور الخمسة آلاف المخزّنة في هاتفي أنّ الشهور الأولى من حياة ابني جذبتني إلى مغامرة مدهشة كنت في أثنائها ممثلاً أكثر منه مُخرجاً.

4.

خفَّت حركة السير في شارع الجنرال-لوكلير. زادت سيارة الأجرة من سرعتها، فلاح أمامنا ناقوس كنيسة القديس بطرس بمونروج. حين وصلنا إلى ساحة أليسيا، انعطفت السيارة إلى شارع مين. أشعة الشمس تتدفق من بين أغصان الأشجار. واجهات حجرية، متاجر صغيرة، فنادق رخيسة الثمن.

كنت قد قرَّرتُ أن أغيب عن باريس لمدّة أربعة أيام، لكنني عدتُ إليها ساعات قليلة بعد مغادرتها. بعثتُ برسالة نصية إلى مارك كاراديك كي أخبره بعودتي السريعة، وهو الرجل الوحيد الذي أثق به بما يكفي كي أعهد إليه بابني في غيابي. كانت أبوّتي قد حوّلتني إلى إنسان شكاك، كما لو أنّ كلّ تلك الحكايات عن جرائم القتل

والاختطاف التي كنت أخلقها في رواياتي البوليسية يمكن أن تُعدي حياتي الأسرية. منذ ولادته، لم يسبق لي أن عهدتُ بابني تيو إلّا لشخصين: أماليا حارسة العمارة التي أقطنها، والتي أعرفها منذ حوالي عشر سنوات، ومارك كاراديك، جاري وصديقي، وهو شرطي سابق في فرقة مكافحة السطو. أجاب هذا الأخير على رسالتي بسرعة:

لا تقلق. ذو الشعر الذهبي
ما زال نائماً
وأنا أنتظر أن يستيقظ، ومستعد لذلك:
شغلتُ آلة تسخين الرضاعات،
أخرجتُ الأكل من الثلاجة وعدّلت
وضع الكرسي العالي
ستحكي لي ما وقع.
إلى اللقاء بعد قليل

اطمأننتُ، فحاولت أن أتصل بآنا، لكنني تلقيت جواباً من مجيبها الآلي من جديد. **هل هاتفها غير مشغل؟ هل فرغت بطاريته؟**

أنهيتُ الاتصال، وأخذتُ أفرك عينَي وأنا لا أزال مصدوماً بالسرعة التي انهارت بها قناعاتي. أعدتُ التفكير في شريط أحداث الأمس حائراً. هل كانت فُقاعة السعادة التي عشنا فيها مجرّد مظهر يُخفي وراءه واقعاً لا يبعث على السرور؟ هل يجب أن أقلق على آنا أم أن أحذر منها؟ شعرت بقشعريرة حين طرحت على نفسي هذا السؤال الأخير. كان صعباً أن أفكر فيها على هذا النحو وقد كنت،

قبل ساعات قليلة، مقتنعاً أني عثرتُ على الفتاة المناسبة، تلك التي انتظرتها سنوات عديدة، والتي كنت قد قرّرت أن يكون لي معها أطفال آخرون.

التقيت بآنا قبل ستة أشهر، في ليلة من ليالي فبراير، بقسم الطوارئ الخاص بالأطفال في مستشفى بومبيدو الذي دخلت إليه على الساعة الواحدة صباحاً. كان تيو يعاني من ارتفاع مفاجئ ومستمر في درجة الحرارة. كان يتكوّر على نفسه، ويرفض أن يأكل، وكنت قد استسلمتُ لإغراء سخيف تمثَّل في عرض لائحة أعراض مرض تيو على محرّك من محرّكات البحث. واعتقدتُ، بعد استعراض عدة صفحات على الإنترنت، أنّ ابني يعاني من مرض التهاب السحايا المدمّر. حين ولجتُ قاعة الانتظار المكتظة، كنت ميتاً من الخوف. ولمّا طال انتظاري، شكوت الأمر إلى موظّفي الاستقبال. كنت في حاجة إلى أن أطمئن في أسرع وقت، وكنت أريد أن يعالجوا ابني **الآن**. قد يموت، قد...

- اهدأ يا سيدي.

كانت شابة طبيبة قد ظهرت فجأة من حيث لا أدري. تبعتها إلى قاعة حيث فحصت تيو بعناية فائقة.

- غدد طفلك منتفخة، قالت وهي تتحسَّس عنقه. إنه يعاني من التهاب اللوزتين.

- مجرد التهاب في اللوزتين؟

- نعم. وعُسر البلع يفسّر رفضه للطعام.

- هل سيزول ذلك بعد تناول مضاد حيوي؟

- لا. إنه تعفّن فيروسي. استمرّ في إعطائه الباراسيتامول وسيشفى خلال أيام قليلة.

- هل أنت متأكدة من أنه ليس مصاباً بمرض التهاب السحايا؟ قلت ملحّاً وأنا أثبّت تيو المترنّح في مقعده النقال.

ابتسمت.

- ينبغي أن تتوقف عن تصفّح المواقع الطبية على الإنترنت، لأنها لا تولّد إلّا الجزع.

قادتنا إلى البهو الكبير في مدخل المستشفى، وفي اللحظة التي كنت سأودّعها، بعد أن اطمأننت على ابني، أشرتُ إلى آلة توزيع المشروبات وسمعت نفسي أقترح عليها:

- أأقدّم لكِ القهوة؟

بعد أن تردّدت برهة، أخبَرت زميلتها أنها ستستريح قليلاً، وتجاذبنا أطراف الحديث لربع ساعة في بهو المستشفى.

اسمها آنا بيكر، في الخامسة والعشرين من عمرها، وهي طبيبة متدرّبة متخصّصة في طبّ الأطفال، في عامها الثاني. ترتدي وزرتها البيضاء كما لو أنها معطف من ماركة بربري. كلّ شيء فيها أنيق من دون مبالغة: رأسها المرفوع بفخر، قسمات وجهها الرقيقة، رنّة صوتها الناعمة الدافئة.

كان بهو المستشفى يتأرجح بين لحظات من الهدوء والهياج، ويسبح في ضوء خيالي. كان ابني قد نام في مقعده. وكنت أنظر إلى آنا التي كانت أجفانها ترفّ. كنتُ أعلم منذ وقت طويل أنه ليس من المسلّم به أن يكون وراء وجه ملائكي روح طيبة، لكنني استسلمت، رغم ذلك، لسحر تلك الأجفان الجميلة، ولتلك البشرة الخُلاسية التي بلون الخشب الثمين، والشعر الناعم المنسدل على جانبي وجهها بتناسق.

قالت وهي تشير إلى الساعة الحائطية:

- يجب أن أعود إلى العمل.

أصرَّت، رغم الوقت الذي يمرّ، أن ترافقنا إلى موقف سيارات الأجرة على بُعد ثلاثين متراً من مدخل المستشفى. كنا نقف وسط ظلام الليل، في عزّ فصل شتاء قطبي. كانت بعض ندف الثلج تتراقص وسط سماء من ثلج. شعرتُ شعوراً لا يطاله الشك، وأنا أقف بجانب آنا، بأننا أصبحنا زوجين، بل بأننا أصبحنا أسرة. أحسستُ كما لو أنّ السماء صارت ملأى بالنجوم، كما لو أننا سنعود، نحن الثلاثة، إلى المنزل تواً.

ثبَّتُّ مقعد تيو فوق مقعد السيارة الخلفي، ثم التفتّ إلى آنا. كانت أضواء المصابيح تمنح البخار الخارج من فمها مسحة زرقاء. بحثتُ عن كلمة من شأنها أن تُضحِكها، لكنني سألتها، عوض ذلك، عن الساعة التي تنتهي فيها من العمل.

- بعد قليل، على الساعة الثامنة.

- إذا شئتِ أن تتناولي وجبة الفطور... فإنّ المخبزة في زاوية الشارع الذي أقيم فيه تحضّر هلاليات رائعة...

أعطيتُها عنواني، فابتسمَت. ظلّ اقتراحي عالقاً في الهواء لحظة من دون أن يحظى بجواب، ثم انطلقت سيارة الأجرة، وفي طريق العودة تساءلت هل أحسَسنا كلانا بالإحساس نفسه.

نمتُ نوماً مضطرباً، لكن دقّت آنا جرس الباب صباح غد في اللحظة التي كان ابني ينهي رضّاعته، وكانت حالة تيو الصحية قد تحسّنت. ألبَستُه طاقية وبدلة، ولكي أفي بوعدي خرَجنا نحن الثلاثة لشراء الهلاليات. كان يوم أحد، وكانت باريس مُثقلة بالثلوج، وكانت شمس فصل الشتاء، من خلال سماء مكفهرة، ترشّ الأرصفة التي كانت لا تزال ناصعة البياض بأشعتها الواهية.

كنا قد التقينا، ومنذ ذلك الصباح الساحر لم نفترق أبداً. ومرّت تلك الشهور الستة الجميلة، تلك الشهور التي شعرتُ خلالها بالراحة، والتي كانت أسعد فترة في حياتي.

انقطعتُ عن الكتابة خلالها، لكنني تمتَّعت بالحياة بالمقابل. فتحَتْ تربية طفلي والشعور بأنني عاشق عينيّ على الحياة الحقيقية، فأدركتُ أنّ عالم الخيال تطفّل على حياتي أكثر من اللازم. بفضل الكتابة، تماهيت مع شخصيات رواياتي المختلفة، وعشتُ مئات التجارب كجاسوس متخفٍّ. لكن تلك الحيوات المُوَكّلَة كانت قد أنستني أن أتمتّع بحياتي، حياتي الحقيقية.

الأستاذ

القِناع جذّاب لدرجة أنه يُشعرني بالخوف من الوجه الذي يُخفيه.

ألفريد دو موسيه

.1

- بابا! بابا!

ما أن تجاوزتُ عتبة المنزل حتى استقبلني ابني بصيحات امتزجت فيها الدهشة بالحماس. تقدّم تيو نحوي بمشيته السريعة المترنحة، فأمسكته بسرعة وضممتُه إلى صدري. يحدث ذلك في كلّ مرة: الالتحام نفسه، دفقة الأوكسجين نفسها، والارتياح نفسه.

- وصلت في موعد الفطور تماماً، قال مارك كاراديك وهو يُغلق الرضاعة التي كان قد أخرجها من آلة التسخين.

كان الشرطي السابق يسكن في مَرسَم فنان يُشرِف على الساحة الداخلية في العمارة التي أقطن فيها، الواقعة في وسط مونبارناس. كانت الشقة، المشرفة على كوّة زجاجية كبيرة مُشعة، شبه جرداء: أرضية خشبية نظيفة، رفوف من خشب، طاولة عتيقة صُنعت من جذع شجرة. وفي ركن من الغرفة، يصعد سلّم مفتوح نحو نِصْفِيّة تتخللها أخشاب ناتئة.

أمسكَ تيو رضاعته وصعد إلى كرسي الاستلقاء. وعلى الفور، انشغل تماماً بالحليب الساخن وانصرف إلى شربه بشغفٍ كما لو أنه حُرِم من الطعام زمناً طويلاً.

استغللت هذه اللحظة الهادئة كي ألتحق بمارك في الركن المخصص للمطبخ، المطل على الساحة.

إنه في الستين من عمره، عيناه زرقاوان حادّتا النظر، شعره قصير أشعث، حاجباه كثّان، لحيته مُخضّبة بالشيب. ذو وجه يمكن أن يعبّر، بحسب حالته النفسية، إمّا عن رقة كبيرة، وإمّا عن برودة بالغة.

- أُعدّ لك قهوة؟

- قهوة مُركّزة، قلتُ متنهداً، ثم جلستُ على أحد المقاعد العالية عند منضدة البار.

- طيب، هلّا حكيتَ لي ما يحدث؟

وبينما كان منشغلاً بتحضير القهوة، حكيتُ له كلّ شيء - تقريباً. اختفاء آنا بعد شجارنا، عودتها المحتملة إلى باريس، غيابها عن شقتها في مونروج، هاتفها غير المشغّل أو نافد البطارية. وتعمَّدتُ أن لا أقول له شيئاً عن الصورة التي أطلعَتني عليها، فقد كان عليّ أن أعمِّق البحث حولها قبل أن أحدِّث عنها أيّ شخص آخر.

كان الشرطي السابق ينعم الإصغاء إليّ، ينصت بتركيز مقطّب الجبين. كان يرتدي جينزاً، وقميصاً أسود، وحذاء جلدياً أنيقاً، ويبدو كما لو أنه ما زال يزاول مهنته.

- ما رأيكَ في ما قلت؟ سألته خاتماً كلامي.

مطّ شفتيه وتنهد.

- لا شيء يُذكر. لم يُتح لي أن أتحدث كثيراً مع حبيبتك. يُخيَّل إليّ أنها كانت تتجنّبني كلّما التقينا في ساحة العمارة.

- إنه طبعها، فهي متحفِّظة وخجولة قليلاً.

وضع مارك فنجان القهوة على الطاولة أمامه. كان كتفاه العريضان اللذان يشبهان أكتاف المصارعين، وعنقه الذي يشبه عنق ثور، يبرزان بوضوح تحت الضوء الخارجي المسلط عليهما. كان كاراديك، قبل أن يُصاب خلال تبادلٍ لإطلاق النار على إثر سطو على إحدى المحلات التجارية في ساحة فاندوم فيُرغَم على أن يتقاعد باكراً، شرطيّاً متميّزاً، وأحد أبطال شرطة مكافحة السطو. كان قد شارك، في سنوات 1990 و2000 في بعض القضايا التي عرفت تغطية إعلامية واسعة: حلّ عصابة الضاحية الجنوبية، اعتقال أفراد الجماعة التي كانت تسطو على الشاحنات المصفّحة لدريم تيم، وحلّ عصابة «النقانقيين»[1] التي كانت تنتقي ضحاياها من بين أغنى الأشخاص في فرنسا، ملاحقة أفراد جماعة Pink Panters، عصابة البلقان الشهيرة التي سطت، على مدى عشر سنوات، على أكبر محلات بيع المجوهرات في العالم. كان قد اعترفَ لي بأنه لقي صعوبة في أن يقبل التقاعد الذي أجبِر عليه، وقد أثَّر ذلك عليه فجعله يبدو مُفرغاً ومتعباً على الدوام، وكان ذلك يحزّ في نفسي.

- ماذا تعرف عن أبويها؟ سألني وهو يجلس قبالتي ويتناول قلماً ودفتراً صغيراً يستعمله في تسجيل قائمة مشترياته.

- أشياء قليلة. أمها فرنسية، لكن أصلها من باربادوس. ماتت

---

(1) عصابة شهيرة كانت تقيد ضحاياها، وهم من الأغنياء، في منازلهم، كما النقانق، قبل تعذيبهم قصد الحصول على أرقام خزاناتهم - المترجم.

بسرطان الثدي لما كانت آنا في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها.

- وأبوها؟

- نمساوي، قدم إلى فرنسا في نهاية السبعينيات. مات منذ خمس سنوات إثر حادث عمل في ورش لبناء السفن بسان-نازير.

- هل هي وحيدة أبويها؟

أومأتُ بالإيجاب.

- هل تعرف أصدقاءها الأقربين؟

استعرضتُ ذهنياً لائحة الأشخاص الذين أستطيع أن أتّصل بهم. قليلون، إن لم نقل نادرين. بحثت في لائحة الأسماء المسجّلة في هاتفي، فعثرتُ على رقم مارغو لاكروا، وهي طبيبة كانت قد تدربت في قسم التوليد بمستشفى روبرت دوبريه بتزامن مع آنا. كانت قد دعتنا الشهر الماضي للاحتفال بانتقالها إلى مسكنها الجديد، فتقاربنا. إنها الصديقة التي كانت آنا قد اختارتها كي تشهد على زواجنا.

- اتَّصل بها، نصحَني كاراديك.

جربتُ حظّي، واتصلتُ بها. عندما ردّت، كانت مارغو قد أوشكت على أن تشرع في مزاولة مناوبتها. أكَّدت لي أنها لا تعلم شيئاً عن آنا منذ يومين.

- اعتقدتُ أنكما تقضيان عطلة عاشقين في الكوت دازور. هل كلّ شيء على ما يرام؟

تحاشيتُ الردّ عليها، وشكرتها قبل أن أقطع الاتصال، ثم سألتُ مارك:

- لا فائدة من اللجوء إلى الشرطة، أليس كذلك؟

ارتشف مارك آخر جرعة من قهوته الإسبريسو.

- في هذا الطور، أنت تعرف أنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً. آنا راشدة، ولا شيء يدلّ على أنها في خطر، إذاً...

- هل تستطيع مساعدتي؟

رمَقَني بنظرة جانبية:

- ماذا تقصد بالضبط؟

- قد تعتمد على معارفك في الشرطة كي ترصد تحركات هاتف آنا، وتنفذ إلى بريدها الإلكتروني، وتراقب عمليات السحب بواسطة بطاقتها البنكية وحركة حسابها الجاري، وتطلب منهم أن يحللوا...

رفع يده لكي يوقفني.

- ألا تعتقد أنّ ذلك مبالغ فيه؟ إذا كان رجال الشرطة يلجؤون إلى مثل هذه الأمور كلّما تشاجروا مع صديقاتهم...

قمتُ من على مقعدي غير راضٍ، لكنه أمسك بكُمي.

- مهلاً يا فراشة! إذا كنت تريدني أن أساعدك، فعليك أن تُطلعني على الحقيقة كلها.

- ماذا تقصد؟

هزّ رأسه وهو يتنهد تنهيدة طويلة.

- لا تتغابى يا رافائيل. لقد أجريتُ تحقيقات على مدى ثلاثين عاماً، فأنا أعرف جيداً إنْ كان مَن أحقّق معه صادقاً أم كاذباً.

- لكنني لم أكذب عليك.

- حين لا تقول كلّ الحقيقة فأنت تكذب. لا شكّ أنك تخفي عني شيئاً أساسيّاً، وإلّا لما بدوتَ قلقاً إلى هذه الدرجة.

2.

- أنهيتُ بابا! أنهيتُ! صاح تيو وهو يناولني الرضاعة.

قرفصتُ بجانب ابني كي آخذ منه الرضاعة الفارغة.

- أتريد شيئاً آخر يا بُني؟

- كادو! كادو! قال الطفل الصغير مُطالباً بالحلوى التي يُحبها: أصابع ميكادو بالشكولاتة.

وضعتُ حدّاً لحماسته قائلاً:

- لا يا حبيبي، الميكادو ستتناولها لاحقاً كوجبة خفيفة.

لما أدرك أنه لن يحصل على أصابع الميكادو، لاحَ تعبير عن الخيبة، بل عن الغضب، على وجه ابني الملائكي. ضمّ إلى صدره كلبه الوبري الذي لا يفارقه أبداً -الشهير باسم فيفي- وأوشك أن ينخرط في البكاء، لكن مارك كاراديك بادرَ إلى إعطائه قطعة خبز محمصة.

- هيا أيها الولد العاصي، خذْ قطعة من الخبز عوض الشوكولاتة.

- خبز! خبز! صاح تيو مسروراً.

لا أحد يستطيع أن ينكر أن لهذا الشرطي الفظّ، المتخصِّص في القبض على المجرمين الذين يسطون على البنوك ويحتجزون الرهائن، موهبة في التعامل مع الأطفال.

تعرّفتُ على مارك كاراديك منذ انتقل، قبل خمس سنوات خلت، إلى العمارة التي أقطن فيها. إنه شرطي مختلف، مولع بالأدب والموسيقى الكلاسيكيين وبالأفلام السينمائية. أعجبني على الفور، وارتحنا أحدنا إلى الآخر. في قسم مكافحة السطو كانوا يلقّبونه بـ«الأستاذ» نظراً إلى ثقافته الواسعة. كنت ألجأ إليه باستمرار

حين أكون منشغلاً بكتابة إحدى رواياتي البوليسية. لم يبخَل عليّ يوماً بالحديث عن الطرائف والنوادر التي صادفها في عمله. كان يسدي إليّ عدة نصائح في أثناء الكتابة، بل وكان يرحّب بقراءة مسودات رواياتي ويصححها.

وسرعان ما صرنا صديقين. نذهب معاً إلى ملعب حديقة الأمراء حين يستقبل فريق باريس سان جيرمان فريقاً آخر في ميدانه. ونقضي أمسيات، مرة في الأسبوع على الأقل، نأكل السوشي ونشرب الجعة. ونشاهد على شاشة تلفازي السينمائية أفلاماً بوليسية كورية، ونعيد مشاهدة أفلام جان-بيير ميلفيل، ووليام فريدكن، وسام بيكنباه.

لقد ساعداني مارك وأماليا حارسة عمارتنا كثيراً في تربية ابني، ونجدتي عند الحاجة. كان يرعاه حين يكون عليّ أن أخرج لجلب بعض الحاجيات. ويقدّم لي نصائح ثمينة لا سيما حين لا أدري كيف أتصرّف. لقد علّمني أهم ما ينبغي تعلّمه في تربية الأطفال: علمني أن أثقَ بابني، وأن أصغي إليه قبل أن أضَع القوانين وأحدّدها، وأن لا أخاف أن لا أكون أهلاً بالنهوض بمهمّة تربيته.

3.

- «أنا مَن فعلتُ ذلك». هذا ما قالته لي آنا وهي تُطلعني على إحدى الصور في لوحتها الرقمية.

- ماذا رأيتَ في تلك الصورة؟ سألني مارك.

كنا جالسَين إلى المائدة في المطبخ. وكان قد صبّ لنا فنجانين آخرَيْن من القهوة. كان ينظر إليّ بتركيز. إذا كنتُ أريده أن يساعدني، فلم يكن لي من خيار إلّا أن أطلعه على الحقيقة كلها.

الحقيقة العارية. قلت وأنا أخفض صوتي بسبب تيو، وإن كان عاجزاً عن فهم مثل هذا الكلام:

- رأيتُ ثلاث جثث مُفحّمة.

- أتسخرُ مني؟

- لا. ثلاث جثث مصطفة، مضطجعة بعضها إلى جانب بعض.

اتّقدت شرارةٌ في عينَي الشرطي. جثث. موت. كنا قد انتقلنا في بضع ثوانٍ من الشجار الزوجي إلى عالم الموت والجثث، عالمه.

- هل كانت تلك المرة الأولى التي تحكي لك فيها عن شيء كهذا؟

- طبعاً.

- ليس لديك إذاً أية فكرة عن طبيعة تورّطها في ذلك الأمر؟

أشرت برأسي نافياً. قال مُلحّاً:

- أطلعتكَ على الصورة من دون أيّ شرح؟

- سبق أن قلتُ لك إني لم أمهلها. كنت مذهولاً. كانت الصورة من الفظاعة بحيث أني تركتها من دون أن أسألها عن شيء. وحين عدت، كانت قد رحلت.

نظر إليّ مُستغرباً، وكأنه كان يشكّ في أنّ الأمور حدثت تماماً كما حكيتها له.

- ما هو حجم تلك الجثث؟ هل هي جثث راشدين، أم جثث أطفال؟

- يصعب عليّ أن أحدد ذلك.

- وما نوع المكان الذي كانت موجودة فيه؟ هل كانت موجودة في الهواء الطلق؟ هل كانت فوق طاولة تشريح؟ أم فوق...

- اللعنة، لا أعرف، لا أعرف شيئاً! كلّ ما يمكن أن أقوله هو أنها كانت سوداء كالفحم، التهمتها حرارة النيران فتفحّمت كلياً.

لاحَقَني كاراديك بأسئلته:

- حاول أن تكون أكثر دقّة يا رافائيل. تذكَّر جيداً. استعرض الصورة أمام ناظريك. أريد تفاصيل أكثر.

أغمضت عينَي كي أستعيد المشهد. لكنني سرعان ما فتحتهما لأنّ استعادة ما رأيته في الصورة أشعرني بالغثيان. جماجم مكسرة. صدور ممزقة. بطون مشقوقة بارزة أحشاؤها. وبذلت كلّ ما في وسعي، بإلحاح من كاراديك، كي أصفَ الجثث بأعضائها المتقلِّصة، وجلدها المتفحّم المتشقّق، وعظامها البيضاء العاجية التي تخترق اللحوم.

- وأين كانت مُمَدّدة؟

- أظن أنها كانت على الأرض مباشرة. وربما فوق لحاف...

- هل آنا فتاة مستقيمة؟ ألا تتعاطى المخدرات؟ أليست مصابة بمرض عقلي؟ ألم يسبق لها أن عولجت بمستشفى للأمراض العقلية؟

- أثيرُ انتباهك إلى أنّك تتحدث عن المرأة التي كنتُ على وشك أن أتزوّجها.

- أجِبْ عن سؤالي من فضلك.

- لا، لا شيء من ذلك. إنها طبيبة متدربة. طبيبة كفؤة.

- لماذا كنت تشكّ في ماضيها إذاً؟

- اللعنة، أنت تعرف قصّتي! تعرف كيف انتهَت آخر علاقاتي!

- ما الذي كان يقلقكَ في تصرّفاتها بالضبط؟

أخذتُ أعدّد له:

- تردّدها حين تحكي عن ماضيها، فهي تبدو كما لو أنها لم تعِشْ مرحلة الطفولة والمراهقة. سرّيتها القصوى. رغبتها في أن لا تثير الانتباه، وتطبعها بذلك. تردّدها في أنْ تُلتقط لها صور. قُلْ لي بصراحة: أتعرف فتيات في سن الخامسة والعشرين ليس لديهن حساب في الفيسبوك، ولا يشاركن في أيّ موقع من مواقع التواصل الاجتماعي؟

- شيء مُحيِّر فعلاً، اعترفَ الشرطي، لكن الأمر من الغموض بحيث لا يمكن إجراء بحث.

- كيف لك أن تصف بالغموض أمراً يتعلق بثلاثة جثث!

- اهدأ. نحن لا نعرف شيئاً عن تلك الجثث. ثم إنها طبيبة، وربما صادفت تلك الجثث خلال فترة دراستها.

- أليس هذا سبباً إضافياً لإجراء بحث؟

4.

- ألم تأتِ عاملة منزلكَ بعدُ؟

- إنها لا تأتي إلّا عند بداية بعد الظهر.

- أحسن، قال مارك.

كنّا قد اجتزنا الباحة ووصلنا إلى شقتي، وجلسنا في مطبخي، وهو عبارة عن غرفة في ركن الشقة تشرف على شارع كامبان-بروميير وعلى رصيف معبر دانفير. كان تيو قد جلس عند أقدامنا رفقة كلبه الوبري فيفي، وكان يسلّي نفسه بإزالة الملصقات المغناطيسية من على باب الثلاجة، ثم إعادتها إلى مكانها.

بعد أن فحص كاراديك حوض المطبخ، فتح غسالة الأواني.

- عمّ تبحث بالضبط؟

- عن شيء لم تلمسه إلّا آنا. الفنجان الذي شربت فيه قهوتها البارحة مثلاً.

- إنها تشرب الشاي في هذا، قلت وأنا أشير إلى فنجان فيروزي اللون مزيّن بصورة لتان تان، فنجان كانت قد اقتنته خلال زيارتها لمتحف للرسام هيرجيه.

- هل لديك قلم؟

ما أغرب أن يُسأل كاتب مثل هذا السؤال! قلت في نفسي وأنا أناوله قلمي.

سحب مارك الفنجان من الغسالة بالقلم، ووضعه فوق منشفة ورقية كان قد وضعها على الطاولة. ثم أخرج من حقيبة جلدية صغيرة علبة زجاجية تحتوي على غبار أسود وريشة، وعلى لفة شريط لاصق وبطاقة ورق مقوّى.

إنها عدّة الشرطة العلمية.

بحركات مضبوطة، غطس رأس الريشة في الغبار الأسود ودهن الفنجان على أمل أن تكشف ذرات الحديد والكاربون عن بصمات تركتها آنا على الفنجان.

إنه مشهد سبق أن وصفته في إحدى رواياتي، إلّا أنّ المشهد هنا واقعي، والشخص الذي نطارده ليس مجرماً وإنما المرأة التي أحبها.

نفخ الشرطي على الفنجان، مزيلاً بقايا الغبار، ثم وضع نظارته كي يفحص سطح الفنجان.

- أرأيت هذه البصمة؟ إنها بصمة إبهام حبيبتك، قال راضياً عن نفسه.

قطع قطعة من اللاصق ووظّفها بعناية في تثبيت البصمة على الورقة المقوّاة.

- التقِطْ صورة لهذه البصمة، طَلبَ مني.

- لماذا؟

- لم أعُد على اتصالٍ بكثيرٍ من الزملاء في قسم مكافحة السطو. أغلب زملائي القدامى تقاعدوا، ولكنني أعرف شرطياً في قسم الجرائم اسمه جان-كريستوف فاسور، وهو شرطي فاشل وسيئ، ولكن إذا حصلنا على بصمة صالحة للاستعمال، وأعطيناه 400 يورو، فسيقبل أن يجري بحثاً في ملفّ حفظ البصمات في حاسوب الشرطة القضائية.

- ملف حفظ البصمات؟ بصراحة، أشك أن يكون سبق لآنا أن ارتكبت جريمة ما أو مخالفة، أو سبق لها أن سُجنت.

- قد نُفاجأ بما سنتوصّل إليه. ما حكيته لي قبل قليل عن رغبتها المرضية في أن لا تثير الانتباه يوحي بأنّ لديها ما تُخفيه.

- أليس لدى كلّ منا ما يُخفيه؟

- كُفّ عن مثل هذه الجُمل الروائية، والتقط الصورة التي طلبت منك التقاطها، وابعَثْ لي بها عبر البريد الإلكتروني قبل أن أتّصل بفاسور.

التقطت عدّة صور بواسطة هاتفي، ثم عدّلتها بواسطة تطبيق لتعديل الصور كي تصبح واضحة قدر المستطاع.

- ماذا نفعل الآن؟ سألت كاراديك بعد أن أرسلت الصورة إلى بريده.

- نعود إلى منزل آنا في مونروج ونواصل البحث عنها إلى أن نجدها.

ليل الروح الأسود

لا تثق أبداً بالمرأة التي تحبها.
ليوبولد فون زاخر مازوخ

1.

تعود سيارة مارك كاراديك الرينج روفر إلى أواخر الثمانينات.

كانت السيارة القديمة -أكثر من ثلاثمئة ألف كيلومتر على العدّاد- تمضي في زحمة السير بصعوبة، وتتجاوز أشجار حديقة منتسوري، وتمضي في الضاحية بمحاذاة شارع بول-فايان-كوتيرييه المليء برسومات الغرافيتي، ثم بمحاذاة واجهة فندق إيبيس في شارع باريس.

كنت قد عهدت بتيو إلى أماليا، بعد أن اقترحَ عليّ مارك أن يرافقني. وكنت لا أزال، إلى تلك اللحظة، آمل أن تُسوّى الأمور على أحسن وجه. فربما تعود آنا إلى الظهور من جديد، وربما لا يكون «سرها» بتلك الخطورة التي اعتقدتها. ستشرح لي كلّ شيء، ثم تعود الحياة إلى سابق عهدها، ونتمكن من تنظيم حفل زفافنا في شهر سبتمبر، في كنيسة سان-غيلهم، معقل عائلتي التاريخي، كما كنا قد اتفقنا.

كانت رائحة السيارة غريبة: مزيج من رائحة الجلد، والأعشاب اليابسة، والسيجار. خفَّف مارك من السرعة فسعلت السيارة رباعية الدفع كما لو أنها تعبت. إنها سيارة عتيقة ذات مقاعد مخملية بالية، ومخفّفات للصدمات تبدو كأنها سلّمت الروح إلى بارئها منذ زمن طويل، إلّا أنّ علوها وزجاجها الواسع يسمحان لك بأن تُشرف على حركة السير من علٍ.

وصلنا إلى شارع أريستيد-بريان الواسع كأنه طريق سيار.

- هنا، قلت وأنا أشير إلى عمارة آنا على الجانب الآخر من الطريق. لكن لا يمكنك أن تعبر الطريق من هنا، عليك أن تعود أدراجك إلى الدوّار الـ. . .

وقبل أن أتمّ جملتي، أدار مارك المقود إلى أقصاه واستدار نصف دورة وسط زعيق الأبواق وصرير العجلات، قاطعاً الطريق على سيارتين ابتعدتا عنه بقوة لتفادي حادثة سير.

- أنت لا تعي ما تفعل يا مارك!

حرّك الشرطي رأسه، ثم صعد بالرينج روفر فوق الرصيف، وكأنه لم يكن راضياً عن الاكتفاء بمخالفة واحدة.

- غير مسموح لنا بأن نركن السيارة هنا يا مارك!

- نحنُ الشرطةُ، قال حاسماً وهو يسحب المكبح اليدوي.

وأنزل واقية الشمس التي كان مثبتاً عليها شارة «الشرطة الوطنية».

- من سيصدّق أنّ الشرطة تستعمل مثل هذه السيارة الرجراجة؟ سألته وأنا أغلق الباب. ثم إنك لم تعُد في سلك الشرطة. . .

وأخرج من جيب سرواله الجينز مفتاحاً عاماً.

- يبقى الشرطي شرطياً إلى الأبد، قال وهو يفتح باب بهو مدخل العمارة.

يا لها من معجزة! لقد أصلحوا المصعد المعطل منذ آخر زيارة لي. قبل أن نصعد إلى الشقة، ألححتُ كي نذهب إلى مرأب السيارات ونُلقي عليه نظرة. كانت سيارة آنا الميني كوبر مركونة في مكانها المعهود. عدنا إلى المصعد. الطابق الثاني عشر. الرواق خالٍ. وبعد أن قرعتُ الجرس، أخذتُ أنقر الباب، لكن من دون جدوى.

- ابتعِدْ، أمَرني الشرطي وهو يرجع إلى الخلف.

- مهلاً، قد لا نحتاج إلى أن نكسر الـ. . .

2.

انفتح الباب بعد المحاولة الثانية.

دخل كاراديك إلى الردهة ومسح المكان بنظرات سريعة: أربعون متراً مربعاً مُعدّة بعناية: أرضية من خشب السنديان، جدران باللون الكريمي تتوسّطها بعض الرسومات بالباستيل، صالون مؤثث على الطريقة الاسكندنافية، مطبخ مفتوح، دولاب للملابس يمتدّ إلى غرفة النوم.

شقّة فارغة وهادئة.

عدتُ أدراجي لألقي نظرة على المزلاج. كان الباب قد انفتح بسهولة لأنه لم يُقفل بالمفتاح، فقد اكتفى آخر مَن خرج من الشقة بأن يغلق الباب خلفه من دون أن يقفله بالمفتاح. ليس من عادة آنا أن تفعل ذلك.

مفاجأة ثانية: كانت حقيبة سفر آنا في مدخل الشقة، وسط

الردهة. حقيبة موشاة بقطع من الجلد الملون. جثوتُ على ركبتي كي أفتش جيوبها، لكنني لم أجد فيها ما يُثير الانتباه.

- آنا عادت من نيس إذاً. . .، شرع كاراديك يقول.

- . . . قبل أن تختفي من جديد، قلت متأسفاً.

تملّكني القلق، فحاولتُ أن أتصل بها، لكن ردّ عليّ المجيب الآلي.

- طيب، سنفتش الشقّة! قرر كاراديك.

ثم مضى نحو الحمام رأساً وأخذ يفكّك السيفون، كردّ فعل مألوف لشرطي يقوم بتفتيش.

- لا أدري إن كان يحقّ لنا أن نفعل ذلك يا مارك.

لمّا لم يعثر على شيء في الحمام، انتقل إلى غرفة النوم.

- أذكِّرك أنك أوّل من بدأ! فلو لم تبحث في ماضي صديقتك، لكنتَ الآن معها في الكوت دازور ممدّداً تعرِّض جسدك لأشعة الشمس الذهبية.

- هذا ليس سبباً كي. . .

- رافائيل! قاطعني مارك. حين سألت آنا، كان لديك حدس سرعان ما تبين أنه صحيح. الآن، عليك أن تتمّ ما بدأته.

نظرت إلى غرفة النوم. سرير من خشب فاتح اللون، دولاب مليء بالملابس، خزانة مثقلة بكتب الطب والمعاجم وكتب قواعد اللغة المألوفة لدي: كروفيس، هاينز، بيرتو دو شازو، وبعض الروايات الأميركية في لغتها الأصلية أيضاً: روايات دونا تارت، وريتشارد باورز، وتوني موريسون. . .

بعد أن فتش أرضية الشقة جيداً، انشغل مارك بتفتيش الأدراج.

- اهتمّ بحاسوبها! أمرني لما رآني واقفاً لا أحرّك ساكناً. فأنا لا أفهم الشيء الكثير في الإعلاميات.

رأيت حاسوبها الماكبوك فوق منضدة البار الذي يفصل المطبخ عن الصالون.

منذ التقيت آنا، لم أزُرها في شقّتها إلّا خمس أو ست مرات. كانت هذه الشقة ملجأها، وكانت تشبهها: أنيقة، هادئة، وزاهدة تقريباً. فكيف نجحت في أن أغضبها إلى درجة أنها اختفت؟

جلست أمام شاشة الحاسوب وضغطت زرّ التشغيل. ولجت إلى سطح المكتب من دون كلمة سرّ. كنت أعرف أن لا فائدة من تفتيش حاسوبها لأن آنا لا تثق في الحواسيب أصلاً. وإذا كان لديها ما تخفيه حقاً، فكنت أشكّ أنْ أجده في أحشاء هذا الماكبوك. لكن لكي أريح ضميري، بدأت أستعرض بريدها الإلكتروني. كان عبارة عن رسائل لها علاقة بدروسها وبتداريبها في المستشفى. وفي المكتبة المتعدّدة الوسائط عثرت على قطع كثيرة من موسيقى موزارت، وعلى برامج وثائقية علمية، وآخر حلقات المسلسلات التلفزيونية التي كنا نشاهدها معاً. ولجت إلى سجلّ البحث: مواقع إعلامية، مؤسسات، ومئات الصفحات حول موضوع بحثها الأكاديمي. ولا شيء مهم في القرص الصلب الذي كاد أن يكون مليئاً بالملاحظات، والرسوم البيانية، ووثائق PDF، وعروض PowerPoint متعلّقة ببحثها. لم يكن حاسوبها مهماً من حيث ما يمكن أن نعثر عليه فيه، بل من حيث ما لا نعثر عليه فيه بالأحرى: لم يكن فيه أي صور عائلية، أو أفلام سجلت خلال العطل، أو رسائل إلكترونية تدلّ على أن لها شبكة أصدقاء حقيقيين.

- يجب أن تلقي نظرة على هذه الأوراق، قال كارادِيك وهو

عائد إلى الغرفة حاملاً علب كرتون ملأى بملفات تضمّ وثائق إدارية: قسيمات الرواتب، فواتير، إيصالات الكراء، كشوفات حساب مصرفية. . .

وضع العلب على الأرض، ثم ناولني مغلفاً بلاستيكياً.

- عثرت على هذا أيضاً. هل هناك شيء في الحاسوب؟

أشرت برأسي نافياً، ونظرت إلى ما بداخل المغلف: صورة من تلك الصور التي تُلتقط لتلاميذ المدارس، من روضة الأطفال إلى الأقسام الثانوية. على الصورة حوالي عشرين فتاة أنيقات محترمات متجمعات في ساحة المدرسة، ترافقهن أستاذة في الأربعين من عمرها. كانت الفتاة الجالسة في الوسط تحمل لوحة كُتب عليها بالطباشير:

ثانوية القديسة سيسيليا

بكالوريا علمية

2009-2008

في الصف الأخير، تعرفتُ على آنا. متحفّظة محترسة. مائلة نظرتها قليلاً، غاضّة بصرها بعض الشيء. تبتسم ابتسامة وديعة، وترتدي كنزة صوفية ياقتها على شكل حرف V، تحتها قميص أبيض مزرّر حتى العنق. إنها الرغبة نفسها في أن لا تثير الانتباه، في أن تمحو معالم أنوثتها كي تبعد الأنظار عن جمالها الجذاب.

ألّا تلفت الأنظار. ألّا تثير الرغبة.

- هل تعرف مدرسة القديسة سيسيليا هذه؟ سألني مارك وهو يُخرج علبة سجائر من جيبه.

قمت ببحث سريع على هاتفي. تقع مدرسة القديسة سيسيليا في

شارع غرونيل، وهي مؤسسة دينية وسط الأحياء الراقية، ثانوية كاثوليكية خاصة وانتقائية، تقتصر على تعليم الفتيات.

- هل كنت على علم بأنّ آنا درست في هذه المدرسة؟ إنها ليست في متناول فتاة فقيرة من حي سان-نازير، قال مارك وهو يُشعل سيجارته.

انصرفنا إلى البحث في «الأرشيفات» المودَعَة في العلب الكرتونية. وبمقارنة الوثائق وتقاطعاتها، توصلنا إلى إعادة بناء مسار حياة آنا.

كانت قد سكنت في مونروج قبل سنتين، بعد أن اشترت هذه الشقة سنة 2014، في عامها الثالث والأخير كطالبة غير ملتحقة بمستشفى. اشترتها مقابل 190000 يورو آنذاك، وأدّت ثمنها بواسطة دفعة أولى قدرها 50000 يورو، بالإضافة إلى قرض من البنك على مدى عشرين سنة. إنها الطريقة الكلاسيكية المتَّبعة في اقتناء المنازل.

خلال سنتَي 2012 و2013، كانت قد اكترت شقة صغيرة في عمارة بشارع القديس غيوم.

بالنسبة إلى سنة 2011، عثرنا على إيصالات كراء لغرفة من غرف الخادمات[1] في حي الأوبسيرفاتوار، موقَّعة من طرف شخص يُدعى فيليب لوليفر.

وتوقفت اللائحة عند هذا الحدّ. استحال أن نعرف أين سكنت آنا خلال سنتها الأولى في دراسة الطب، وخلال سنوات دراستها الثانوية. هل سكنت مع أبيها؟ أم في إحدى الإقامات الجامعية؟ أم

(1) غرف صغيرة فوق منازل الأغنياء كانوا يخصّصونها في السابق لعاملات منازلهم - المترجم.

في غرفة أخرى من غرف الخادمات غير المصرّح بها؟ أم في سكن الثانوية التي درست فيها؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

3.

أطفأ كاراديك عقب سيجارته في أحد الصحون، وتنهد. انشغل بتحضير القهوة وهو يفكر. وفي الوقت الذي كان يسخن فيه الماء، استمرّ يستعرض ما تبقى من الوثائق. توقف عند صورة طبق الأصل من بطاقة ضمان اجتماعي، طوى الورقة ووضعها في جيبه. ثم فتش الفرن، وشفاطة روائح الأكل، وأرضية الشقة، والحواجز، لكن من دون جدوى.

ومن دون أن يستشيرني، حضَّر لنا قهوة ريستريتو، وأخذ يرتشفها مفكراً. شيء ما كان يشغَل باله، لكنه لم يكُن يعرف ما هو. بقي صامتاً إلى أن فهم:

- انظُر إلى المصباح.

التفتّ إلى مكان المصباح في ركن الصالون.

- نعم؟

- لماذا وُصل بالكهرباء في ركن الصالون، في حين أنّ هناك مقبساً كهربائياً ثلاثياً في خشبة أسفل الجدار، تحته تماماً؟

فكرة ليست غبية. . .

اقتربتُ من المصباح، ثم جثوت على ركبتَي وسحبتُ مقبس الكهرباء الثلاثي فانجذب بسهولة. لم يكن المقبس موصولاً بأيّ سلك كهربائي، كما حزر كاراديك. اضطجعتُ على الأرضية، وأدخلت ذراعي في الحيز الفارغ، ونجحت في تحريك الخشبة وإزاحتها.

كان هناك شيء مخبّأً خلف الخشبة.
حقيبة.

4.

حقيبة كبيرة من القماش الأصفر موشاة بعلامة كونفرس الدائرية. تعلوها طبقة خفيفة من الغبار أفقَدَتها لونها. كانت فيما مضى خردليّة اللون، فصارت الآن صفراء صفرة حائلة توحي بأنها حقيبة قديمة.

كانت من الثقل بحيث لا يمكن أن نعتقد أن محتواها بريء. فتحتها متحمّساً وقلقاً في آنٍ معاً، ومتهيّباً ممّا قد أعثر عليه بداخلها.

اللعنة!

كنت على حق حين قلقت.

إنها ملأى عن آخرها بحزم من الأوراق النقدية.

عدت خطوة إلى الوراء وكأنّ المال حيّ وسينقضّ على وجهي.

أفرغ كاراديك محتوى الحقيبة على المنضدة - أوراق من فئة 50 و100 يورو. تراكمت الحزم فوق المنضدة مشكِّلَة هرماً متداعياً هشّ القاعدة.

- كم المبلغ في رأيك؟

عدّ بعض الحزم، وأغمض عينيه قليلاً وهو يُجري حساباً ذهنياً:

- 400000 يورو بحسب أول تقدير.

ماذا فعلت يا آنا؟

- ما مصدر هذا المال في رأيك؟ سألته مذهولاً.

- ليس من عائدات كشفها على المرضى في المستشفى على كلّ حال.

أغمضتُ عينَي لحظة وأنا أمسّد رقبتي. هذا القدر من المال يمكن أن يكون مصدره السطو، أو بيع كمية خرافية من المخدرات، أو ابتزاز أحد الأثرياء. . . وماذا أيضاً؟ تساءلت.

وقفزت صورة الجثث المفحمة إلى ذاكرتي من جديد. لا شك أنّ لها علاقة بهذا المال. ولكن أية علاقة؟

- ما زالت تنتظرك مفاجآت أخرى يا رجل.

داخل الحقيبة، في إحدى الجيوب الجانبية، كان كاراديك قد عثَرَ لتوّه على بطاقتَي تعريف عليهما صورة آنا حين كانت في السابعة عشر أو الثامنة عشر من عمرها. كانت البطاقة الأولى تحمل اسم بولين باجيس، والثانية اسم ماغالي لامبير. اسمان لا أعرف عنهما شيئاً.

استرجعهما مارك مني كي يتفحّصهما بعناية.

- إنهما مزورتان بطبيعة الحال.

أخذت أنظر إلى ما وراء النافذة حائراً. كانت الحياة لا تزال مستمرة خارج الشقة. كانت الشمس ترسل أشعتها، بلا مبالاة، على واجهات العمارة المقابلة. وكان شريط من أزهار اللبلاب ملتوياً على إحدى الشرفات. كنّا لا نزال في فصل الصيف.

- هذه البطاقة مزورة تزويراً سيئاً، أكّد مارك وهو يلوّح بالبطاقة الأولى. إنها نسخة مصنوعة في تايلاند أو فيتنام. تستطيع أن تحصل عليها مقابل 800 يورو في أيّ حيّ من الأحياء الشعبية هناك، وهي متداولة في أوساط المتعاطين للمخدرات.

- والثانية؟

عدّل من وضع نظارته، وأخذ يتفحّص البطاقة بنظرة خبيرة وكأنه من صائغي الماس.

- الثانية أحسن بكثير، ولكنها متداولة منذ مدة. من صنع لبناني أو مجري. تستطيع أن تحصل على واحدة مثلها مقابل ثلاثة آلاف يورو. إنها لن تصمد أمام فحص متعمّق، ولكن يمكنك استعمالها في الحياة اليومية من دون خوف.

أحسست بدُوار. لم أعُد أفهم شيئاً. استغرق الأمر دقيقة كاملة كي أستعيد وعيي بما حولي.

- صارت الأمور جليّة الآن على الأقل، قال كاراديك حاسماً. ليس لدينا من خيار إلّا أن نعود إلى ماضي آنا بيكر.

طأطأت رأسي. قفزت إلى ذاكرتي صورة الجثث المفحمة المُروعة من جديد، ومعها صوت آنا وهي تقول هامسة: «أنا مَن فعلتُ ذلك. أنا مَن فعلتُ ذلك...».

4

تعلّمُ الاختفاء

كي تكون الكذبة مُقنِعة، يجب أن تحتوي على حدّ أدنى من الحقيقة. وإن قطرة واحدة من الحقيقة لَتكفي على العموم، ولكنها ضرورية ضرورةَ حبة الزيتون في كوكتيل المارتيني.

ساشا أرانغو

.1

أحسّ مارك كاراديك بالفراشات تتطاير في بطنه، كما لو أنه في الخامسة عشر من عمره ويستعدّ للذهاب إلى لقاء مَن يحبها لأول مرة. الخوف نفسه كان يراوده، والهياج نفسه.

يبقى الشرطي شرطياً إلى الأبد. كانت صورة الجثث المفحمة، والحقيبة الملأى بالمال عن آخرها، والبطاقتان المزوّرتان، وحياة آنا المُزدوجة كافية كي يسري أدرينالين الصيّاد في عروقه من جديد. فمنذ أن أرغمته رصاصة طائشة على ترك عمله، لم يشعر مارك بتلك اللذة الفريدة التي يشعر بها رجال شرطة البحث والتحري، رجال شرطة الميدان الذين لا ينفرون من العمل الذي تتطلبه كلّ الملاحقات. الصيادون.

حين غادرا عمارة آنا، قرر رافائيل ومارك أن يفترقا كي يقوم كلّ واحد منهما بتحرياته الخاصة. وكان مارك يعرف بالضبط النقطة التي يريد أن يعمق البحث فيها أولاً.

وصل إلى حيّ لا بوت أوكاي، ومضى في شارع كلاسيير. إنه يعرف هذا الحي جيداً. استغل فرصة التوقف عند الضوء الأحمر كي يستعرض لائحة أرقام معارفه على شاشة هاتفه، وتوقف عند الرقم الذي كان يبحث عنه: ماتيلد فرانسنس. واندهش من أنه ما زال يحتفظ برقم هاتفها بعد كلّ تلك السنوات.

اتصل بها، وتعرّف باستحسان إلى الصوت الذي ردّ عليه على الفور:

- مارك! ما هذا الغياب الطويل...

- تحياتي يا حلوتي. أتمنى أن تكوني بخير. أما زلتِ تعملين في الضمان الاجتماعي؟

- نعم، ولكنني استطعت أن أنتقل أخيراً من صندوق الضمان التابع لإيفري. وأنا الآن أعمل في المقاطعة 17، في حي باتنيول، وسأُحال على التقاعد في شهر مارس.

- تحيا الحرية. أخبريني، ما دمت لا تزالين تعملين، هل تستطيعين أن تقومي ببحثٍ من أجلي حول...

- كنت أعرف أنّ مكالمتك لا يمكن أن تكون بدافعٍ من الصداقة فحسب.

- ... فتاة اسمها آنا بيكر. لدي رقم انتسابها للضمان، سجّليه عندك من فضلك.

انتقلت الإشارة إلى الضوء الأخضر. قاد السيارة وهو يُخرج

الورقة التي كان قد طواها ووضعها في جيبه وأملى الرقم على ماتيلد.

- مَن هي؟

- فتاة في الخامسة والعشرين، خلاسية، جميلة، تتابع دراستها الطبية. اختفت فجأة، وأنا أساعد أسرتها كي تجدها.

- هل تعمَل لحسابك الخاص؟

- كمتطوّع. تعرفين ما يُقال عن الشرطي: يبقى الشرطي شرطياً إلى الأبد.

- ماذا تريد أن تعرف بالضبط؟

- كلّ ما تستطيعين التوصّل إليه.

- طيب، سأبذل ما بوسعي، وأتّصل بكَ بعد ذلك.

أنهى مارك المكالمة راضياً. المرحلة التالية: فيليب لولييفر.

حين أجرى بحثاً على هاتفه، كان مارك قد لاحظَ أنّ اسم لوليفر موجود على الصفحات الصفراء[1] بصفته طبيباً للأسنان، وأنّ عيادته تقع في عنوان الشقة نفسه التي اكترتها آنا في بداية سنة 2010.

لمّا وصل إلى شارع بور-رويال، لمح سقف محطة القطار الزجاجي، ثم واجهة مطعم لا كلوزري دي ليلا النباتية. شغل إشارة تغيير الاتجاه وانعطف إلى شارع الأوبسرفاتوار، وتجاوز النافورة وخيولها البحرية المنتصبة وسط مياهها المتدفقة. ركن سيارته تحت أشجار الكستناء، وأغلق الباب، وانتظَرَ ريثما ينتهي من تدخين سيجارته وهو ينظر إلى الجانب الآخر من الحديقة حيث أركان مركز

---

(1) المقصود دليل الهاتف الخاص بالأعمال التجارية - المترجم.

ميشليه وعارضاته المصنوعة من الآجر الأحمر التي تذكّر بألوان أفريقيا وإيطاليا الوهّاجة.

أخذ كاراديك يتأمل الأطفال الصغار وهم يمرحون في الملعب شارداً، غارقاً في استرجاع ذكرياته. أيام كان يسكن في شارع سان-ميشيل، كان يأتي أحياناً للّعب في هذا المكان مع ابنته. كانت أياماً سعيدة لم يدرك قيمتها إلّا في وقت متأخر. طرف بعينيه، لكن لم تتلاشَ الذكريات بل تلاحقت، فاستعاد صوراً أخرى، وأماكن أخرى، ولحظات سعادة أخرى. كان كلّ ذلك مصحوباً بضحكة ابنته لمّا كان عمرها خمسة أو ستة أعوام. تذكرها وهي تتزحلق من على المزلقة، تذكرها وهي تركب الخيول الخشبية في ساكري-كور. رآها وهي تقفز لتقبض على فقاقيع الصابون. رآها بين ذراعيه على شاطئ بالومباغيا وهي ترفع عينيها نحو السماء وتشير بإصبعها إلى الطائرات الورقية.

بعد سنّ معيّنة، لا يخشى المرءُ شيئاً سوى ذكرياته. أين سمعت هذا؟ تساءل وهو يسحق عقب سيجارته على الرصيف. عبر الشارع، ودق جرس باب العمارة، ثم صعد الأدراج مسرعاً. كان قد احتفظ، كما يفعل بعض رجال الشرطة، ببطاقته المهنية فأراها للفتاة السمراء المكلّفة بالاستقبال.

- أنا من شرطة مكافحة السطو يا آنسة، وأرغب في مقابلة الدكتور.

- سأخبره بحضورك.

أسعده أن يستعيدَ إحساساته وردود أفعاله الماضية: حركاته، وطريقته في فرض نفسه على الآخرين، والسلطة التي تمثلها بطاقته

المهنية وألوانها الثلاثة، البطاقة التي هي بمثابة مفتاح سحري لكلّ الأبواب. . .

انتظر واقفاً، متكئاً على شباك الاستقبالات. كانت عيادة طب الأسنان قد عرفت إصلاحات حديثة، ويشهد على ذلك رائحة الدهان التي كانت تفوح من المكان. إنه فضاء أراده صاحبه أن يبدو عصرياً ودافئاً في الوقت نفسه، إذ كان يشتمل على منضدة وكنبات من خشب مدهون بالأبيض، وعلى حيطان زجاجية وستائر من خشب البامبو. وكانت موسيقى «مهدّئة» تسبح في جنبات العيادة، موحية بحركات الأمواج، بواسطة ناي وقيثار رومنسيين. شيء لا يُحتمل حقاً.

كان لوليفر، بعكس ما تصوره، طبيب أسنان شاباً لم يتجاوز الأربعين. ذو رأس مدور، وشعر قصير، ونظارات برتقالية اللون، وعينين ضاحكتين. كانت بدلته الطبية قصيرة الكمين تسمح بظهور وشم مثير: حيوان أسطوري وحيد القرن.

- هل تعرف هذه المرأة يا دكتور؟ سأله كاراديك بعد أن عرّف بنفسه.

وناول الطبيبَ هاتفه النقال، وعلى شاشته صورة لآنا حديثة العهد بعثها إليه رافائيل. أجاب لوليفر من دون تردد:

- طبعاً. إنها الطالبة التي اكترت مني إحدى غرف الخادمات قبل أربع أو خمس سنوات خلت. اسمها آنا. . . نسيت اسم عائلتها.

- آنا بيكر.

- هو ذاك. كانت، إذا لم تخنّي ذاكرتي، تدرس الطب في جامعة ديكارت بباريس.

- وماذا تتذكر عنها غير ذلك؟

أخذ لوليفر يفكّر.

- أشياء قليلة جداً. كانت مكترية مثالية. متحفظة، ولا تتأخر في أداء الكراء. كانت تؤديه نقداً، ولكنني صرحت بكل شيء لمصلحة الضرائب. وإذا كنت تريد دليلاً على ذلك فسأطلب من خبير المحاسبة أن يمدّك. . .

- لا داعي لذلك. هل كانت تستقبل زواراً كثيرين؟

- لا أذكر منهم أحداً. كانت تبدو وكأنها تعمل ليل نهار. لكن، لماذا هذه الأسئلة يا نقيب؟ هل أصابَها مكروه ما؟

حكّ كاراديك أنفه، وتلافى الردّ على السؤال.

- سؤال أخير يا دكتور: هل تعرف أين كانت تسكن آنا قبل أن تكتري إحدى غرفك؟

- طبعاً: صهري سابقاً كان قد أجّر لها غرفة.

أحسّ الشرطي بتيار كهربائي خفيف يسري بداخله، فقد كانت تلك المعلومة من النوع الذي أتى ليبحث عنه.

- مانويل سبونتيني، هذا هو اسمه، قال الطبيب مكملاً جوابه. اضطر، بعد الطلاق، أن يبيع شقته في شارع الجامعة وغرفة الخادمة التابعة لها.

- الغرفة التي كانت تسكن فيها آنا؟

- نعم. علمت أختي أني أبحث عن مستأجرٍ، فأعطت آنا رقم هاتفي.

- وأين يمكنني أن أجد سبونتيني هذا؟

- لديه مخبزة في شارع فرانكيلن روزفلت، لكن أحذرك، إنه شرّير. تأخرت أختي كثيراً قبل أن تهجره.

2.

بعد أن تعبتُ من انتظار سيارة أجرة في بوابة أورليان، ركبت الحافلة 68.

- شارع دو باك؟ ستصل إليه في أقل من عشرين دقيقة، وَعَدني سائق الحافلة.

تهالكت على أحد المقاعد. كنت مذهولاً، محطّماً، شبه منهار. أعدتُ التفكير في كلّ ما اكتشفته خلال ساعات قليلة: صورة الجثث الثلاث، نصف المليون يورو المخبأة خلف الخشبة، البطاقتان المزورتان. كم كان كل ذلك بعيداً عن صورة الفتاة التي عرفتها: الطالبة المجدَّة، الطبيبة المثالية المتخصِّصة في طب الأطفال، اللطيفة الرقيقة مع الأطفال، الرفيقة المرحة الرائقة. وتساءلت عن الحادث الذي استطاع أن يغيّر حياة آنا إلى هذه الدرجة.

جاهدتُ لأستعيد رباطة جأشي واستغللتُ الوقت الذي أمضيته في الطريق كي أدرس المعلومات المتوفرة على الإنترنت عن ثانوية القديسة سيسيليا.

كانت تلك الثانوية الخاصة بالبنات عبارة عن مؤسسة كاثوليكية من نوع خاص. فهي مؤسسة صغيرة لا يربطها بوزارة التربية الوطنية أي عقد رسمي، لكنها، وعلى عكس تلك المؤسسات الكثيرة المتخصّصة في إعداد التلاميذ للحصول على البكالوريا، كانت تحصل على نتائج مشرّفة، لا سيما في شعبة العلوم.

لم يكن الجانب الديني للمدرسة أمراً شكلياً، فبالإضافة إلى القداس الذي يُقام مرتين في الأسبوع، والصلوات الجماعية، كانت التلميذات يحضرن دروساً في الدين كلّ أربعاء بعد الظهر، ويشاركن في عدة أعمال خيرية.

لم يكذب عليّ السائق، فقد وصلنا إلى شارع دو باك ولم تكن الساعة قد أشارت إلى الحادية عشرة بعد.

حي القديس توما الأكويني. قلب الأحياء الراقية في باريس. حي الأرستقراطية وفنادقها الخاصة. حي الوزارات والعمارات البرجوازية المبنية بالأحجار المقصوبة، العمارات ذات السقوف الأردوازية والواجهات النظيفة.

بعد خطوات قليلة، وصلت إلى شارع غرونيل. قرعت الجرس وأطلعت الحارس على بطاقة التعريف. خلف البوابة المقوسة، كانت هناك ساحة مُبلّطة، خضراء مزهرة، تتخللها أشجار مختلفة وزهور الغار. ساحة صمّمت على شكل مربع كالأديرة، وتضم نافورة حجرية تجعلها شبيهة بحديقة توسكانية. دق جرس خفيف معلناً عن موعد تغيير قاعات الدرس، فعبرت الساحة في هدوءٍ جماعات صغيرة من التلميذات مرتديات تنانير زرقاء مغضنة وسترات مطرزة بشارة. إنّ خضرة المكان، وخرير المياه المتدفقة، وبدلات الفتيات، لتحمل الزائر بعيداً عن باريس، فيخيل إليه أنه عاد إلى سنوات الخمسينيات في إيطاليا، أو في آكس-أون-بروفانس، أو في إحدى المدارس الإنجليزية.

وتذكرتُ، خلال ثوانٍ قليلة، ساحة **ثانويتي**. ثانوية سلفادور أليندي في إيسون. الثانوية التي درست فيها في مطلع التسعينيات، بعيدة كل البعد عن هذا المكان الناعم. كنا ألفَي تلميذ محشورين داخل أسوار إسمنتية. العنف، المخدرات، الأفق المظلم. والأساتذة الذين لا يفكرون إلّا في ترك المدرسة، والقلة القليلة من التلاميذ المجدّين الذين يلاحَقون ويُحتجَزون ويُضرَبون. كوكب آخر. واقع آخر. واقع مؤلم هربت منه بكتابة القصص.

فركتُ عيني لكي أطرد الذكريات، وسألت البستاني الذي كان منهمكاً في سقي أعشاب القويسة عن مدير المؤسسة.

- مدير المؤسسة؟ السيدة بلونديل هي مديرة المؤسسة. إنها تلك السيدة التي تقف هناك أمام السبورة التي تحت القوس.

كلوتيلد بلونديل. . . تذكرت أني كنت قد قرأت اسمها على موقع الإنترنت. شكرته وتوجّهت نحو المديرة. إنها المرأة التي كنت قد رأيتها على صورة التلميذات الجماعية في منزل آنا. في الخمسين من عمرها، طويلة القامة، ترتدي بدلة من التويد الخفيف، وقميصاً من القطن، لصيق، أمغر اللون. كانت كلوتيد بلونديل اسماً على مسمى: شقراء[1]، مشرقة، جمالها يقع في الوسط بين جمال غريتا غاربو ودلفين سيريغ. كان قدّها يشع تحت أشعة شمس الصيف الذهبية كطيف سماوي. مكتبة .. سُر مَن قرأ

كانت تضع كفها على كتف إحدى التلميذات، فاستغللت انفرادهما كي أتفحصها أكثر. قَسَمات ناعمة، يصعب تحديد سنها، متألقة من دون ترفُّع. كانت تقف في المكان الذي يناسبها في الحديقة: بين تمثال العذراء وتمثال القديسة سيسيليا. تمتاز بما تمتاز به الأمهات من صلابة، وإشاعة الطمأنينة. لذلك كانت الفتاة التي تتكلم إليها تشرب كلامها الذي يخرج من فمها عذباً عميقاً. ما أن انتهتا من حديثهما حتى اقتربتُ منها كي أقدِّم نفسي:

- صباح الخير سيدتي، أنا. . .

برقَت عيناها بريقاً زمرّدياً.

---

(1) Blondel: في اللغة الفرنسية اسم علم قريب صوتياً من Blond الذي يعني شقراء - المترجم.

- أعرف جيداً مَن أنت يا رافائيل بارتليمي.

قطّبتُ جبيني مضطرباً. استرسَلَت قائلة:

- أعرفك لأنني من قرائك، ولأن آنا لا تتحدث منذ ستة أشهر إلّا عنك.

وجدتُ صعوبة في إخفاء تفاجئي. بدَت كلوتيلد بلونديل كأنها تتسلى بارتباكي. حيّرتني أكثر وأنا أنظر إليها عن كثب. وجه مصقول، رائحةُ لَيلك فواحة، وجنتان ناصعتان.

- مدام بلونديل، هل رأيتِ آنا مؤخّراً؟

- تناولنا العشاء معاً الأسبوع الماضي، كعادتنا كلّ ثلاثاء مساء.

انتفضتُ. منذ عرفتها وآنا تدّعي أنها تخصِّص كل مساء ثلاثاء لممارسة الرياضة. لكنها لم تكن المرة الأولى...

انتبهت كلوتيلد إلى اضطرابي.

- رافائيل، إذا كنت قد جئتَ اليوم إلى هنا فلأنك تعرف مَن أنا، أليس كذلك؟

- لا، جئت لأنني قلق على آنا.

وأطلعتها على المغلف البلاستيكي.

- هذه هي الصورة التي جعلتني أصل إليك.

- أينَ وجَدتها؟

- في شقة آنا. لا شك أنّ لها معنى ما، ما دامت الصورة الوحيدة التي احتفظَت بها.

تظاهرَت بأنها مستاءة.

- هل فتّشتَ شقتها في غيابها؟

- دعيني أخبركِ بما وقَع.

وأخبرتها، في بضع كلمات، عن اختفاء آنا، لكنني تجنَّبتُ الحديث عن أسباب شجارنا.

استمعَت إليّ من دون انفعال.

- تشاجرتَ أنت وخطيبتك، فعادت إلى باريس وحدها كي تلقّنك درساً. أتمني أن تكون قد فهمتَ الدرس وأخذتَ منه العبرة.

لم أكُن مستعداً لتلقي أية دروس:

- أعتقد أنك لا تدركين خطورة الوضع. فأنا لم آتِ إلى هنا بسبب شجارنا.

- أنصحكَ أن تتحاشى تفتيش حاجياتها مستقبَلاً. فأنا أعرف آنا جيداً، وأؤكّد لكَ أن ذلك لن يعجبها.

تغيّر صوتها، فصار مكثفاً، أجشَّ، متردّداً.

- أعتقد أني كنت على صواب حين أقدمتُ على ذلك.

أظلمت نظرتها قليلاً، ففقدت عيناها بريقهما.

- خُذْ صورتكَ وانصرف.

واستدارت لتنصرف بدورها، لكنني أصررت:

- أودّ أن أكلّمكِ عن صورة أخرى.

وفي الوقت الذي كانت تبتعد، رفعت صوتي كي أرشقها بسؤال أخير:

- سيدة بلونديل، هل سبق لآنا أن أطلعتكِ على صورة تظهر فيها ثلاثة جثث مفحمة؟

التفتت بعض التلميذات. عادت المديرة فوقفت أمامي:

- أعتقد أنه يحسن بنا أن نصعد إلى مكتبي.

.3

الدائرة الثامنة.

شغّل كاراديك إشارة تغيير الاتجاه، وأنزل واقي الشمس، ثم ركنَ السيارة في مكان مخصَّص لتسليم البضائع في شارع سان-فيليب-دو-رول.

تقع مخبزة سبونتيني في ملتقى شارعَي لابواسي وفرانكلين روزفلت، وهي مخبزة ذات واجهة زجاجية وستائر بنية اللون وزخارف ذهبية، متخصصة في تحضير الخبز والحلويات الفاخرة عالية الجودة. دخل مارك وأخذ ينظر إلى البائعات المنشغلات بعرض السندويشات المختلفة في واجهات العرض الزجاجية في هذا الحي التجاري، استعداداً لاستقبال الزبائن عند حلول منتصف النهار في فترة استراحتهم. أشعَرَه منظر الطعام بالجوع. كانت عودة رافائيل المفاجئة قد دفعته إلى أن يتخلى عن تناول وجبة الفطور، ما يعني أنه لم يأكل شيئاً منذ أمس. طلب ساندويشاً باللحم، وأعرب عن رغبته في مقابلة مانويل سبونتيني. أحالته النادلة بإشارة من رأسها على الحانة الصغيرة قبالة المخبزة.

عبَرَ كاراديك الشارع. كان سبونتيني جالساً في الشرفة يقرأ جريدة **الفريق**. كان يرتدي قميصاً، وعلى الطاولة أمامه كأس جعة. كانت سوالفه، وشعره الكثيف الأشعث، والسيجارة بين شفتيه، ونظارات الراي-بان، تمنحه هيئة الممثل جان يان في أفلام كلود شابرول وموريس بيالا.

- مانويل سبونتيني؟ هل يمكن أن نتحدث قليلاً؟

فرض كاراديك نفسه عليه على حين غرة، إذ جلس قبالته،

ووضع كوعَيه على الطاولة كما لو أنه يريد أن يتحدّاه في لعبة المصارعة الذراعية.

- مَن أنت يا هذا؟ صاح سبونتيني متراجعاً إلى الخلف.

- النقيب كاراديك، من شرطة مكافحة السطو. أجري تحرياً حول آنا بيكر.

- لا أعرفها.

أراه مارك صورة آنا على الهاتف، هادئ الأعصاب.

- لم يسبق لي أن رأيتها.

- أنصحكَ أن تدقِّق النظر.

تنهّد سبونتيني وانحنى على شاشة الهاتف.

- فتاة سوداء جميلة! سأكون سعيداً لو تمكّنت من الوصول إليها.

أمسك كاراديك، بسرعة خارقة، بشعر سبونتيني وضغط رأسه على سطح الطاولة الحديدي، فترنّح كأس الجعة وسقط على الرصيف.

أثار صراخ الخبّاز انتباه النادل.

- سأتصل بالشرطة!

- أنا الشرطة يا صغيري! ردّ مارك وهو يُخرج بطاقته بيده الشاغرة. أحضِر لي كأسَ بيرييه.

ابتعد النادل، فأرخى مارك قبضته.

- اللعنة، كدت تكسر أنفي، قال سبونتيني متأوّهاً.

- اخرس وقُلْ لي ماذا تعرف عن آنا، فأنا أعرف أنك أجَّرت لها غرفة. احكِ لي كلّ شيء.

تناول سبونتيني حفنة مناشف ورقية كي يمسح الدم النازف من منخره الأيسر.

- لم يكُن اسمها آنا.

- اشرح.

- كان اسمها باجيس، بولين باجيس.

ألقى كاراديك بطاقة تعريف آنا المزورة على الطاولة، كما يكشف المقامر عن ورقته الرابحة.

تناول سبونتيني البطاقة وتفحّصها.

- نعم، إنها البطاقة نفسها التي أرتني إياها حين أتت لمقابلتي أول مرة.

- ومتى كان ذلك؟

- لا أذكر.

- حاول أن تتذكر.

عندما أحضر النادل ما طلبه مارك، عاد سبونتيني إلى ذكرياته. وأخذَ يفكّر بصوتٍ عالٍ، بعد أن مسح أنفه من الدّم.

- متى انتخب ساركوزي رئيساً؟

- في شهر مايو 2007.

- نعم، خلال فصل الصيف التالي، هبّت عاصفة هوجاء على باريس، فغمرت المياه عمارتنا. كان علينا أن نصلح جزءاً من السقف، وأن نرمّم الغرف الصغيرة. انتهينا من أعمال الترميم في فصل الخريف، فنشرت إعلاناً في محلاتي الثلاث. وقد كانت فتاتك الجميلة الخلاسية أوّل مَن أبدَت رغبتها في الكراء.

- في أي شهر إذاً؟

- شهر أكتوبر، أعتقد. نهاية أكتوبر 2007. أو بداية شهر نوفمبر على أبعد تقدير.

- والكراء، هل كنت تصرّح به؟

- ألا تدرك حقيقة الوضع الذي نعيشه يا رجل؟ بالإضافة إلى كلّ ما يسرقونه منّا، تريد مني أن أصرِّح بكراء غرفة مساحتها اثنا عشر متراً مربعاً؟ أجَّرتها في السوق السوداء، 600 يورو نقداً، غير قابلة للمساومة. وكانت الفتاة تحرص على تأديتها بانتظام.

- سنة 2007، كانت لا تزال قاصراً. كان عمرها ستة عشر عاماً.

- بطاقتها لا تفيد ذلك.

- بطاقتها مزورة، وكنتَ على يقين أنها كذلك.

هزّ مانويل سبونتيني كتفيه.

- لا فرق عندي أن يكون عمرها خمس عشرة أو تسع عشرة سنة، فأنا لم أسعَ إلى التحرّش بها. لقد أجَّرتُ لها غرفة، وهذا كلّ ما في الأمر.

جرّ سبونتيني كرسيه على الإسفلت متبرماً، وحاول أن ينهض، لكن كاراديك أمسك بذراعه.

- كيف كانت لمّا رأيتها أول مرة؟

- اللعنة، لا أعرف! لقد مرَّت عشر سنوات على ذلك!

- إذا أسرعتَ في الإجابة، فسأسرعُ في إنهاء هذه المقابلة.

تنهد سبونتيني تنهيدة طويلة.

- كانت خائفة، تائهة. وأعتقد أنها لم تكُن تغادر غرفتها إطلاقاً خلال الأسابيع الأولى، كأنها خائفة من كلّ شيء.

- استمرّ. أعطيني معلومتين أو ثلاث أخرى وسأنصرف.

- طيب... قالت إنها أميركية، أتت إلى باريس لمتابعة دراساتها العليا.

- قالت إنها أميركية؟ وهل صدَّقتها؟

- لكنتها كانت أميركية على كلّ حال. لكن ذلك لم يهمني إطلاقاً في الواقع. كلّ ما همَّني هو أنها أدَّت ثلاثة أشهر مسبقاً. ادَّعَت أنّ والدَيها هما من يؤدِّيان الكراء.

- وهل التقيتَ والديها؟

- لا، لم ألتقِ أحداً قط. بلى... التقيتُ بامرأةٍ شقراء برجوازية كانت تزورها بين الفينة والأخرى. في الأربعين، من النوع الذي يرتدي تنورة لصيقة بالمؤخرة، فكنت سأكون سعيداً لو حصلتُ عليها هي الأخرى. إنها من صنف شارون ستون أو جينا ديفيس، هل تفهمني؟

- هل تعرف اسمها؟

أشارَ الخبّاز برأسه نافياً. فاستأنف كاراديك:

- لنعُد إلى فتاتنا. هل كانت متورِّطة في شيء يثير الشبهات؟

- مثل ماذا مثلاً؟

- المخدرات؟ الدعارة؟ السطو؟

عبَّرت عينا سبونتيني عن الدهشة.

- أعتقد أنك مخطئ تماماً يا رجل. رأيي أنها كانت مجرّد فتاة تريد أن تدرس وتعيش في سلام، فتاة ترغب في أن يكفّ أحدهم عن مضايقتها.

أشار مارك إلى سبونتيني بالانصراف، ومكث جالساً على كرسيه

لحظة يحلّل المعلومات التي توصَّل إليها. كان على وشك المغادرة حين رنّ هاتفه. إنها ماتيلد فرانسنس. ردَّ على المكالمة.

- هل حصلتِ على المعلومات؟

- نعم، عثرت على ملف آنا بيكر، لكن المعلومات التي في الملف تختلف عمّا قلته لي. المعلومات تقول إنّ هذه الفتاة. . .

4.

- لطالما خشيتُ هذه اللحظة. كنت أدرك أنها ستأتي حتماً في يوم من الأيام، ولكنني لم أتصوّر قط أنها ستأتي بهذه الطريقة.

كانت كلوتيلد بلونديل جالسة خلف طاولة زجاجية. كان مكتبها العصري، المطلّ على الساحة بكاملها، يختلف عن أجواء ثانوية القديسة سيسيليا. كنتُ قد توقّعت أن أجد في المكتب أثاثاً على طراز لويس الثامن عشر، ومكتبة رفوفها ملأى بالكتب التراثية والأناجيل، فإذا بي أجد نفسي في غرفة جرداء، ذات حيطان بيضاء. لم يكُن فوق المكتب إلّا حاسوب محمول، وهاتف نقال في غلاف جلدي، وإطار صورة خشبي، ونسخة من تمثالٍ شبقيّ صغير للنحّات برانكوزي.

- سيدة بلونديل، منذ متى تعرفين آنا؟

نظرت المديرة إلى عينيّ مباشرة، لكن عوض أن تجيب عن سؤالي، أنذرتني قائلة:

- آنا تحبك حباً جنونياً. إنها المرة الأولى التي تُغرَم فيها. وأتمنى أن تكون أهلاً لهذا الحب.

كرّرت سؤالي، لكنها تجاهلته من جديد:

- لمّا طلبت آنا رأيي، نصحتها أن تعترف لك بالحقيقة، لكنها كانت خائفة من ردّ فعلك، خائفة أن تخسرك. . .

التزمَت الصمت برهة، ثم همست كأنها تحدث نفسها:

- ساباتو[1] كان على حق حين قال: «الحقيقة تناسب الرياضيات والكيمياء، لكنها لا تناسب الحياة».

اضطربتُ. واضح أن كلوتيلد بلونديل كانت على علم بأمور كثيرة. لكي أشعرها بالأمان، قرَّرت ألّا أخفي عنها شيئاً فحكيتُ لها كلّ ما عثرت عليه في شقة آنا: الـ400000 يورو، والبطاقتين المزوّرتين اللتين تحملان اسم ماغالي لامبير وبولين باجيس.

استمعت إليّ من دون أن تُفاجأ، كما لو أني لم أذكِّرها إلّا بذكرى كانت قد نسيتها وطفت إلى السطح من جديد، حاملة معها شيئاً من القلق.

- بولين باجيس هو الاسم الذي قدّمت به آنا نفسها يوم أتَت إلى هنا أوّل مرة.

التزمَت الصمت من جديد، ثم تناولت من على المقعد بجانبها حقيبة يدوية أخرجت منها علبة سجائر طويلة ورفيعة، وأشعَلت واحدة بولاعتها.

- كان ذلك يوم 22 ديسمبر 2007. يوم سبت بعد الظهر. أذكر التاريخ جيداً لأنه صادف يوم الاحتفال بميلاد المسيح في المدرسة. إنها لحظة بالغة الأهمية بالنسبة إلى مؤسّستنا، فنحن نستدعي كلّ التلميذات وكلّ الآباء كي نحتفل معاً بميلاد المسيح.

بدا صوتها في تلك اللحظة أجشَّ وجهورياً، صوت مدخّنة.

---

(1) إرنستو ساباتو (1911-2011): روائي وفيزيائي وناقد أرجنتيني - المترجم.

- كان الثلج يتساقط يومها، قالت وهي تنفث دخاناً محمّلاً برائحة النعناع. سأتذكر هذه الفتاة ما حييت، كانت جميلة كالقمر، أتت من حيث لا يدري أحد، متدثّرة بمعطفها.

- ماذا قالت لك؟

- حكت لي قصة بلكنة خفيفة جاهدَت أن تخفيها. قصّة متماسكة، أو تكاد. ادّعتْ أنها ابنة موظف حكومي فرنسي يعمل في مالي. قالت إنها درست على مدى عدة سنوات في مدرسة فرنسية إعدادية وأخرى ثانوية في باماكو، إلّا أنّ والدَيها كانا يرغبان في أن تحصل على البكالوريا في باريس، وأنهما رغبا في إلحاقها بثانوية القديسة سيسيليا لهذا الغرض. وأرفقت طلب التسجيل بظرف يحتوي على تكاليف الدراسة لمدّة سنة كاملة، أي 8000 يورو.

- هل كانت قصة مُختلَقة؟

- بالكامل. اتصلتُ بالثانوية الفرنسية في باماكو كي يبعثوا لي بشهادة مغادرتها للثانوية بواسطة الفاكس، وهي شهادة ضرورية لتسجيل كلّ تلميذة جديدة تَفِدُ على المدرسة، فأخبروني أنهم لا يعرفون شيئاً عنها.

أحسستُ كأني أسبح وسط الضباب. كنت كلما تقدّمت في البحث، هربت مني صورة آنا أكثر.

أطفأت كلوتيلد بلونديل عقب سيجارتها في المنفضة.

- ولما كان الغد، ذهبت إلى عنوان سكنها الذي كانت قد مدّتني به: غرفة خادمة كانت قد اكترتها في شارع الجامعة. قضيت النهار إلى جانبها، وأدركت على الفور أنها من نوع الأشخاص الذي لا نصادفه إلّا مرّة واحدة في حياتنا. فتاة وحيدة منعزلة، نصف-طفلة، نصف-امرأة، تسعى إلى إعادة بناء حياتها، وعازمة على

النجاح في مسعاها. لم تأتِ إلى ثانوية القديسة سيسيليا صدفة، بل كان لديها مشروع محدد: أن تصبح طبيبة، فهي فتاة ذكية ذكاء خارقاً، لديها قدرات كبيرة على العمل، وتحتاج إلى مَن يؤطّرها كي تتفتح وتنجح.

- وماذا قرّرتِ في الأخير؟

سُمعت طرقات على باب مكتبها: إنه الناظر المساعد الذي كانت لديه مشكلة متعلّقة بجداول الحصص. طلبت منه كلوتيلد أن ينتظر قليلاً. حين أغلق الباب سألتني:

- هل قرأت إنجيل متى يا رافائيل؟ «**ادْخُلُوا مِنَ الْبَابِ الضَّيِّقِ، لأَنَّهُ وَاسِعٌ الْبَابُ وَرَحْبٌ الطَّرِيقُ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْهَلَاكِ، وَكَثِيرُونَ هُمُ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ مِنْهُ**». إن واجبي كمسيحية يفرض عليّ أن أساعد آنا. ومساعدتها حينئذٍ كانت تعني أن أخفيها.

- عمّن؟

- عن الجميع وعن لا أحد. هذه هي المعضلة.

- بمعنى؟

- بمعنى أني قبلت أن تدرس هنا، لكن دون أن أسجل اسمها في سجلات الأكاديمية كي تتمكن من إنهاء سنتها الأولى بكالوريا معنا.

- دون أن تطرحي عليها مزيداً من الأسئلة؟

- لم أكُن في حاجة إلى أن أطرح عليها المزيد من الأسئلة، لأنني كنت قد اكتشفت سرّها بنفسي.

- وما هو ذلك السر؟

حبستُ أنفاسي. وأخيراً حانت لحظة الكشف عن الحقيقة، قلت في نفسي، لكن كلوتيلد بلونديل خيّبت أملي:

- لا يحقّ لي أن أطلعك عليه. لقد وعدت آنا أن لا أكشف عن ماضيها لأحد، ولن أخون الوعد.

- هل يمكنك أن توضحي أكثر؟

- لا تحاول، فلن تحصل مني على معلومات إضافية. صدِّقني أنه لو كان ينبغي أن تعلم بقصّتها يوماً، فسيكون من الأفضل أن تعلم بها منها لا من غيرها.

أخذتُ أفكّر في ما قالته. كان هناك سؤال يؤرقني.

- قبل أن أصبح روائياً يعيش على عائدات كتبه، مارست مهنة التعليم بضع سنوات. فأنا أعرف نظام التعليم جيداً: بالنسبة إلى السنة الأولى بكالوريا، لا يمكن للتلميذ أن يُجري الامتحانات إذا لم يكُن مسجّلاً في أحد السجلات التابعة لوزارة التربية والتعليم.

أشارت برأسها موافقة.

- أنتَ على صواب. آنا لم تشارك في الامتحانات في تلك السنة.

- لكن ظلت المشكلة نفسها قائمة في ما يتعلق بامتحانات السنة الثانية بكالوريا، أليس كذلك؟

- بلى، لم يكن هناك مجال للتهرّب في السنة الثانية، فقد كان على آنا أن تحصل على شهادة البكالوريا كي تتمكن من متابعة دراساتها العليا.

أشعلت سيجارة أخرى، وأخذت منها عدة نفخات واهية قبل أن تستأنف قائلة:

- شعرتُ باليأس خلال الصيف الذي سبق الدخول المدرسي، فكانت آنا قد أصبحت بالنسبة إليّ كواحدة من أفراد أسرتي. كنت قد وعدتها أن أساعدها، لكنني كنت أمام مشكلة يبدو أنها غير قابلة للحلّ، مشكلة ستؤدي بنا إلى كارثة.

خفضت ناظريها، انقبض وجهها، وبدت كأنها تعيش تلك اللحظات الأليمة من جديد.

- لكن الحلّ موجود دائماً، وهو في الغالب تحت أعيننا، إلّا أننا لا نراه.

ولكي تُقرن القول بالفعل، تناولَت الصورة التي على المكتب أمامها ومدَّتها إليّ. تناولتُها وأخذتُ أتأمّلها، إلّا أني لم أفهم شيئاً.

- مَن هذه؟

- ابنة أختي. آنا بيكر الحقيقية.

5.

تجري سيارة مارك كاراديك بسرعة.

منذ غادر باريس، وسيارة الشرطي تبتلع الكيلومترات دون أن يبالي بقانون السير. كان يريد، بل كان **يجب أن يعاين بنفسه** المعلومات التي مدّته بها صديقته في الضمان الاجتماعي ماتيلد فرانسنس.

ضغط بوق السيارة كي ينبّه سائق شاحنة كبيرة كان يحاول أن يتجاوز شاحنة أخرى، وخفّف السرعة في آخر لحظة كي يخرج من الطريق السيّار. بدت السيارة كأنها تسبح في الفراغ جراء الطريق الملتوية. أحسّ بدوار، وبطنين في أذنيه. كان السندويش الذي أكله وهو يقود السيارة قد أثقَلَ معدته فأحسّ بالغثيان. شعر، خلال لحظات قليلة، بأنه تائه وسط شبكة الطريق السيار، ولكنه استعاد توازنه شيئاً فشيئاً، متشبّثاً بتوجيهات جهاز تحديد المواقع.

وصل إلى دوّار يقع في مدخل شاتونيه-مالابري، ثم مضى في طريق ضيقة تتوجه نحو غابة فيريير. لم يسترخِ مارك تماماً إلّا حين

أخذت خضرة الطبيعة تحلّ محلّ الإسمنت المسلّح. ولمّا صارت أشجار الكستناء، وأشجار البندق، وأشجار القيقب، تحيط به من الجانبين أنزل زجاج النافذة. قطع مسافة قصيرة في طريق متربة، فتجسّد المبنى أمامه.

ركن سيارته الرينج روفر في موقف للسيارات مفروش بالحصى وأغلق الباب. وضع يديه خلف ظهره، ووقف يتأمل المبنى الذي كان عبارة عن مزيج محيِّر من أحجار قديمة ومواد حديثة: زجاج، حديد، إسمنت. أمّا الملجأ القديم الذي كان عمره قرنين على الأقل، فقد تمّ تحديثه (بل تشويهه، قال كاراديك في نفسه) بوضع ألواح شمسية على سقفه، وحائط مغطى بالنباتات الخضراء.

توجّه الشرطي السابق نحو مدخل المبنى. كان فناؤه فارغاً، لا أحد خلف منضدة الاستقبال. تصفّح بيانات المؤسسة التي كانت أمامه.

يستقبل الملجأ الطبي سانت-بارب المرضى المصابين بإعاقات متعدّدة، أو بمرض الانطواء. يستقبل حوالي خمسين مريضاً عاجزين عن أن يستقلّوا بأنفسهم، وفي حاجة دائمة إلى رعاية طبية.

- هل تحتاج إلى مساعدة؟

التفت كاراديك إلى الصوت الذي كلّمه. كانت فتاة ببدلة طبية منشغلة بإدخال فكّة في الموزع الآلي.

- مارك كاراديك، شرطي من فرقة مكافحة السطو، قدّم كاراديك نفسه وهو يتقدّم نحوها.

- مليكة فرشيشي، مساعدة طبية في الملجأ.

ضغطت الفتاة المغربية الزرّ كي تحصل على قنينة مشروب غازي، لكن الموزع الآلي تعطل.

- تعطل مرة أخرى! اللعنة، لقد سرقت مني هذه الآلة حتى الآن ما يعادل نصف أجرتي الشهرية!

أمسك مارك الآلة، وأخذ يهزها. بعد بضع ثوانٍ، خرجت القنينة من الآلة.

- إليك هذه على الأقل، قال وهو يناولها قنينة كوكا كولا خالية من السكر.

- ها قد صرتُ مدينةً لك بخدمة.

- تمام، فأنا أريد منكِ خدمة بالفعل. جئتُ لأتأكّد من معلومات عن إحدى المريضات.

فتحت مليكة القنينة، وشربت منها جرعة.

وبينما هي منشغلة بالشرب، أخذ الشرطي ينظر إلى بشرتها الكامدة، وشفتيها الورديتين، وشعرها المعقوص بإحكام، وعينيها اللازورديين.

- كان بودّي أن أمدّكَ بما تطلب من معلومات، لكنك تعرف أن القانون لا يسمح بذلك. توجَّه إلى المدير كي...

- مهلاً، لا داعي للجوء إلى الجهاز الإداري كله من أجل التأكّد من صحة معلومة بسيطة.

نظرت إليه مليكة نظرة هازئة.

- طبعاً، لأنك تريد أن تحصل على ما تريد بسهولة ومن دون احترام الإجراءات القانونية.

شربت جرعة أخرى، ثم استأنفت:

- أنا خبيرة بألاعيب الشرطة، فأبي واحد من «الأسْرة» كما تقولون.

- في أيّ قسم؟

- قسم مكافحة المخدرات.

انشغل كاراديك بالتفكير لحظة.
- هل أنتِ ابنة سليم فرشيشي؟
أشارت برأسها مؤكِّدة.
- هل تعرفه؟
- إنه مشهور.
ألقت مليكة نظرة على ساعة يدها.
- يجب أن أعود إلى العمل. سعيدة بمعرفتك يا نقيب.
وانصرفت حاملة القنينة في يدها، إلّا أن كاراديك لحقَ بها.
- المريضة التي جئت من أجلها اسمها آنا بيكر. هل يمكنكِ أن تأخذيني إليها؟
سارا في ممرٍّ ضيّق تحفّ به أشجار البامبو، والصبار، والنخيل القصير.
- إذا كنت تنوي أن تستنطقها، فأنتَ مخطئ تماماً.
وصلا إلى حديقة مشمسَة تُشرف على الغابة. كان المرضى والممرضات يتناولون طعامهم تحت ظلال أشجار القيقب وأشجار البتولة.
- أعدكِ أن لا أسعى إلى استنطاقها، فأنا أريد أن أعرف فقط إذا ما...
أشارت مليكة نحو الغابة.
- إنها هناك، تلك الجالسة في الكرسي المتحرِّك. آنا بيكر.
وضع كاراديك كفّه أمام جبينه كي يحتمي من أشعة الشمس التي كانت تحجب عليه الرؤية. كانت الفتاة تجلس في كرسي كهربائي متحرّك. فتاة في حوالي العشرين من عمرها، تنظر إلى السماء، وتضع سمّاعة على أذنيها.
كانت ترتدي كنزة صوفية ذات ياقة عالية، وكان وجهها المدور

محاطاً بشعر أشقر مثبّت بمشابك من تلك التي تستعملها الطفلات صغيرات السن. وكانت نظراتُها تلوح من خلف نظّاراتِها الملونة، تائهة محدقة في الفراغ.

عادت مليكة تقول:

- إنها تشغل نفسها بالكتب المسموعة، هوايتها المفضلة.

- كي تهرب؟

- كي تسافر، كي تتعلم، كي تحلم. تحتاج إلى كتاب في اليوم على الأقل. هل ستلقي القبض عليّ لو أخبرتك أني أحمّل لها أطناناً من الكتب من الإنترنت؟

- وممَّ تُعاني بالضبط؟

وأخرج الشرطي دفتره الصغير كي يقرأ المعلومات من جديد.

- قيل لي إنها تعاني من مرض فريدريك، أليس كذلك؟

- فريدريك أتاكسيا، صحَّحت مليكة. إنه مرض يدمّر الأعصاب بالتدريج. مرض وراثي نادر.

- هل تعرفين آنا منذ زمن طويل؟

- نعم، كنت أحلّ محل المتغيبين في المركز الطبي التربوي في شارع بالاتين حيث كانت تعالَج إلى أن بلغت سن التاسعة عشرة.

أخذ كاراديك يبحث عن علبة سجائره في جيب سترته معكر المزاج.

- ومتى تمّ الكشف عن مرضها؟

- في سنّ مبكرة، في سن الثامنة أو التاسعة.

- وما هي أعراض هذا المرض؟

- خلل في التوازن، اعوجاج العمود الفقري، اعوجاج الرّجْلين، خلل في التناسق بين الأعضاء.

- وكيف تطوّر المرض بالنسبة إلى آنا؟

- أعطني سيجارة أولاً.

مدّ لها مارك سيجارة، وانحنى كي يشعلها لها. كانت تنبعث من جسدها رائحة منعشة، مزيج من رائحة الليمون، وزنبق الوادي، والريحان. رائحة خضراء ومثيرة.

حملت السيجارة إلى شفتيها، أخذت نفخة، ثم نفثت الدخان قبل أن تواصل كلامها:

- فقدت آنا القدرة على المشي مبكراً شيئاً ما. ثم استقرّ المرض لما كانت في حوالي الثالثة عشرة. يجب أن تعرف أن فريدرك أتاكسيا مرض لا يؤثّر على القدرات العقلية، فآنا فتاة ذكية. صحيح أنها لم تتعلّم في المدارس، لكنها إلى وقت قريب كانت تقضي أيامها أمام شاشة الحاسوب لمتابعة الـ MOOC[1] الخاص بدراسة الإعلاميات.

- لكن المرض عاد إلى التطور، أتمّ كاراديك.

أشارت مليكة برأسها مؤكّدة.

- ابتداءً من مرحلة معينة، يُخشى على المريض من مشاكل في القلب وجهاز التنفس، مثل اعتلال عضلة القلب الذي يجعلها لا تضخّ الدم في الأعضاء بما يكفي، ممّا يؤدي إلى إرهاق القلب.

غمغم كاراديك، وتنفس عميقاً بصوتٍ مسموع. أحسّ بالغضب يزحف إليه. إن الحياة عاهرة حقيقية. عندما توزّع الأوراق، يحصل البعض على أوراق يصعب عليهم أن يلعبوا بها. آلمَه هذا الظلم. لا جديد في ذلك بالنسبة إليه، لكنه صار، منذ هذا الصباح، أكثر حساسية. متوتر الأعصاب. هكذا هو دائماً حين يغوص وسط أمواج

---

(1) Massive Open Online Course (MOOC): أي دروس على الإنترنت متاحة للجميع - الكاتب.

تحقيق من تحقيقاته. تتضاعف عواطفه، ورغباته، وعنفه، ويصبح بركاناً على وشك الانفجار.

أدركَت مليكة ما يعانيه من اضطراب.

- حتى وإن لم يكُن العلاج ممكناً، فنحن نحاول أن نوفّر للمرضى حياة كريمة. التدليك، العلاج بالعمل، تقويم النطق، العلاج النفسي، كلها وسائل ضرورية لتحقيق ذلك. هذا جوهر عمَلِي.

التزم مارك الصمت متسمّراً في مكانه، تاركاً سيجارته تحترق بين أصابعه. كيف كان ممكناً أن تُستبدَل هُوية بهذه الطريقة؟ صحيح أنه على علم بالخروقات التي تحدث في التأمين الصحي (عشرات الملايين من اليوروهات تتبخّر جراء التلاعب والاحتيال، وتزوير بطاقات التأمين على المرض. . .) لكن لم يسبق له قطّ أن عَلِمَ بتلاعب مُحكَم كهذا.

- هذه المرة، يجب عليّ أن أذهب فعلاً، أخبَرَته مليكة.

- خذي رقم هاتفي، فربما تحتاجينه.

وبينما هو يكتب رقمه لمليكة، طرح عليها سؤالاً أخيراً:

- هل يزور آنا كثيرون؟

- تزورها خالتها كلوتيلد بلونديل كلّ يومين، وفتاة خلاسية، شعرها أملس، أنيقة على الدوام.

أراها كاراديك شاشة هاتفه:

- نعم، إنها هي، أكّدت مليكة. هل تعرف اسمها؟

5

طفلة من الهنود الحمر
ورعاة البقر

العالَم [. . .] هو صراع مستمر بين ذكرى وذكرى أخرى مضادّة لها.

هاروكي موراكامي

.1

نزلتُ من سيارة الأجرة في ملتقى شارعَي إدغار-كينيه وأوديسا. نظرت إلى ساعتي اليدوية. بعد قليل يحلّ منتصف النهار. بعد عشر دقائق، سيخرج جيش الموظفين الذين يعملون في الحي، وسيُصبح العثور على طاولة في الهواء الطلق مستحيلاً.

جلستُ إلى طاولة في مطعم «كولومبين وأرلوكان» وطلبت قنينة ماء، وطبقاً من سمك المرجان المُذهب بالليمون الأخضر وزيت الزيتون. إنني أتردّد كثيراً على هذا المطعم الذي يعرفني أغلب نادليه، كي أكتب أو أتناول وجبة سريعة. حول الطاولات وعلى الرصيف، كانت مظاهر فصل الصيف لا تزال بادية للعيان: النظارات الشمسية، القمصان قصيرة الأكمام، والتنورات القصيرة الخفيفة. لم يكُن باستطاعة أشجار الساحة القليلة أن تقاوم أشعة الشمس. لو كنا

في الجنوب، لطلب الزبائن من النُّدل أن يفتحوا المظلات، لكن الناس في باريس يخافون من أن تزول علامات فصل الصيف إلى درجة أنهم يفضّلون أن يتعرّضوا لضربة شمس على أن يجلسوا تحت المظلات الواقية.

أغمضت عينَي وتركت أشعة الشمس تغمر وجهي أنا أيضاً، كما لو أنّ بمقدور هذه الدفقة من الضوء والحرارة أن تساعدني على ترتيب أفكاري.

كنت قد هاتَفتُ كاراديك، فتبادلنا ما توصّلنا إليه من معلومات، واتفقنا على أن نلتقي في هذا المطعم كي نعمل على توضيح الأمور. وفي انتظار أن يأتي، تناولت دفتري وحاسوبي. فقد كنتُ في حاجة، كي أرتّب أفكاري، إلى أن أسجل التواريخ، والملاحظات، والافتراضات، «على الورق».

لم أعُد أشكّ الآن في أنّ المرأة التي أحببت مزورة الهوية. حين قمتُ ومارك ببحثين مختلفين، نجحنا في التعرف على سيرة حياة آنا -التي ليس اسمها الحقيقي آنا- حتى خريف سنة 2007.

شغّلت تطبيق معالجة النصوص بعد أن قرّرت إعادة بناء أهم ما توصّلنا إليه:

جاءت إلى باريس أواخر شهر أكتوبر 2007 فتاة في السادسة عشرة من عمرها تقريباً (قادمة من الولايات المتحدة الأميركية؟)، ومعها 400000 يورو نقداً. حاولت أن تختفي عن الأنظار، فاكترت غرفة خادمة نقداً من مالكٍ لا يحترم القانون. كانت مصدومة بسبب حدَثٍ عاشته، ونجحت رغم ذلك، بفضل ذكائها، في أن تحصل على بطاقتَي هُوية مزورتين. البطاقة الأولى لم تكُن مُحكَمَة التزوير، أما الثانية فكانت أكثر جودة.

في شهر ديسمبر، توجهت إلى مدرسة ثانوية كاثوليكية تحمل اسم القديسة سيسيليا، ونجحت في أن تلتحق بها وأن تجتاز امتحانات البكالوريا منتحلة هُوية آنا بيكر، وهي ابنة أخت كلوتيلد بلونديل مديرة الثانوية.

كان هذا الانتحال عملية محكمة، وذلك لأنّ آنا بيكر الحقيقية فتاة مقعدة، تقضي كلّ أيامها في ملجأ للمعوّقين، فلا تسافر، ولا تقود سيارة، ولا تدرس.

في سنة 2008، توجهت آنا «المُزورَة»، ومعها شهادة ضياع أو سرقة، إلى البلدية كي تحصل على بطاقة هوية وجواز سفر جديدين، ولتصبح منذ ذلك الوقت «آنا»، حاملة لأوراق هوية حقيقية تحمل صورتها، لكنها لا تعكس هويتها الحقيقية. ورغم أنها تملك بطاقة ضمان اجتماعي، فهي حذرة، وتحترم بعض القوانين بدقة وحذر، إذ أنها تؤدي تكاليف زيارة الطبيب وثمن الأدوية بنفسها، كي لا تُثير انتباه العاملين في الضمان الاجتماعي، وكي لا يشكّوا في أمرها.

رفعتُ عينَي عن الحاسوب في اللحظة التي حمل إليّ النادل ما طلبته. شربتُ قليلاً من الماء، وأكلتُ لقمة من سمك المرجان المذهب. امرأتان تحملان الهوية نفسها: لقد كانت الخدعة التي لجأت إليها كلوتيلد بلونديل جريئة، ومحكَمَة بما يكفي كي تصمُد على مدى عشر سنوات. لم تكن تحرياتنا عديمة الفائدة، إلّا أنها، حتى الآن، لم تزِدْ عن أنها أثارت مجموعة من الأسئلة العالقة. سجلت تلك الأسئلة في حاسوبي:

– من هي «آنا» حقاً؟

– أين كانت تعيش قبل أن تأتي إلى باريس؟

- ما هو مصدر تلك الـ400000 يورو التي وجدناها في شقتها؟
- لمن هي تلك الجثث المفحمة؟ ولماذا اتهمت «آنا» نفسها بأنها السبب في موتهم؟
- لماذا اختفت مباشرة بعد أن شرعت تكشف لي عن جزء من الحقيقة؟
- أين هي الآن؟

لم أستطِعْ منعَ نفسي من أن أهاتفها من جديد. لم تحدث المعجزة، فقد ردَّ عليّ المجيب الآلي نفسه الذي كان عليّ أن أتحمله أكثر من خمسين مرة منذ أمس.

خطرت لي فكرة حينها.

2.

قبل ستّ سنوات، حين كنت في نيويورك من أجل التعرف على معالم الأمكنة ومواقعها، أضعتُ هاتفي المحمول في إحدى سيارات الأجرة. كنت حينئذٍ عائداً إلى الفندق بعد سهرة في أحد المطاعم، ولم أنتبه إلى خطئي على الفور. ولمّا انتبهت واتصلت بشركة سيارات الأجرة، كان الوقت قد فات، فقد عثر أحد الزبائن الذي ركب سيارة الأجرة بعدي على هاتفي، ولم يُخبر السائق. بعثتُ له برسالة نصية بواسطة هاتف ملحقي الصحفي، وبعد ساعة، توصَّلتُ بمكالمة من شخص يتكلّم الإنجليزية بصعوبة، اقترح أن يُعيد لي الهاتف مقابل 100 دولار، فقبلتُ اقتراحه. كان قد حدَّد لي موعداً بإحدى المقاهي في تايمز سكوير، لكن ما أن وصلت إلى هناك حتى اتّصل بي النصّاب كي يقول إن الثمن قد تغيّر، وأنه يريد الآن 500 دولار أؤديها له في أحد العناوين بحي كوينز. فتصرفت عندئذٍ كما

كان عليّ أن أفعل منذ البداية: حكيتُ ما وقع لأوّل شرطيين التقيتُ بهما على الطريق. تعقّبا هاتفي بفضل جهاز تحديد المواقع، وما هي إلّا دقائق معدودات حتى ألقوا القبض على اللصّ، وأعادا إليّ هاتفي.

لماذا لا ألجأ إلى الطريقة نفسها كي أصل إلى هاتف آنا؟

لأنه من المحتمل أن يكون مطفأً، أو تكون بطاريته غير مشحونة...

جرِّب على كل حال.

كان حاسوبي لا يزال مشغلاً، فطلبتُ من النادل أن يمدّني برمز الواي فاي، ثم دخلت إلى موقع الحوسبة السحابية[1] الخاص بالصانع. لم تعترضني أيّ صعوبة في المرحلة الأولى، إذ كان يكفي أن أدخل محدِّد الهوية، أي عنوان البريد الإلكتروني. كتبت عنوان بريد آنا الإلكتروني، ولكنني اصطدمتُ بالخطوة الثانية: كلمة السرّ.

لم أضيع الوقت في تجريب كلمات السرّ بشكلٍ اعتباطي، فمثل هذه الأشياء لا تنجح إلّا في الأفلام والمسلسلات التلفزيونية. نقرت على رابط «كلمة السرّ منسية»، فانفتحت نافذة أخرى على الإنترنت، ودعتني إلى أن أجيب عن سؤالَي الأمان اللذين كانت آنا قد لجأت إليهما لما سجلت محدد الهوية الخاص بها.

+ ما هو نوع أول سيارة امتلكتها؟

+ ما هو أول فيلم شاهدته في السينما؟

---

(1) Cloud computing: بالإنجليزية في النص.

كان السؤال الأول سهلاً، لأن آنا لم تمتلك إلّا سيارة واحدة في حياتها: سيارة ميني كوبر بنية اللون مستعملة، كانت قد اشترتها منذ عامين. رغم أنها لم تكُن تستعملها كثيراً، فإنها تحبها كثيراً، إذ لم تكن تقول، كلما تحدّثت عنها، «الميني» أو «السيارة»، بل «الميني كوبر». فقد كان هذا الجواب هو ما أدخلته في الخانة المطلوبة، وكنت متأكّداً من أني على صواب.

إلى السؤال الثاني الآن.

لم نكُن على توافق دائم في ما يخصّ الأفلام السينمائية. فأنا أحبّ أفلام تارانتينو، والأخوين كوهن وبراين دي بالما، وأفلام الإثارة القديمة. أمّا هي، فتفضِّل الأفلام التي يغلب عليها الطابع الثقافي: أفلام مايكل هانيكي، والأخوين داردين، وعبد اللطيف كشيش، وفاتح أكين، وكريستوف كيشلوفسكي.

لم يساعدني هذا الأمر على الإطلاق، فما أقلّ الأطفال الذين يكون أوّل فيلم شاهدوه على شاشة السينما هو فيلم **الشريط الأبيض** أو **حياة فيرونيك المزدوجة**.

أخذت أفكر. في أية سنّ يستطيع الآباء أخذ أطفالهم إلى السينما؟ أتذكر جيداً المرة الأولى التي ولجتُ فيها قاعة سينما: كان ذلك خلال صيف 1980، في مهرجان كان، بسينما أولامبيا في شارع أنتيب، وكان عنوان الفيلم **بامبي**. كنت في السادسة من عمري آنذاك، وكنت قد ادَّعيتُ أنّ ذرة غبار دخلت في عيني كي أبرِّر الدموع التي سالت منها في اللحظة التي ماتت أم الظبي الصغير. يا لك من وغد يا وولت ديزني!

تبلغ «آنا» من السن اليوم الخامسة والعشرين. فإذا كانت قد شاهدت أول فيلم على شاشة السينما في سنّ السادسة، فهذا يعني

أنها شاهدته سنة 1997. عدت إلى لائحة الأفلام الناجحة خلال تلك السنة على موسوعة ويكيبديا، فأثار انتباهي على الفور فيلم **تيتانيك**. لقد حقق هذا الفيلم نجاحاً عالمياً، ولا شكّ أنّ كثيراً من الفتيات الصغيرات قد أتعبنَ آبائهن من كثرة إلحاحهن على الذهاب لمشاهدة ليو. اعتقدت أني عثرت على بغيتي، فنقرت عنوان الفيلم بسرعة، و. . .

إنّ الأجوبة التي قدّمتم لا توافق تلك التي على ملفاتنا.
تأكّدوا من معلوماتكم الخاصة وحاولوا من جديد.

خابَ أملي. لقد تحمّست قبل الأوان، وها أنا ذا لم يتبقَّ لي إلّا محاولتين قبل أن ينغلق التطبيق.

أعدت تنظيم أفكاري من جديد. آنا لا تنتمي إلى الجيل نفسه الذي أنتمي إليه، ومن الممكن أن تكون قد ذهبت إلى السينما قبل سنّ السادسة. ولكن في أيّ سنّ ذهبت إليها؟

استنجدت بغوغل. نقرت على لوحة المفاتيح: «في أيّ سنّ نأخذ أطفالنا إلى السينما؟». ظهرت على الشاشة عشرات الصفحات، أغلبها عبارة عن نقاشات متعلّقة بالأسرة، وصفحات من مجلات نسائية. تصفّحت المواقع الأولى. بدا أنّ هناك نوعاً من الإجماع حول السنّ المناسبة: لا يجب أن نأخذهم في سنّ الثانية، ولكن يمكن أن نحاول في سنّ الثالثة أو الرابعة.

عدت إلى ويكيبيديا. نقرت 1994. آنا في الثالثة من عمرها، فأخذها والداها لتشاهد. . . **الأسد الملك**، وهو أكثر أفلام الأطفال نجاحاً خلال تلك السنة.

حاولت من جديد. . . وفشلت من جديد.

اللعنة! الأفق مظلم. لم يعُد يحقّ لي أن أخطئ. تشبّثت بالأوهام حين اعتقدت أنها لعبة سهلة، وغاب عني أنّ الاحتمالات كثيرة، وأنّ هناك عوامل كثيرة يجب أخذها بعين الاعتبار. لن أنجح أبداً في التوصّل إلى الكشف عن كلمة سرّ آنا.

فلأحاول محاولة أخيرة من أجل المجد. 1995. آنا في الرابعة من عمرها. أغمضت عيني كي أحاول أن أتخيّلها في ذلك السنّ. لاحَت في مخيلتي طفلة صغيرة. بشرة كامدة، تقاسيم ناعمة، نظرة زمردية تكاد تكون صافية، ابتسامة خجولة. إنها المرة الأولى التي تذهب فيها إلى السينما. وقد أخذها والداها لتشاهد... وألقيت نظرة مرة أخرى على الموسوعة على الإنترنت. في تلك السنة كان الفيلم الرائع **حكاية لُعبة** قد حطّم أرقام المشاهدات. نقرت الجواب، ووضعت أصبعي على الزرّ كي أؤكده، لكن قبل أن أضغط عليه، أغمضت عيني مرة أخيرة. كانت الطفلة الصغيرة لا تزال ماثلة أمام ناظري. ضفائر سوداء، وزرة جينز، سترة مُلوّنة، وحذاء ناصع. إنها سعيدة. هل هي سعيدة لأنّ والدَيها يأخذانها إلى السينما لتشاهد **حكاية لعبة**؟ لا، هذا لا يتناسب مع آنا التي أعرفها. عدتُ إلى الوراء. حين حلّ عيد ميلاد المسيح سنة 1995، أشرفت آنا على الخامسة من عمرها. إنها المرة الأولى التي تذهب فيها إلى السينما، وقد اختارت الفيلم **بنفسها**. اختارته بنفسها لأنها طفلة ذكية ومستقلة. طفلة تعرف ماذا تريد. تريد مشاهدة فيلماً من أفلام الرسوم المتحركة تستطيع أن تتماهى فيه مع بطلة الفيلم، وأن تتعلّم منه أشياء. ومن جديد، أخذت أستعرض لائحة الأفلام الناجحة خلال تلك السنة، مسترشداً بصوت الفتاة الداخلي وما يمليه عليها. **بوكاهونتاس**. يحمل الفيلم اسم فتاة من قبيلة بوهاتانس منحها

رسامو شركة ديزني ملامح ناعومي كامبل. اقشعرّ بدني. تأكّدت أني وقعت على الجواب الصحيح حتى قبل أن أضغط زرّ التأكيد. نقرت الحروف العشرة، فظهرت صفحة جديدة تمنحني إمكانية إعادة ضبط كلمة السر. نعم! وأخيراً نجحت. شغلت تطبيق تحديد المواقع الخاص بالهاتف، وما هي إلّا ثوانٍ حتى أخذت نقطة زرقاء تومض على الشاشة.

3.

أخذَت يداي ترتعشان، وارتفعت دقات قلبي. لقد كنت على صواب حين أصررت. توصلت برسالة تقول إن هاتف آنا غير مشغل، لكن نظام التحديد يختزن في ذاكرته على مدى أربع وعشرين ساعة آخر مكان وُجِد فيه الهاتف.

لا مفرّ من جاذبية المراقبة المستمرّة البغيضة...

حدقت في النقطة الزرقاء التي كانت تومض مشيرة إلى حيّ سين-سان-دوني. يبدو أنها تشير إلى منطقة تجارية تقع بين ستانس وأولني-سو-بوا.

بعثتُ رسالة نصية إلى كاراديك (أما زلت بعيداً؟)، فردّ على الفور (شارع سان-جرمان، لماذا؟).

تعالَ بسرعة! لديّ معلومة مهمة.

وفي انتظار قدومه، احتفظت بنسخة من الصفحة، وسجّلت العنوان: شارع بلاتو، ستانس، إيل-دو-فرانس، ثم حوّلت الهاتف على وضع القمر الصناعي، وقمت بتكبير الصورة إلى أقصاها. من علٍ، تبدو البناية التي تهمّني شبيهة بكتلة هائلة من الإسمنت موضوعة وسط أرض مهجورة.

ببضع نقرات، تمكّنت من تحديد المكان بدقة: إنه مستودع. عضضت شفتي. إنّ مثل هذه المستودعات الموجودة وسط ضاحية باريس لا تبشِّر بالخير.

زعق بوق سيارة أشبه بنهيم فيل منه ببوق منبّه، فارتجّت الشرفة.

رفعت عيني نحو مصدر البوق، ووضعت ورقتين نقديتين على الطاولة، ثم جمعت حاجياتي وقفزت داخل سيارة كاراديك الرينج روفر العتيقة الآتية من شارع دولامبر.

6

الركوب مع الملك[1]

يحدث أن تغير الحياة وجهتها 180 درجة فيكون ذلك التغيّر، حين يحدث، سريعاً ومفاجئاً.

ستيفن كينغ

.1

كأن الطريق لا نهاية لها.

مرَرْنا بالأنفاليد أولاً، وسِرْنا بمحاذاة نهر السين، وعبرنا الشانزليزيه فبورت مايو. ثم سرنا في الطريق السريع، فالطريق السيار، ومررنا بملعب فرنسا لكرة القدم، ومضينا في الطريق الوطنية التي تربط بين كورنوف وسان-دوني وستانس.

رغم الشمس الساطعة، تبدو ضاحية باريس كئيبة، كما لو أنّ لون السماء تغيَّر، وانسدَل عليه حجاب بشكلٍ تدريجي، وخفتّ بريقه، فأصبح مناسباً لمنازل ذوي الدخل المحدود، ولتلك البنايات التي تمتدّ على جنبات طرق تحمل أسماء شخصيات شيوعية انتهى

---

(1) Riding with the King : بالإنجليزية في النص.

زمانها: رومان رولان، هنري باربوس، بول إلوار، جان فيرا. . .

شعر كاراديك بالحنق جراء حركة السير الكثيفة، فتجاوز سيارة شحن متباطئة، خارجاً عن الخط الأبيض وسط الطريق. شعر بالخطأ الذي ارتكبه حين رأى سيارة رباعية الدفع سوداء قادمة من الاتجاه المعاكس بسرعة كبيرة، زاعقة، غاضبة. كادت أن تصطدم بنا، لولا أنّ كاراديك انزاح عن طريقها في آخر لحظة وهو يشتم السائق.

أصبح مارك الآن مقتنعاً بضرورة العثور على آنا. رأيته مضطرباً من الغضب، محبطاً نافدَ الصبر، مشوّشاً مثلي بسبب التشعّبات غير المتوقعة التي عرفتها تحقيقاتنا. كنّا قد استغللنا مسافة الطريق كي نتبادل ما توصّلنا إليه من معلومات. رغم نجاح تحرياتنا، فإنها لم تتوصّل إلّا إلى رسم صورة ضبابية لشابة لم نعُد ندري إن كانت ضحية أم مذنبة.

«لم تكن الشرطة تستطيع أن تفعل أكثر ممّا فعلتَهُ»، قال لي وهو يهنّئني على نجاحي في تعقّب هاتف آنا. كان لدي إحساس بأنه يؤمن بهذه الطريق الجديدة التي قد تقودنا إلى آنا. كان يقود السيارة بسرعة، مركزاً نظره على الطريق أمامه، متأسّفاً على أنه لم يعُد يستطيع استعمال صفّارة الإنذار كما كان يفعل «في الأيام الجميلة».

كانت شاشة جهاز تحديد المواقع تبتلع الكيلومترات التي تفصلنا عن المكان الذي نتوجّه إليه. وكنت واضعاً رأسي على زجاج السيارة، أتأمّل الخراسانات، والمنازل الرخيصة، والواجهات التي شاخت واجهاتها، والبنايات حديثة البناء التي تعبت قبل الأوان، وغطّت جدرانها الكتابات المختلفة. بعد طلاق والدَي، كنت قد انتقلت من الكوت دازور لكي أعيش مع أمي في ضاحية باريس، وفي مثل هذا الديكور والأجواء التي ترشح يأساً، عشت مراهقتي.

وقد أصبحت اليوم، كلّما عدت إلى هذا المكان، أشعُر وكأنني لم أغادره قط.

إشارة خضراء. إشارة برتقالية ثم إشارة حمراء. لكن كاراديك تجاهلها، ومضى في دوّار وتوجّه نحو طريق مسدود، في نهايته بناية إسمنتية ضخمة من أربع طوابق. شركة بوكس بوبولي «المتخصصة في تأجير المستودعات».

ركن الشرطي الرينج روفر في موقف للسيارة شبه خالٍ، وهو عبارة عن مكان إسفلتي طويل أمام حقل سرخس محروق بالشمس.

- ما هي الخطة؟ سألته وأنا أنزل من السيارة.

- ها هي ذي الخطة، أجاب وهو ينحني ويُخرج من درج السيارة مسدسه الغلوك 19.

لم يُرجع كاراديك مسدّسه كما لم يُرجع شارته بعد أن تقاعد. إنني أكره الأسلحة النارية كرهاً شديداً، وكنتُ لا أزال إلى تلك اللحظة متشبّثاً بهذا المبدأ.

- هل أنت جادّ يا مارك؟

أغلق الباب وسار خطوات قليلة على الإسفلت الحارق.

- صدقني، فأنا صاحب تجربة، وأعرف أنّ أحسن خطة في مثل هذه الحالات هي أن لا تكون لديك خطّة على الإطلاق.

أخفى مسدسه النصف أوتوماتيكي تحت حزامه، وسار بخطى واثقة عازمة نحو البناية الإسمنتية.

.2

حركة دائبة. رائحة ورق مقوّى محروق تخيِّم على المكان. رافعات تتحرك في كل مكان، وحاويات تقبع فوق عجلات حديدية.

كانت ساحة البناية الواسعة مفتوحة على مصراعيها على مكان مخصِّص لنقل البضائع، بجانبه مكان آخر مخصّص لتفريغ البضائع مزدحم بالعربات.

طرق كاراديك الواجهة الزجاجية لمكتب أسفل السلالم الإسمنتية التي تؤدي إلى الطوابق العليا.

- الشرطة! قال وهو يكشف عن بطاقته ثلاثية الألوان.

- لقد فاجأتني حقاً! اتصلتُ بكم منذ أقل من عشر دقائق! قال رجل قصير القامة، ذلق اللسان، جالس خلف طاولة من حديد.

التفت مارك إليّ، وقالت نظرته: «لم أفهم شيئاً، ولكن دعني أتولى الأمر».

- باتريك عياش، قدّم الموظف نفسه وهو يتوجّه نحونا. أنا المسؤول هنا.

يتكلم عياش الفرنسية بلكنة الفرنسيين من أصل جزائري، فتخرج الكلمات من فمه ثقيلة ملتوية. إنه قصير القامة، سمين، ذو وجه دائري بشوش، وشعر كثيف. يرتدي قميصاً فتح أزراره العليا ليبرز السلسلة الذهبية التي حول عنقه. ولو جعلتُ منه أحد شخصيات رواياتي لاعتقد القرّاء أني أبالغ.

تركتُ مارك يتولى الأمر.

- اشرَح لنا ماذا وقع.

أشار عياش بأن نتبَعه، فمشينا في ممرٍّ خاص بالموظفين يؤدي إلى المصعد. أفسح لنا كي نتمكن من الدخول، ثم ضغط زر آخر الطوابق قبل أن يقول:

- لأول مرة أرى مثل هذا الأمر!

حين شرع المصعد في الصعود، رأيت من خلف النافذة صفوفاً من المستودعات الصغيرة والحاويات على حدّ البصر.

- الضجيج نبَّهنا إلى ما حدث، استأنف عياش. صوت تصادم، تصادم عنيف مدوٍّ، كأن الطريق السيار مرّ من فوق رؤوسنا!

انفتح المصعد أمام عتبة مزلّجة.

- هذا الطابق مخصص لتخزين الممتلكات الشخصية، شرح لنا عياش وهو يدعونا إلى أن نتبعه. يستطيع الزبائن أن يستأجروا مستودعات صغيرة يحقّ لهم أن يَدخلوها متى يشاؤون.

كان عياش يسير بالسرعة نفسها التي يتكلم بها. كانت خطواته تُحدث صريراً على الأرضية البلاستيكية، وكنا نجد صعوبة في أن نتبعه. كانت الممرات تتلوها الممرّات. كلها متشابهة، وبائسة مثلها مثل مواقف السيارات التي لا نهاية لها.

- هنا، قال عياش أخيراً وهو يشير إلى إحدى المستودعات التي بدا بابها المحطّم كأنما أحدثَ فيه ثقب كبير.

كان شخص أسود، رمادي الشعر، يحرس مدخل المستودع. كان يرتدي قميص بولو أبيض اللون، وبدلة عمل كاكية، وقبعة عليها علامة كانغول.

- أقدِّم لكما بابْ، قال عياش.

مررتُ أمام كاراديك، واقتربت كي أعاين الخسائر.

لم يتبقَّ من مصراعي الباب الشيء الكثير.

انتُزعا من مكانهما تماماً، وحتى قطعتا الحديد اللتان وضعتا لتقويتهما لم تصمدا أمام تلك الهجمة. أمّا واجهتهما الحديدية فحطّمت، وانتُزعت من مكانها. وتدلّت السلاسل الحديدية المكسورة التي كانت مربوطة بقفلين كُسِرا هما أيضاً.

- هل دمّرتهما دبّابة؟

- كدتَ تحزر، قال بابْ. قبل عشرين دقيقة، صدمت سيارة رباعية الدفع باب المستودع، وصعدت إلى هنا عبر الممر، ثم أخذت تكرّر الارتطام بالباب إلى أن انكسر، كأنها واحدة من تلك السيارات التي تستعمل لتحطيم واجهات البنوك أو محلات المجوهرات للسطو عليها.

- كاميرات المراقبة سجلت كلّ شيء، أكّد عياش. سأطلعكما على التسجيلات.

تخطّيتُ الركام كي أدخل المستودع. عشرون متراً مربّعاً مضاءة بمصباح مشعّ. فارغ، ليس فيه إلّا رفوف حديدية صلبة مثبّتة إلى أرضية المستودع، وعلبتان من علب الهواء المضغوط ملقتان على الأرض. علبة بيضاء، والأخرى سوداء. يشبهان وعاء ترمس مغلق بسدادة بخاخة. كانتا مربوطتين بالحبال إلى قطعة حديد صلبة، وبلاصق عازل للحرارة مقطوع ومرمي على الأرض.

شخص ما كان محتجزاً هنا.

آنا كانت محتجزة هنا.

- هل شممت الرائحة المنتشرة هنا؟ سألني مارك.

أومأت برأسي. كانت تلك الرائحة أول شيء أثار انتباهي. رائحة قوية فوّاحة تخيّم على المستودع. رائحة يصعُب تحديد ماهيتها، فهي بين رائحة القهوة حديثة التحميص ورائحة الأرض بعد سقوط المطر.

جثا الشرطي على ركبتيه ليتفحّص العلبتين الهوائيتين.

- أتعرف ما في هاتين العلبتين؟

- أقدّم لك إيبوني & إيفوري، قال بنبرة قلقة.

- أسود وأبيض، كعنوان أغنية بول ماكارتني وستيفي وندر؟
أشارَ برأسه مؤكّداً.
- إنها صناعة يدوية تعتمد على المنظّفات المستعملة في المستشفيات. خليط يزيل تماماً أثر الحمض النووي من مكان ارتكاب الجريمة. يستعمله محترفو الجرائم عادة.
- ولماذا علبتان؟
أشار إلى العلبة السوداء.
- إيبوني تحتوي على منظّف قوي جداً يقضي على تسعة وتسعين بالمئة من أثر الحمض النووي.
ثم أشار إلى العلبة البيضاء.
- أما إيفوري، فهو محلول يستطيع أن يغيّر بنية ذلك الواحد بالمئة المتبقي. باختصار، أنت الآن في حضرة الوصفة المعجزة التي تسمح للمجرمين بأن يقولوا للشرطة العلمية في جميع أنحاء العالم: سُحقاً لكم.
خرجت من المستودع لكي أعود نحو عياش.
- مَن أجّر هذا المستودع؟
فرَدَ المسؤول عن المستودعات ذراعيه مشيراً إلى أنه لا يفهم شيئاً ممّا حدث.
- لا أحد. إنه فارغ منذ ثمانية أشهر!
- وماذا كان في هذا المستودع؟ سأل كاراديك وهو يلتحق بنا.
- لا شيء، سارع بابْ إلى الإجابة.
زفر الشرطي بعمق. اقترب من باتريك عياش متبرّماً منزعجاً، وفتح فمه كما لو أنه يريد أن يهدِّده، ولكنه وضع يده على كتفه بدل ذلك. وما هي إلّا ثوانٍ حتى تركت يد كاراديك كتف عياش،

لتزحف نحو عنقه. وفجأة غرس إبهامه في حنجرته، بينما أحكمت سبابته القبض على فقرة عنقه. اختنق عياش من هذه القبضة المحكمة. اندهشتُ من هذا العنف المفاجئ، وتردّدت في التدخل. لقد جنَحَ كاراديك إلى العنف في الوقت الذي بدا أنّ الرجلين لم يقولا إلّا الحقيقة. هذا ما اعتقدته على الأقل قبل أن يرفع عيّاش يده مستسلماً. خفّف الشرطي من قبضته بمقدار ما يسمح له بالتنفس، وحاول عياش محاولة تثير الشفقة أن يحفظ ماء وجهه، فقال:

- أؤكد لك أنه لم يكن في المستودع إلّا شيئين احتفظت بهما في غرفة المراقبة.

3.

كانت الغرفة التي يسميها عياش «غرفة المراقبة» غرفة صغيرة عُلِّق على حيطانها حوالي عشرة شاشات تظهر عليها صور كاميرات المراقبة بالأبيض والأسود.

فتح المسؤول عن المستودعات جاروراً بعد أن جلس خلف مكتبه.

- عثرنا عليهما عالقَين تحت أحد الرفوف، وضّح قائلاً وهو يضع غنيمتيه فوق المكتب.

كان هاتف آنا أولى ذينك الغنيمتين. عرفته على الفور من خلال شعار الصليب الأحمر المُلصق على غشائه من خلف. تفضل عياش بأن أعارني شاحن هاتفه، لكن استحال عليّ تشغيله، فكانت الشاشة مهشّمة، ما يدلّ على أنه لم يسقط من يد آنا، وإنما لجأ أحدهم إلى سحقه بحذائه حتى صار على ما هو عليه.

أما ثاني الغنيمتين فكانت أكثر قيمة من الأولى، وهي عبارة عن

حقيبة يد مصنوعة من جلد سحلية لامع، وموشى بحبّات من الكوارتز وردية اللون. إنها إحدى أولى الهدايا التي قدّمتها لآنا، وكانت تحملها مساء البارحة لما ذهبنا إلى المطعم. فتشت الحقيبة بسرعة: محفظة نقود، حلقة مفاتيح، علبة مناديل ورقية، قلم حبر، نظارات شمسية. لا شيء يثير الاهتمام.

- ها هي ذي التسجيلات! ستشاهدون المجزرة الآن!

تحسّن حال عياش، فكثُر تحرّكه فوق الكرسي. نصّب نفسه كبير كهنة الصور كما لو أنه يلعب دوراً من أدوار المسلسلات الأميركية، وأخذَ يتنقّل بين الشاشات، ويضبط العرض البطيء، وحركات الصور إلى الأمام، وإلى الخلف.

- كفى حركة، وشغّل الفيلم، أمَرَه مارك منزعجاً.

ما أن شاهدنا الصورة الأولى حتى تملّكنا الذهول: سيارة رباعية الدفع ذات نوافذ مظللة، هائجة ومستعدة للانقضاض كوحش من الوحوش الضارية.

تبادلنا نظرات غاضبة: إنها السيارة التي كادت أن تصدمنا!

شاهدناها على الصور الأولى كيف حطّمت حاجز باب المستودع الخارجي، وكيف صعدت الممر المؤدي إلى الطوابق العليا، إلى أن وصلت إلى الطابق الأخير.

- توقف! صاح كاراديك.

نفَّذ عياش الأمر. تأمّلتُ الصورة المتوقِّفة، فتعرفت على الفور على نوع السيارة. إنها سيارة BMW إيكس 6. لما أنجبت زوجته طفلهما الثاني، اشترى أحد أصدقائي، وهو كاتب من كتّاب القصص البوليسية المشوقة، سيارة من هذا النوع، وعدّد لي «مزاياها» مفتخراً: فهي تزن طنّين على الأقل، طولها خمسة أمتار، وعلوها

أكثر من متر ونصف. وقد كانت هذه التي أراها الآن أمامي على الشاشة أكثر إثارة للرهبة بذلك الواقي من الصدمات المقوّى، ونوافذها المظللة، ورقمها المخفي.

ضغط مارك الزرّ بنفسه كي تعود الصورة إلى التحرّك من جديد.

كان سائق السيارة يعرف جيداً سبب مجيئه إلى هنا، إذ لم يتردَّد لحظة، ومضى بالسيارة إلى آخر صفوف المستودعات، ثم دار نصف دورة، وأوقف السيارة أمام عين الكاميرا مباشرة. لم نرَ إلّا واجهة السيارة الأمامية، وعشرات المستودعات المصطفة. ثم... لم نعُد نرى شيئاً.

- يا له من ابن عاهرة! لقد حوّل اتجاه عدسة الكاميرا! قال كاراديك غاضباً.

اللعنة. لقد عمدَ السائق -لكن لا دليل على أنها ليست سائقة، أو أنّ السيارة لم يكن فيها عدّة أشخاص- إلى تغيير اتجاه عدسة الكاميرا نحو الحائط، بحيث لم يعُد يظهر على الشاشة إلّا ثلج رمادي وسخ.

هوى كاراديك بقبضته على الطاولة متهيجاً، لكن عياش كان يملك في جعبته أكثر من حيلة، كما الساحر.

- أرِهِ هاتفك يا بابْ!

كان بابْ يمسك بهاتفه في تلك اللحظة، ويبتسم ابتسامة مشرقة.

- **أنا** استطعتُ أن أصوّر كلّ شيء! بابْ العجوز أذكى من...

- هات الهاتف! صاح مارك وهو ينتزع الهاتف من يده.

وشغل الفيديو المسجل في الهاتف.

خاب أملنا أول الأمر لمّا بدت الصورة المسجّلة ضبابية

وغامقة. إن بابْ شجاع فعلاً، ولكنه ليس متهوّراً، لذلك وقف بعيداً عن مسرح العمليات. كانت الصورة تسمح لنا بأن نخمن أكثر من أن نطلع على حقيقة ما جرى بالضبط، لكن ما سجَّله بابْ كان يضمّ أهم ما حدث. انقضّت السيارة على باب المستودع بشراسة، وعنف، وعجلة، إلى أن حطَّمته. ثم نزل منها رجل مُقنَّع، ودخل المستودع. وما لبث أن خرج منه حاملاً آنا على كتفه.

كانت آنا تصرخ وتحاول أن تتملّص منه، ما يدلّ على أن الرجل لم يكن فارساً نبيلاً أتى لينقذها. فتح الرجل صندوق السيارة وألقاها فيه من دون رحمة. ثم عاد إلى داخل السيارة، وما لبث أن خرج حاملاً العلبتين البيضاء والسوداء، وعاد إلى المستودع مسرعاً كي يمسح أثر ما اقترفه. توقف الفيديو عند اللحظة التي انطلقت فيها السيارة نحو باب شركة المستودعات الخارجي.

أعادَ مارك تشغيل الفيديو ورفع صوت الهاتف علّه يعثر على دليل ما.

المشهد الفظيع من جديد: السيارة المجنونة، تحطيم باب المستودع، آنا سجينة بين براثن ذلك الرجل المجهول.

وقبل أن يرمي بها داخل صندوق السيارة، أصختُ السمع. كانت آنا تناديني **أنا**.

كانت تصرخ باسمي عالياً:

- رافائيل! ساعدني! ساعدني يا رافائيل!

4.

صفق مارك الباب. عاد بالسيارة إلى الخلف. حرّك مغيّر السرعة.

انطلق كاراديك بقوة. التصق ظهري بالمقعد جراء عنف الانطلاقة. ربطتُ حزام الأمان وأنا أنظر في المرآة الجانبية إلى البناية الإسمنتية وهي تختفي عن ناظري.

كنت قلقاً على آنا. تزعزع كياني بأكمله لمّا سمعتها تستنجد بي، وبالكاد استطعت أن أتصوّر ما كانت تشعر به في تلك اللحظة. وتمنّيت من كلّ قلبي لو أنها تعتقد، رغم خوفها الشديد، أني قادر على أن أعثر عليها. وبينما كان مارك يزيد من سرعة السيارة كي يصل إلى الطريق الوطنية، حاولت أن أعيد ترتيب أفكاري. لكن ذهولي تجاوز قدرتي على التفكير لبعض الوقت. كنت ضائعاً تماماً: لقد توصلنا، منذ الصباح، إلى معلومات كثيرة، إلّا أنني لم أنجح في أن أربط بين الأحداث أو أن أمنحها معنى ما.

أجبرت نفسي على التركيز. ممّ أنا متأكد تماماً؟ من أشياء قليلة، وإن كانت بعض الوقائع تبدو، من النظرة الأولى، أكيدة لا جدال فيها. فبعد أن تشاجرنا، استقلّت آنا الطائرة، مساء أمس، من مطار نيس كي تعود إلى باريس، ووصلت مطار أورلي حوالي الساعة الواحدة صباحاً. وتشهد الحقيبة التي وجدناها في شقتها أنها قد تكون توجّهت إلى مونروج بسيارة أجرة. وبعد ذلك؟ لديّ قناعة لا ترقى إلى مستوى الحقيقة: اتصلَتْ بشخصٍ ما كي تُخبره أنها أطلعتني على صورة الجثث الثلاث. مَن هو؟ ولماذا اتَّصلَت به؟ لا أدري. لكن انطلاقاً من تلك اللحظة، تطوَّرت الأحداث. زار شخص ما آنا في شقتها. تناقشا، ثم تطوّر النقاش إلى شجار. على إثر ذلك، اختُطِفَتْ واحتُجِزَت بضع ساعات في المستودع الواقع في ضاحية باريس الشمالية، وبقيت محتجزة هناك إلى أن أتى رجل

مجهول، وحطّم باب المستودع بسيارته الضخمة لا لكي ينقذها، بل لكي يحتفظ بها محتجَزة.

فركتُ عيني، وأنزلت زجاج النافذة كي أشمّ هواء نقياً. كنت أسبح في مياه عكرة. فالسيناريو الذي فكرت فيه قد لا يكون بالضرورة بعيداً عن الحقيقة، لكن أشياء كثيرة مهمة ما زالت تنقصه.

- عليك أن تتخذ قراراً بسرعة.

سمعت صوت مارك فتوقفت عن التفكير. كان قد أشعل سيجارة وهو يقود السيارة بأقصى سرعة.

- فيمَ تفكِّر؟

- أتريد إخبار الشرطة أم لا؟

- بعد ما شاهدناه، أعتقد أنه من الصعب ألّا نفعل ذلك، أليس كذلك؟

سحب من سيجارته نفَساً عميقاً وهو يضيّق عينيه.

- أنت مَن يجب أن يتخذ هذا القرار.

- أشعر أنّك متردِّد.

- إطلاقاً، ولكن يجب أن تعي جيداً ما سأقوله: إنّ الشرطة كشريط الكابتن هادوك[1] اللاصق. إذا أنت دخلت دواليبها، فلن تستطيع التخلّص منها. سيحقّقون حول كلّ شيء يتعلق بك أو بآنا، وسيكشفون عن كلّ شيء. وسيعرَض كلّ شيء في العلن، فلن تتمكن بعد ذلك من أن تتحكَّم في أيّ شيء، ولن تستطيع أن تعود إلى الوراء.

---

(1) الكابتن هادوك: شخصية من شخصيات **مغامرات تان تان**، وهي رسوم مصوّرة للرسام البلجيكي هيرجيه - المترجم.

- عملياً، ماذا سيحصل حين نقرِّر اللجوء إلى الشرطة؟
أخرج مارك من جيبه هاتف بابْ.
- هذا الفيديو سيسهِّل عليهم جزءاً من المأمورية. الآن وقد أصبح هناك دليل ملموس على أن آنا في خطر، لا يستطيع المدعي العام إلّا أن يسلِّم بأن الأمر يتعلَّق باختفاء مُقلق، بل بعملية اختطاف.
- وما الذي تستطيع الشرطة أن تفعله غير ما نفعله نحن؟
ألقى كاراديك عقب سيجارته من النافذة، وأخذ يفكر.
- أول الأمر، سيحاولون استعمال هاتف آنا في الاطِّلاع على سجل المكالمات.
- وماذا أيضاً؟
- سيحاولون تعقّب مصدر علبتي إيبوني & إيفوري، إلّا أنّ ذلك لن يُسفِر عن شيء. ثم سيبحثون في أرقام السيارات ليتوصلوا إلى اسم مالك السيارة. صحيح أن رقم السيارة تمّ إخفاؤه، لكن بما أنّ نوع السيارة ليس كثير الانتشار، فسيتوصّلون بسهولة إلى...
- ... إلى أنها سيارة مسروقة.
أومأ برأسه مؤكِّداً.
- فهمتَ كلّ شيء.
- أهذا كلّ شيء؟
- في اللحظة الراهنة، ليس هناك شيء آخر.
زفرتُ بعمق. كان شيء ما يمنعني من أن أتوجه إلى الشرطة: لعلّه حرص آنا على أن تخفي هُويتها طوال هذه السنوات. إنه لشيء مذهل حقّاً أن تحتاج فتاة في السادسة عشر من عمرها إلى الاختفاء عن الأنظار. فقبل أن أخرق رغبتها، يجب أن أعرف من هي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- إذا قررتُ أن أستمر في التحري، فهل أستطيع أن أعوّل على مساعدتك؟

- نعم، لكن يجب أن تعي الخطر المحدق بك، وأن تدرك حجم المجازفات التي تقبل عليها.

- ماذا ستفعل شرطة سين-سان-دوني التي اتصل بها عياش؟

أبعد كاراديك تخوّفاتي قائلاً:

- يبدو أن الشرطة لم تحمل اتصاله محمَل الجدّ. صدقني أنهم لن يهتموا بالأمر. إلى أن يثبت العكس، فالأمر يتعلق بتحطيم باب مستودع، لا أكثر. من دون هذا الفيديو، لن يصدق أحد ذَينك المهرّجَين. ليس هناك أيّ بصمات في مسرح الجريمة، وقد عمدنا إلى الاستحواذ على ما من شأنه أن يقودهما إلى حيث آنا: هاتفها وحقيبتها اليدوية. بالمناسبة، هل أنت متأكد أن لا شيء في هذه الحقيبة يمكن استغلاله؟

ولكي تطمئن نفسي، فتشت الحقيبة من جديد. محفظة نقود، مناديل ورقية، حلقة مفاتيح، نظارات شمسية، قلم حبر.

لا، ليس قلم حبر. إنّ القلم البلاستيكي الذي ظننته أول الأمر قلم حبر هو في الحقيقة... جهاز اختبار الحَمْل. ألقيت نظرة على نافذة النتيجة فرأيتُ شريطين صغيرين أزرقين متوازيين.

خنقني الانفعال. اخترقت جسدي نبال باردة جمدت عروقي. اختفى الواقع من حولي، وامتلأت أذناي بالطنين. حاولت أن أبتلع ريقي، لكنني عجزت.

كان اختبار الحمل إيجابياً.

أنتِ حامل إذاً.

أغمضتُ عينَي، فإذا بالذكريات تنفجر في رأسي شذرات.

تذكّرت ما حدث في ليلتنا الأخيرة قبل أن يتحوّل حديثنا إلى شجار. تذكرت تعابير وجهك، رأيتها ماثلة أمامي، وتذكرت تألقك، والنور المنبعث من وجهك. سمعت ضحكتك، وأدركت الآن فقط معاني دبدباتك الصوتية. وأصبح لنظرة عينيك، ولكلماتك، ولكلّ حركة من حركاتك، معنى جديداً. كنت ستبادرين إلى إخباري بذلك أمس. أنا متأكد من ذلك. نعم، قبل أن أفسد كل شيء، كنت ستبادرين إلى إخباري بأنك تحملين طفلنا في بطنك.

فتحت عينيّ. لقد تغيرت طبيعة بحثي الآن. لم أعُد أبحث عن المرأة التي أحب، بل وعن **طفلنا أيضاً!**

توقّف الطنين الذي غمر أذني. حين التفت إلى كاراديك، رأيته يُجري مكالمة. لقد حالَ الانفعال دون أن أسمع رنة الهاتف.

بما أنّ الطريق السريع كان مزدحماً، توجّه مارك إلى شارع لي ماريشو على مستوى بوابة أسنيير، وها هو الآن يمضي في شارع توكفيل كي يتفادى زحمة السيارات في شارع ماليزيرب.

كان قد وضعَ الهاتف بين أذنه وكتفه، وبدا مندهشاً هو أيضاً.

- اللعنة! هل أنتَ متأكِّد ممّا تقول يا فاسور؟

لم أسمع جواب محدّثه.

- طيب، غمغم الشرطي قبل أن ينهي المكالمة.

عجز عن الكلام لحظة، وامتقع لونه، وتغيّرت ملامح وجهه. لم أرَه على هذه الحال قط.

- مَن اتصل بك؟ سألته.

- جان-كريستوف فاسور، الشرطي العامل في شعبة مكافحة الجرائم الذي بعثت له ببصمات آنا.

- وبعد؟

- بصمات آنا موجودة في ملف حفظ البصمات في حاسوب الشرطة القضائية.

اقشعرّ بدني.

- ما هي هُويتها الحقيقية؟

أشعلَ الشرطي سيجارة أخرى.

- اسم آنا الحقيقي هو كلير كارلايل.

صمت. ذكّرني هذا الاسم بشيء مبهم. سبق أن سمعت به منذ وقت طويل، ولكنني لا أتذكر في أي ظروف.

- وما هي تهمتها؟

حرّك كاراديك رأسه وهو ينفث الدخان.

- لا شيء. من المفروض أن تكون كلير كارلايل قد ماتت منذ سنوات.

نظر إليّ، وقرأ على وجهي علامة عدم الفهم.

- كلير كارلايل إحدى ضحايا هاينز كيفر، قال موضحاً.

تجمّد الدم في عروقي، وأحسستُ كأني أسقط في هُوة من الرعب.

اليوم الثاني

قضية كلير كارلايل

7

قضيةُ كلير كارلايل

حصل ذلك خلال ليلة ليلاء مُرعبة.

جان راسين

1.

طلع النهار.

انتشرَ ضوء وردي فوق لعب ابني المشتّتة في أركان الغرفة الأربعة. حصان خشبي مُؤرجِح، قطع بازل، كتب متراكمة، قطار خشبي...

قبيل الساعة السادسة بقليل، كان الليل قد تركَ مكانه لسماء زرقاء صافية. في ممرّ دانفير، كانت العصافير قد بدأت تزقزق، ورائحة أزهار إبرة الراعي تغمُر شرفة منزلي. حين نهضتُ كي أطفئ مصابيح المنزل، وطأت بقدمي على سلحفاة بلاستيكية فأخذت تصدر أغنية تطلَّبت مني حوالي دقيقة كي أخرسها. لحسن الحظ، حين ينام تيو، لا تستطيع حتى ألعاب نارية أن توقظه من نومه. بعد أن فتحتُ باب غرفته قليلاً كي أتمكّن من أن أسمع صوته فور استيقاظه، فتحت النافذة كي أترقب طلوع الشمس، وبقيت على تلك الحال، متكّئاً

على الدرابزين، متمنياً أن أجد شيئاً من الراحة في ضوء الفجر.

أين أنت يا آنا؟ أم عليّ الآن أن أسميك كلير...

انجلت الألوان الباردة، وحلّ محلها اللون البنفسجي، قبل أن يترك مكانه لنور أشعة الشمس الساحر الذي غطى بحجاب برتقالي الأرضية الخشبية.

أغلقت النافذة، وسحبت من درج الطابعة عدة أوراق، وألصقتها على لوحة الفلّين التي اعتدت أن أستعملها لترتيب الوثائق حين أكون منشغلاً بكتابة إحدى رواياتي.

كنت قد قضيت الليل في التنقيب على الإنترنت. في مواقع الصحف والمكتبات الرقمية، تصفحت مئات المقالات، وحمّلت عدداً من الكتب، وطبعتُ الصور. كما شاهدت أيضاً جميع برامج الأخبار التي خصّصت حلقة للقضية (**ساعة الجريمة، أدخلوا المتهم، تحليل جريمة مع باولا زاهن...**).

فهمت الآن لماذا رغبتِ في إخفاء ماضيك.

إذا شئتُ أن تكون لدي فرصة لأعثر عليكِ، فعليّ أن أستوعب، في وقت قياسي، «ملفاً» من مئات الصفحات المتعلقة باختفائك.

الآن لم يعُد ممكناً أن أخبر الشرطة. لم أعُد أعبأ بأن أعرف إن كنتِ بريئة أم مُذنبة مكيافيلية[1]. لم تعُد تهمني مثل هذه المفاهيم. كلّ ما يهمني الآن هو أنك المرأة التي أحب، وأنك تحملين طفلنا في بطنك لذلك أريد أن أحفظ سرّك بقدر ما أستطيع، السرّ الذي نجحت في حفظه طوال عشر سنوات.

(1) نسبة إلى مكيافيلي، مؤلّف الكتاب الشهير **الأمير**، وصاحب المقولة الأشهر: الغاية تبرر الوسيلة - المترجم.

تناولت الترمس من جانب الحاسوب وأفرغت ما تبقى فيه في فنجاني، وبذلك أكون قد أتيت على ثلاث لترات من القهوة السوداء التي احتسيتها طوال الليل. ثم جلست على الكرسي المقابل للوحة الفلّين.

أخذت أنظر عن بعد إلى عشرات الصور التي كنت قد ألصقتها على اللوحة. كانت الصورة الأولى على اليسار مرفقة بإعلان عن البحث عن متغيّب نُشر ساعات قليلة بعد اختفائكِ:

اختفاء مقلِق

لفتاة قاصر

الاسم: كلير؛ السن: 14 سنة

اختفت في ليبورن منذ 28 مايو 2005

الطول: متر وستون؛ خلاسية، عينان خضراوان،

شعر أسود قصير، لغتها إنجليزية.

جينز أزرق، قميص أبيض، حقيبة رياضية صفراء.

إذا كانت لديكم أية معلومات،

اتّصلوا بـ: مركز الدرك ببلدية ليبورن

مركز الشرطة – مخفر بوردو

هذه الصورة تحيّرني. إنها أنتِ وليست أنتِ. من المفروض أنّ سنكِ يوم التُقطت الصورة أربع عشرة سنة، ولكن يبدو سنك في الصورة أكبر من ذلك، ستّ عشرة أو سبع عشرة سنة على الأقل. تعرّفت فيها على لون بشرتك الذهبي، وعلى وجهك المشرق، وعلى ملامحك المتناسقة، لكن ما تبقى كان غريباً عليّ: غريبة هذه الثقة

بالنفس الزائفة، غريبة هذه النظرة المستفِزّة لمراهقة جامحة، غريبة قَصة الشعر القصيرة، غريبة هاتان الشفتان المصبوغتان، شفتا فتاة تلعب دور امرأة.

مَن أنت يا كلير كارلايل؟

أغمضت عيني. لقد تجاوز تعبي كلّ الحدود، لكنني لم أُرِد أن أرتاح. بالعكس. كنت أعيد في عقلي فيلم الأحداث التي علمت بها في الساعات الأخيرة، الفيلم الذي عنونته وسائل الإعلام آنذاك بـ«قضية كلير كارلايل».

2.

يوم السبت 28 مايو 2005، قضت كلير كارلايل وهي فتاة من نيويورك في الرابعة عشرة من عمرها قَدِمَت إلى منطقة أكيتين في فرنسا من أجل تمكين لغتها الفرنسية، قضت الأمسية في مدينة بوردو رفقة خمسة من صديقاتها. تناولت الفتيات سلطة في مطعم بساحة لابورس، ثم تفسَّحنَ في المدينة وهنّ يتلذّذن بحلويات الكانوليه من محل باياردران الشهير، وتوجّهنَ إلى حيّ سان-بيير بعد ذلك للتسوّق.

على الساعة السادسة وخمس دقائق مساءً، ركبت كلير القطار من محطة سان-جان كي تعود إلى ليبورن حيث أسرة لارفيير التي تقيم عندها طيلة مدة الدراسة. وكانت بصحبتها أوليفيا مندلسون، وهي فتاة أميركية تدرس بالمدرسة نفسها. وصَلَ القطار على الساعة السادسة وأربع وثلاثين دقيقة، وقد التقطت عدسة كاميرا المراقبة صوراً للفتاتين حين كانتا تغادران المحطة خمس دقائق بعد وصولهما.

مشت كلير وأوليفيا في حي غالييني مسافة قصيرة. وبعد أن

افترق سبيلاهما، سمعت أوليفيا صرخة، فالتفتت ورأت خلسة رجلاً «في حوالي الثلاثين من العمر، أشقر الشعر» وهو يدفع صديقتها نحو سيارة شحن رمادية اللون. ثم انطلقت السيارة بسرعة واختفت.

دفعت اليقظة الفتاة إلى أن تسجل رقم سيارة الشحن، واتصلت بالدرك على الفور. رغم أن خطة «تبليغ عن اختطاف» لم تكن فرنسا قد شرعت في العمل بها حينذاك (لن تُجرَّب هذه الخطة للمرة الأولى إلا بعد ستة أشهر من ذلك التاريخ، من أجل العثور على طفلة في السادسة من عمرها اختطفت في مين-إي-لوار)، فقد أقيمت الحواجز في كلّ المحاور الطرقية على الفور، ونُشر خبر الاختطاف ومعه أوصاف المختطِف المحتمل - ورسم له استناداً إلى ما رأته أوليفيا، وظهر المختطِف في البورتريه رجلاً ذا وجه مجدور، وشعر محلوق على شكل دائري، وعينين غائرتين مجنونتين.

لم تنجح شرطة الحواجز في القبض على المشتبه فيه. وفي الغد عثرت الشرطة على سيارة شحن صغيرة من نوع بوجو إكسبير رمادية اللون تحمل الرقم الذي مدّت أوليفيا الشرطة به، محروقة في إحدى الغابات بين أنغوليم وبيريغو، وقد كانت الشرطة توصّلت أمس ببلاغ عن سرقة السيارة المعنية. حلّقت الطائرات المروحية فوق الغابة، وفتشوا منطقة شاسعة تفتيشاً دقيقاً بمساعدة الكلاب. ونجحت الشرطة العلمية في العثور على بعض البصمات وبعض الآثار الجينية. وعلى الأرض، عثرت الشرطة أيضاً على آثار عجلات جنب السيارة المحروقة، لا شك أنها آثار السيارة التي نُقلت إليها كلير. حاولت الشرطة صبّ تلك الآثار في قالب، إلّا أن المطر الذي سقط بالأمس بلّل الأرض، وحالَ دون نجاح المحاولة.

.3

هل كانت عملية اختطاف كلير مُدبّرة أم أنها كانت خاضعة لنزوة شخص منحرف عابر؟

أسند البحث في القضية إلى شرطة بوردو، إلّا أنه سرعان ما تبيَّن أنّ التحري في القضية معقّد. لم تسمح البصمات والآثار الجينية بالتوصّل إلى هوية المشتبه فيه. وعمَدَ المحقّقون، مصحوبين بمجموعة من المترجمين الفوريين، إلى استجواب التلميذات والأساتذة استجواباً دقيقاً. كانت التلميذات جميعهن ينتمين إلى ثانوية الأم الرحيمة، وهي مؤسسة كاثوليكية خاصة بفتيات الأسر الثرية في حيّ أبر إيست سايد بدائرة مانهاتن بنيويورك، متوأمة مع ثانوية سان-فرنسوا-دو-سال ببوردو. حقّقت الشرطة مع الأسرة التي تأوي كلير -السيد والسيدة لاريفيير- لكنها لم تتوصل إلى شيء. ووضعت المنحرفين جنسياً الموجودين في المنطقة تحت المراقبة، وأحصَت المكالمات التي أجريت من المناطق القريبة من محطّة القطار. وكما هو الحال دائماً حين يتعلق الأمر بتحقيقٍ تقوم وسائل الإعلام بتغطيته، توصل مركز الشرطة بعشرات المكالمات الوهمية والرسائل المجهولة لا أهمية لها. وبعد شهر، كان على الشرطة أن تعترف بأنّ التحقيق لم يتقدّم قيد أنملة، كما لو أنه لم يبدأ قط. . .

.4

نظرياً، كانت قضية كلير تحتوي على جميع العناصر التي من شأنها أن تجعل وسائل الإعلام تهتم بها اهتماماً كبيراً. ومع ذلك، لم تهتم بها بقدر ما تعودت أن تهتم بقضايا مماثلة. شيء ما عجزتُ عن تفسيره كان قد أوقف موجَة التعاطف التي تستحقها هذه المأساة.

هل هو جنسية كلير الأميركية؟ أم لأنها كانت تبدو في الصور أكبر من سنّها الحقيقي؟ أم كثرة المواضيع التي كان على وسائل الإعلام أن تُوليها اهتماماً حينذاك؟

كنت قد عثرت على الصحف الصادرة آنذاك. كانت الصحافة الوطنية قد خصَّصت كبرى عناوينها، غداة الاختطاف، للسياسة الداخلية. كان التصويت بـ«لا» في الاستفتاء الذي أجري حول المصادقة على الدستور الأوروبي بمثابة زلزال أضعف الرئيس شيراك ومعارضيه على حدٍّ سواء، وعجَّل برحيل الوزير الأول وأسفر عن تشكيل حكومة جديدة.

كان أوّل خبرٍ نشرته الوكالة الفرنسية للأنباء حول «قضية كارلايل» خبراً غير دقيق على الإطلاق. الربّ وحده يعلم لماذا أكَّد كاتب الخبر أنّ أصل أسرة كلير من بروكلين، بينما الحقيقة أنها كانت تعيش في هارلم منذ زمن طويل. صحيح أنّ خبراً ثانياً كان قد نُشر لتصحيح الخبر الأول، لكن كان الوقت قد فات لأنّ الخبر الخاطئ كان قد انتشر كأنه فيروس، وأخذت تتناقله المقالات في الجرائد، وتدعو كلير كارلايل بـ«فتاة بروكلين».

خلال الأيام الأولى التي تلت الاختطاف، كان للقضية صدى في الولايات المتحدة يكاد يكون أهمّ من ذلك الذي حظيت به في فرنسا. خصَّصت لها **نيويورك تايمز** مقالاً جاداً وموثقاً، لكنه لم يُفِدْني بالشيء الكثير. أمّا **نيويورك بوست** فتناولت القضية على مدى أسبوع تقريباً، فعمَدَت، بما عُرف عنها من تحيّز، إلى طرح افتراضات غريبة جداً، وأطلقت العنان لتوجهها المعادي لفرنسا[1]،

---

(1) French bashing: بالإنجليزية في النص.

داعية قراءها إلى عدم قضاء عطلهم في فرنسا، إذا هم أرادوا أن لا يُختطف أطفالهم، وأن لا يتعرضوا للتعذيب أو لاعتداء جنسي. لكنها سرعان ما تعبت من الكتابة عن القضية، وانشغلت بفضائح أخرى (كمحاكمة مايكل جاكسون)، وثرثرات تافهة أخرى (كخطوبة توم كروز)، ومآسي أخرى (كمأساة أولئك الأطفال الثلاثة الذين عثر عليهم في نيوجيرسي مخنوقين داخل صندوق إحدى السيارات).

أما في فرنسا، فأحسن مقال قرأته كان قد نُشِرَ في إحدى الصحف الإقليمية، مقال من توقيع مارلين دولاتور، وهي صحافية في صحيفة جنوب-غرب التي خصّصت صفحتين للحديث عن أسرة كارلايل. فتحدثت عن مراهَقَة كلير حديثاً يتوافق مع ما كنتُ أتصوّر. فهي فتاة تربَّت من دون أب، خجولة ومجدّة، تعشق الكتب والدراسة، وترغب في أن تصبح محامية. ورغم انتمائها إلى أسرة متواضعة الدخل، جاهدت هذه التلميذة المتفوّقة كي تحصل على منحة تعليمية، والتحقت بإحدى المدارس الثانوية الأكثر نخبوية في نيويورك.

كان المقال قد كُتب بمناسبة قدوم والدة كلير إلى فرنسا، ففي 13 يونيو 2005، وبعد أن تبين لجويس كارلايل أنّ التحريات لا تَسير قُدُماً ولا تحملُ أيّ جديد، غادرت حي هارلم متوجِّهة إلى بوردو. وقد توصَّلتُ -على موقع المؤسسة الوطنية للإعلام السمعي-البصري- إلى مشاهدة بعض الصور من النداء الذي أذاعته جويس في وسائل الإعلام والذي تناقلته على الخصوص قناة فرانس2 في نشرة الساعة الثامنة مساء، وهو نداء ترجو فيه مَن اختطف ابنتها ألّا يُسيء معاملتها، وأن يُطلق سراحها. بدت جويس على الصور شبيهة بالعدّاءة الأميركية ماريون جونس: شعر معقوص، وجه طويل، أنف

مدبب وأفطس في الوقت نفسه، أسنان بيضاء وعينان سوداوان، ولكنها تختلف عن ماريون جونس من حيث أنّ جفونها كانت منتفخة، وملامح وجهها متعبة نتيجة الحزن والأرق.

إنها أمّ تائهة في بلد ليس بلدها، وتتساءل ماذا جنَت ابنتها لتجد نفسها، بعد أربعة عشر سنة عاشتها في أمن وأمان، في خطرٍ يهدِّد حياتها في إحدى المناطق الفرنسية البعيدة.

5.

ظل التحقيق عند نقطة الصفر مدة سنتين، ولكنه استأنف بطريقة عجيبة، وشهد نهاية كريهة.

في فجر السادس والعشرين من أكتوبر 2007، شبّ حريق في منزل منعزلٍ وسط غابة قرب سافيرن، على حدود الألزاس واللورين. كان فرانك ميزولييه، وهو دركي بالمنطقة، ذاهباً إلى عمله فإذا به يرى دخاناً ويبلِّغ الجهات المختصّة.

وحين وصلت سيارات الإطفاء إلى مكان الحريق، كان الوقت قد فات. كانت ألسن النيران قد أتت على المنزل بأكمله. ولما تمكنوا من إطفاء الحريق، غامر رجال الإطفاء بالتقدم وسط الجمرات المتقدات، ليكتشفوا مندهشين أنّ المنزل كان مصمّماً بطريقة فريدة متميزة. كان يبدو من الخارج منزلاً عادياً، ولكنه في الواقع عبارة عن بناية حديثة، نصفها مدفون تحت الأرض، قلعة متماسكة حلزونية الشكل، مشيدة حول سلم حلزوني ضخم ينفذ إلى أسفل ليصل إلى عدد من الغرف تحت الأرض.

زنازين انفرادية.

زنازين انفرادية لسجن الضحايا مدى الحياة.

في الطابق الأرضي، عثر رجال الإطفاء على جثة رجل ابتلع عدداً كبيراً من الحبوب المنومة والحبوب المضادة للقلق. سيكشف التحقيق في ما بعد أنه صاحب المنزل، وأن اسمه هاينز كيفر، وهو مهندس ألماني في السابعة والثلاثين من عمره، يسكن في هذه المنطقة منذ أربع سنوات.

عثروا في ثلاث «غرف» على ثلاث مراهقات مقيَّدات بالأصفاد إلى أنابيب صلبة. وقد تطلب الكشف عن هويتهن بالاعتماد على أسنانهن وعلى الحمض النووي، عدة أيام.

لويز غوتييه، التي كانت في الرابعة عشرة من عمرها حين اختفت في الواحد والعشرين من ديسمبر 2004، خلال العطلة التي كانت تقضيها في منزل جدها وجدتها قرب سان-بريوك، في الكوت دارمور.

كامي ماسون، التي كانت في السادسة عشرة من عمرها حين اختفت في التاسع والعشرين من نوفمبر 2006، في أثناء عودتها مشياً، بعد ممارسة الرياضة، في إحدى الضيعات الواقعة بين سان-شامون وسانت-إيتيان.

كلويه ديشانيل، التي كانت في الخامسة عشر من عمرها حين اختفت في السادس من أبريل 2007، وهي عائدة من معهد الموسيقى البلدي بسان-أفرتان في ضاحية تور.

ثلاث مراهقات اختطفهن كيفر على مدى سنتين ونصف، في ثلاث مناطق فرنسية متباعدة بعضها عن بعض. ثلاث ضحايا لا حول لهن ولا قوة انتزعهنّ من حياتهن كتلميذات إعدادية وثانوية ليؤلف منهن حريمه المقبور. ثلاث حالات اختفاء لم تُصنَّف، حين وقعت، على أنها حالات اختطاف. وذلك لأن لويز غوتييه كانت قد

تشاجرت مع جدّها وجدتها قبل الاختطاف، ولأنّ كامي ماسون كانت متخصصة في الهروب من منزلها، ولأن والدَي كلويه ديشانيل تأخّرا في إخبار الشرطة عن اختفاء ابنتهما. كل تلك العوامل حالت دون أن يأخذ التحقيق مجراه المعتاد، وأن يكون فعالاً. وقد زاد الطين بلة أنّ مناطق الاختفاء كانت متباعدة، ما جعل رجال الشرطة المكلفين بالتقصّي حول ملابسات الاختفاء لا يربطون بين القضايا الثلاث...

خلال السنوات العشر الأخيرة، حاولت عدة دراسات أن «تفهم» حالة هاينز كيفر النفسية - هذا إذا كان هناك ما نفهمه عن شخص بلغت به الفظاعة حداً لا يُتصوّر. لقد بقي ذلك الحيوان المفترس الذي أطلق عليه لقب «دوترو الألماني[1]» لغزاً محيّراً، عصياً على فهم وتحليل رجال الشرطة وعلماء النفس والصحافيين. إذ لم يكن لكيفر أية سوابق إجرامية، بحيث لم يكن اسمه مدرجاً في ملفات الشرطة ولم يسبق أن بلّغ أحد عن سلوكه.

ظلّ يشتغل في ميونيخ إلى نهاية سنة 2001، في مكتب أحد المهندسين ذائعي الصيت. لم يحتفظ مَن التقى به يوماً بأيّ ذكرى سيئة عنه، لكن معظمهم لم يتذكّروه حين سُئلوا عنه. لقد كان هاينز كيفر شخصاً ميّالاً إلى العزلة، لا يلفت الانتباه، لا تسبر أغواره. إنه **كالسيد سولوفان**[2].

---

(1) سنة 2004 حُكِمَ على مارك دوترو، وهو بلجيكي الأصل، بالسجن مدى الحياة، بسبب ما اقترف من جرائم قتل، واغتصابات، واختطافات طالت فتيات قاصرات... - المترجم.

(2) M. Cellophane: أغنية أميركية من كلمات جون كاندر، تتحدث كلماتها عن شخص لا يلفت الانتباه - المترجم.

لا أحد يعلم بالضبط ما كان «يفعل» كيفر بضحاياه. فقد كانت الجثث الثلاث المفحمة من الانحلال بحيث أنّ تشريحها لم يسمح بأن تظهر عليها آثار تعذيب أو عنف جنسي. بالمقابل، لم تُثِرْ طبيعة الحريق أيّ شك. فقد رُشّ المنزل من الداخل بالبنزين، وكانت أجساد الفتيات الثلاث، كما جسد جلادهن، مليئة بالحبوب المنومة والحبوب المضادة للقلق. يبدو أنّ كيفر كان قد اختار، لأسبابٍ مجهولة، أن ينتحر وأن لا يترك سجيناته الثلاث على قيد الحياة.

لجأ بعض الباحثين في مجال الجريمة الذين انكبّوا على تحليل حالة كيفر إلى نصائح المهندسين، وبعد أن درسوا بدقة تصميمات وشكل «قصر الرعب» وجدرانه العازلة للصوت، استنتجوا أنه يُحتمل أن لا تكون أيّ واحدة من الفتيات الثلاث على علمٍ بوجود الفتاتين الأخريين. ورغم أنّ هذه الرواية لا يمكن أن نتأكّد منها، فإنّ وسائل الإعلام تبنَّتها وعملَت على نشرها. ويا لها من رواية محزِنَة، يقشعرّ البدن من هَول رعبها!

6.

كان للعثور على الجثث صدى كبيراً في وسائل الإعلام، ما جعل الشرطة والقضاء في وضعية حرجة، وضعية المُقصِّر. ماتت ثلاث فتيات فرنسيات، قتلهن شيطان، بعد شهور وسنين من الحبس والعنف. فمَن المخطئ؟ الجميع؟ لا أحد؟ أخذت السلطات تحمِّل المسؤولية بعضها لبعض.

استمرّ البحث في مسرح الجريمة يومين كاملين. في قنوات الصرف وفي سيارة كيفر البيك-أب، عثرت الشرطة على خصل شعر وعلى آثار حديثة العهد لحمض نووي لا تعود للمجرم أو لضحاياه

الثلاث. وبعد عشرة أيام، جاءت نتائج التحليلات: لقد كان هناك أثران جينيان، واحد منهما مجهول المصدر، والثاني لكلير كارلايل.

ما أن حصلت الجهات المعنية على هذه المعلومة، حتى توصَّل الباحثون أنّ هاينز كيفر كان، لحظة اختطاف كلير، في زيارة لأمه التي تُقيم في إحدى دور رعاية المسنين في ريبيراك، في دوردون، على بُعد ستين كيلومتراً من ليبورن.

حددت الشرطة منطقة واسعة حول دار المسنين، وانطلق البحث من جديد، في العشب وفي الغدائر، وجُنّدت الطائرات المروحية للتحليق فوق الغابة، وتم اللجوء إلى كلّ أصحاب النوايا الحسنة كي يساعدوا الشرطة في البحث في المنطقة المحدَّدة عن كلّ ما من شأنه أن يفيدها في التحقيق.

ومرّ الوقت.

وتبخَّر الأمل في العثور على جثة.

رغم أنّ الشرطة لم تعثُر على جثة المراهقة أبداً، لم يشكّ أحد أنّ كلير كارلايل ماتت. فلا بدّ أنّ كيفر أخذها، أياماً أو ساعات قليلة قبل الانتحار والمجزرة، إلى مكان معزول، ثم قتلها وتخلّص من الجثة.

ومع ذلك، لم يُغلق الملف على مدى سنتين، بالرغم من أنّ البحث لم يُسفر عن أيّ جديد. وفي أواخر سنة 2009، وقَّع قاضي التحقيق وثيقة وفاة كلير كارلايل.

فلم يعُد أحد يتكلم بعد ذلك عن «فتاة بروكلين».

8

رقصة الأطياف

إنّ الحقيقة كالشمس. تمكّنك من أن ترى كلّ شيء، لكنها لا تسمح لك بأن تنظر إليها.

فيكتور هوغو

.1

- هيا، انهض!

ارتعشت من وقع صوت كاراديك، ففتحت عينَي مرتجفاً. كنت عَرقان، وكان قلبي يخفق بشدّة. غمر فمي طعم الرماد.

- اللعنة. كيف دخلت؟

- ما زالت لدي نسخة من مفاتيح شقتك.

كان يحمل رغيف خبز تحت إبطه، وكيس تسوّق تحت الإبط الآخر. واضحٌ أنه عادَ لتوّه من المخبزة التي في ركن الشارع. أحسستُ بزغلَلَة في عيني، وبالغثيان. لم أنَمْ منذ يومين، وهو ما صعب لجسمي أن يتحمّله. تثاءبت مرتين قبل أن أنهض عن الكنبة وألتحق بمارك في المطبخ.

نظرت إلى ساعة الحائط: قرابة الثامنة صباحاً. **اللعنة**. لقد فاجأني التعب، فنمت أكثر من ساعة.

- لديّ خبر سيئ، أعلن مارك وهو يشغِّل آلة تحضير القهوة.

نظرت إلى عينيه لأول مرة منذ دخوله. لم يكُن مظهره الكئيب يبشِّر بالخير.

- هل يعقل أن تصبح الأمور أسوأ ممّا هي عليه؟

- يتعلق الأمر بكلوتيلد بلونديل.

- مديرة الثانوية؟

أومأ مؤكِّداً.

- كنت في ثانوية القديسة سيسيليا قبل قليل.

لم أصدِّق ما سمعته أذناي.

- أذهبتَ إلى هناك من دوني؟

- أتيتُ إليك كي ترافقني، قال متبرِّماً، لكنك كنت غارقاً في النوم، فقرَّرتُ أن أذهب وحدي. قضيت الليل أفكر: قلت مع نفسي إنّ بلونديل قد تمدّنا بالمعلومات، فهي تعرف، من خلال ما حكيتَ لي، أكثر ممّا سبق أن قالته لك. اعتقدت أنها ستخاف، بعد أن تشاهد فيديو اختطاف تلميذتها، فتعترف بكلّ شيء.

كان يتكلم وهو منشغل بتحضير القهوة.

- لكن، حين وصلت إلى شارع غرونيل، رأيت عدداً من رجال الشرطة أمام باب الثانوية. عرفت من بينهم زملاء من شعبة حماية القاصرين، أفراد فرقة لودوفيك كاسان. ولكي لا يلاحظوا وجودي، بقيت جالساً في السيارة إلى أن غادروا.

حدست أن شيئاً سيئاً قد وقع.

- ماذا كانت الشرطة تفعل هناك؟

- اتصلَتْ بهم نائبة المديرة بعد أن عُثر على جثة كلوتيلد بلونديل في ساحة المدرسة.

استيقظت من سباتي فجأة، دون أن أكون متأكداً أني فهمتُ كلّ ما قاله.

- تمكنتُ من استجواب البستاني، استأنف مارك وهو يحمّص قطع الخبز. عَثَر على بلونديل حين التحق بالعمل على الساعة السادسة صباحاً. الشرطة تعتقد أنّ شخصاً ما رمى المديرة من نافذة مكتبها، على علوّ ثلاثة طوابق.

- هل... ماتت؟

حرَّك مارك شفتيه معبِّراً عن شكّه.

- بحسب البستاني، كانت لا تزال تتنفس عندما عَثَر عليها، ولكنها كانت في حالة حرجة.

أخرج دفتراً صغيراً من جيب جينزه الخلفي، ووضع نظارته كي يقرأ ما سجله:

- حملتها سيارة الإسعاف إلى مستشفى كوشان على عجل.

تناولت هاتفي. صحيح أني لا أعرف أحداً في مستشفى كوشان، لكن لديّ ابن خال اسمه ألكسندر ليك، مسؤول عن قسم مرضى القلب في مستشفى نيكر. تركت له رسالة على مجيبه الآلي طالباً منه أن يتَّصل بكلّ مَن يعرفهم، وأن يوافيني بتطور حالة كلوتيلد بلونديل الصحية أولاً بأول.

ثم هَوَيْت على الكرسي مذعوراً، شاعراً بالذنب. أنا المذنب في كلّ ما حدث. فقد أرغمت آنا، من كثرة ما أصررت عليها، أن تعترف لي بحقيقة لم يكن من المفترض أن تبوح بها. فعمدت، من

دون قد، إلى تحرير أشباح ماضٍ تراجيدي، وها هي ذي الآن تُولّد عنفاً جارفاً.

2.

- رضّاعة بابا! رضّاعة!

خرج تيو من غرفته، مثقلاً لا يزال، ومشى نحوي مشية مترنِّحة، ثم سبقني إلى الصالون. أمسكَ بالرضاعة التي كنتُ قد حضَّرتها له مبتسماً، ثم جلس على كرسيه.

أخذ يمتصّ الرضاعة بشغفٍ، وهو ينظر بعينيه المشرقتين المفتوحتين عن آخرهما، وكأن حياته كلها متوقفة عليها. نظرتُ إلى وجهه -إلى شعره الأشقر المجعّد، إلى أنفه المدبب، إلى نظرته الزرقاء الصافية الرائقة- محاولاً أن أستمدّ منه القوة والأمل.

أخذ مارك يذهب ويجيء أمام لوحة الفلّين، حاملاً فنجان القهوة.

- هذه هي الصورة التي أطلعَتْكَ عليها، أليس كذلك؟ قال حازراً وهو يُشير إلى صورة مثبتة على اللوحة.

أومأت مؤكّداً. كانت الصورة تُبرز جثث المراهقات الثلاث المفحمة، الفتيات اللواتي اختطفهن كيفر، الفتيات اللواتي أصبح بمقدوري الآن أن أعدّد أسماءهن: لويز غوتييه، كامي ماسون، كلوي ديشانيل.

- أين وجدتها؟ سألني دون أن يرفع عينيه عن الصورة.

- في عدد خاص، نشرته مجلتان محلّيتان هما **صوت الشمال والجمهورية**. كانت الصورة ضمن مقال عن كيفر و«مخبأ الرعب». غريب جداً أن يسمح مدير التحرير بنشر صورة كهذه.

احتسى مارك جرعة من القهوة وهو يتنهد. ضيَّقَ عينيه، وأخذَ يقرأ بسرعة المقالات المثبتة على اللوحة، المرتبة بحسب التسلسل الزمني. استغرقت قراءته للمقالات خمس دقائق.

- ما رأيك؟

فتح النافذة كي يستطيع التدخين، مستغرقاً في التفكير. وضع الفنجان على حافة النافذة وارتجل سيناريو الأحداث.

- مايو 2005: اختطف كيفر كلير كارلايل من محطة ليبورن، ثم أخذها في سيارته إلى عرينه شرق فرنسا. هناك، كان المتحرّش بالأطفال قد احتجز طفلة اسمها لويز، كان قد اختطفها في بروتان قبل ستة أشهر. وعاشت الطفلتان في جهنم شهوراً عديدة. واستمرّ كيفر في تكثير حريمه، فاختطف كامي ماسون نهاية عام 2006، ثم كلويه ديشانيل في فصل الربيع من السنة اللاحقة.

- إلى الآن، نحن متفقان.

- أكتوبر 2007: كانت كلير قد قضت سنتين ونصف في سجن كيفر. وكان هذا الأخير يلجأ، كي يتمتّع بسجيناته، إلى الحبوب المنومة والمهدئة. ولمّا اشتدّ عليه الضغط، لجأ هو أيضاً إلى تناول تلك الحبوب. وذات يوم، استغلّت كلير تهاون سجّانها في الحراسة فهربت. ولما انتبه كيفر إلى اختفائها، أصابه الذعر. توقّع أن تداهمه الشرطة في أيّ وقت، ولكي لا يقع في قبضتهم، فضّل أن يقتل سجيناته قبل أن ينتحر بإضرام النار في معقله و. . .

- لا أوافقك على ما قلت الآن.

- لماذا؟

اقتربت من النافذة، وجلست على حافة الطاولة.

- لقد كان منزل كيفر حصناً حصيناً. زنزانات انفرادية، وأبواب مصفّحة، وجهاز إنذار يغلق المخارج تلقائياً. لا أعتقد أنّ كلير استطاعت أن تهرب بتلك السهولة!

اعترض مارك:

- إن السجناء ينجحون في الهرب من كلّ السجون كيفما كانت.

- طيب، قلت متنازلاً، لنفترض أنّ ما قلتَه صحيح. ولنفترض أنّ كلير نجحت في الخروج من المنزل.

وقفت، تناولت قلماً، وأشرت إلى خريطة ميشلان المعروضة.

- أرأيت أين يقع المخبأ؟ في قلب غابة «الحجر الصغير». فلكي تصل إلى أوّل مكان آهل بالسكان، كان عليها أن تمشي ساعات طويلة. وحتى إذا افترضنا أنها خدعت كيفر وهربت، فقد كان أمام هذا الأخير الوقت الكافي ليلحق بها ويقبض عليها.

- ربما سرقت كلير سيارته.

- لا، لقد عثرت الشرطة على سيارته البيك-أب وعلى دراجته النارية أمام منزله. وكيفر، بحسب ما قرأت، لم يكُن يملك غيرهما.

واصل كاراديك التفكير بصوتٍ عالٍ:

- ألا تكون قد التقت في الطريق بسيارة أشارت إليها بالتوقف، فركبتها؟

- هل تمزح؟ مع كلّ التغطية الإعلامية التي حظيت بها القضية، كان السائق ليبلّغ الشرطة. ولنفترض أنها هربت فعلاً، فما الذي منعها من أن تبلغ الشرطة، ولو من أجل إنقاذ باقي الفتيات المحتجزات؟ كيف تفسر أنها اختفت تماماً عن الأنظار؟ لماذا

اختارت أن تعيش في باريس، في حين أنّ أمها، وأصدقاءها، ومدرستها، موجودون في نيويورك.

- لا تفسير لديّ.

- حسناً، فيما يخص الفتيات الأخريات، ليس هناك ما يؤكد أنها كانت على علم بوجودهن. ولكن، ماذا عن المال؟ ماذا عن تلك الـ400000 أو500000 يورو التي كانت في الحقيبة؟

- سرقتها من كيفر، قال مارك اعتباطاً.

لكن افتراضه هذا لم يكن مقنعاً هو الآخر.

- لقد اطَّلعت الشرطة على كلّ حساباته، وتوصَّلت إلى أنّ كيفر كان مديناً بمالٍ كثير، مال كان قد موّل به بناء المنزل. لم يكن لديه أيّ مدّخرات، بل إنه كان يلجأ إلى أمه التي كانت تحوّل له 500 يورو كلّ شهر.

أطفأ مارك عقب سيجارته في إناء زهور إبرة الراعي، وبدا كأنه يطرد فكرة محبطة، لكن سرعان ما عادت إليه عزيمته:

- لكي نعثر على كلير، يجب أن نعود إلى ما هو أساسي يا رافائيل. علينا أولاً أن نطرح الأسئلة المناسبة. لقد درستَ الملف طوال الليل، فإليك يعود إذاً أن تحدّد الأسئلة التي تؤطر بحثنا!

تناولتُ الورقة التي كنت قد دوّنت عليها أهم الأسئلة:

مَن سجن كلير في ذلك المستودع بضاحية باريس؟

مَن أخرجها منه؟

لماذا ما زال مَن اعتقلها يحتفظ بها سجينة؟

اختار الشرطي الإجابة على آخر الأسئلة.

- ما زال يحتفظ بها سجينة لأنها كانت على وشك أن تُطلعك

على الحقيقة. كانت آنا تستعد لأن تعترف لك بأنّ اسمها كلير كارلايل.

- ألم تقل لي دائماً يا مارك إنّ السؤال الوحيد الذي يُعتدّ به في كلّ تحقيق هو: ما هو الدافع؟

- هذا صحيح! وفي الحالة التي تهمّنا، يصبح السؤال: مَن سيسيء إليه أن تكشف لك كلير عن هويتها؟ من سيتضرَّر إذا عُرف فجأة أن آنا بيكر هي في الحقيقة كلير كارلايل الصغيرة التي كان هاينز كيفر قد اختطفها قبل عشر سنوات؟

ظلّ السؤال عالقاً للحظات، لكن لا أحد منّا أمسك به، ما جعل شعورنا بأننا تقدّمنا قليلاً في القضية يتبخر. كنّا لا نزال بعيدين عن الإمساك بأهمّ خيوطها.

3.

كان تيو يأكل الخبز المدهون بالعسل وهو جالس في كرسيه العالي، والمريلة ملفوفة حول عنقه. وكان مارك جالساً بجانبه يحتسي كأساً آخر من القهوة، ويقدّم افتراضات أخرى، ويدافع عن قناعات جديدة:

- يجب أن نعود إلى التحقيق حول هاينز كيفر. أن نعود إلى عين المكان، وأن نكشف عمّا حدث في الليلة السابقة عن الحريق الذي شبَّ في المنزل.

لم أكُن مقتنعاً بأنّ هذا ما علينا أن نفعله. كنت قد بدأت، منذ دقائق قليلة، أدرك أن مارك ينظر إلى القضية من وجهة نظر شرطي، بينما أنظر إليها أنا من وجهة نظر روائي.

- هل تذكر نقاشاتنا حول فنّ الكتابة يا مارك؟ سألتني يوماً كيف

أبني شخصيات رواياتي، وأجبتك إني لا أشرع في كتابة رواية من رواياتي قبل أن أعرف جيداً ماضي أبطالها.

- قلتَ لي يومها إنك تضع خطاطة بيوغرافية لكلّ شخصية، أليس كذلك؟

- بلى، وكنت قد حدّثتك بتلك المناسبة عن الشبح.

- ذكرني بما تقصده بالشبح.

- الشبح أو الطيف، هو الاسم الذي يوظِّفه بعض المتخصصين في فن الدراما للتعبير عن حدث مفصليّ، عن تحوّل في ماضي الشخصية يستمر تأثيره عليها في حاضرها.

- هل تقصد نقطة ضعف تلك الشخصية؟

- نوعاً ما. لنقُل إنها صدمة في حياة الشخصية، شيء دفين، سرّ يفسِّر أعماقها، وحالتها النفسية، وسريرتها، إضافة إلى جزءٍ من تصرّفاتها.

أخذ ينظر إليّ وأنا أمسح وجه تيو اللزج.

- ماذا تقصد بالضبط؟

- يجب أن أعثر على شبح كلير كارلايل.

- ستجده حين نكتشف حقيقة ما وقع في منزل كيفر في الليلة السابقة عن نشوب الحريق.

- هذا ليس ضرورياً. أعتقد أنّ هناك شيئاً آخر. حقيقة أخرى تشرح لماذا، هذا إذا كانت قد هربت حقاً، لم تبلّغ كلير كارلايل الشرطة، ولماذا لم تسعَ قطّ إلى العودة إلى أسرتها.

- وأين توجد هذه الحقيقة بالنسبة إليك؟

- حيث تولد كلّ الحقائق في العالم: في الطفولة.

- في هارلم؟ سأل وهو يشرب جرعة أخرى من قهوته.

- تماماً. أقترح عليك يا مارك أن تواصل التحقيق في باريس، وأن أواصله أنا في الولايات المتحدة!

وكما يحدث في أفلام الكارتون، كادَ مارك يختنق فتفلَ ما في جوفه من قهوة. ولمّا فرغ من السعال، نظر إليّ غير مصدِّقٍ، وقال:

- أتمنى أن لا تكون جادّاً في ما تقول.

4.

عند دوّار ساحة إيطاليا، انعطفت سيارتنا إلى شارع فانسان أوريول.

- سيارة بابا! سيارة!

كان تيو جاثياً على ركبتيه فوق المقعد الخلفي لسيارة الأجرة، ويبدو أسعد الأطفال على الإطلاق. كان يضع كفّيه على زجاج النافذة، ويتسلى بمنظر حركة السير الباريسية. أما أنا، فدفنت وجهي في شعره الذي تنبعث منه رائحة القمح. كنت أمتح من حماسه بعض التفاؤل الذي كنت في حاجة إليه.

كنا ذاهبين إلى المطار. فبعد أن نجحت أن أضمّ مارك إلى صفي وأن أقنعه برأيي، قمت بحجز تذكرة في الطائرة المتوجِّهة إلى نيويورك، ثم وضعت بعض الملابس لي ولتيو في حقيبة على عجل، وحجزتُ غرفة في أحد الفنادق.

أخذ الهاتف يرجُّ في جيبي، فأخرجته في الوقت المناسب كي أردّ. ظهر على الشاشة رقم ابن خالي الدكتور المتخصِّص في أمراض القلب بمستشفى نيكر.

- تحياتي يا ألكسندر، شكراً على إعادة الاتصال.

- تحياتي يا ابن عمتي، هل الأمور على ما يرام؟

- معقدة هذه الأيام. وأنت؟ كيف حال صونيا؟ وكيف حال الأطفال؟

- يكبرون بسرعة. هل هو صوت تيو الذي أسمعه؟

- نعم، نحن في سيارة أجرة.

- قبّله من قِبلي. اسمع، استطعتُ أن أتوصَّل إلى معرفة حالة صديقتك كلوتيلد بلونديل.

- وكيف هي الآن؟

- أنا آسف، فحالتها خطيرة للغاية. كسور عديدة في الأضلاع، وفي الساق، وفي الحوض، والتواء في المفصل، وارتجاج حادّ في المخّ. لمّا اتصلت بزميلي في مستشفى كوشان، كانت لا تزال في غرفة العمليات.

- هل هي معرَّضة للموت؟

- يصعب الجزم الآن. تعرف، في مثل هذه الحالة المتعدّدة الإصابات، تكون الأخطار متعدّدة هي الأخرى.

- هل تقصد خطر الإصابة بورم دموي في المخ؟

- نعم، وفي كلّ ما له علاقة بالجهاز التنفسي: استرواح صدري، صدر مُدمى. بالإضافة إلى احتمال أن تكون قد تعرَّضت لإصابات في العمود الفقري.

تلقيت مكالمة أخرى جعلت حديثنا متقطّعاً. إنه رقم يبتدئ بـ 02.

- عذراً يا أليكس، لديّ اتصال آخر. مكالمة مهمة. نبقى على اتصال. هل يمكن أن تُطلعَني على التطوّرات في ما بعد؟

- أكيد يا ابن عمتي.

شكرته، واستقبلتُ المكالمة الجديدة. إنها المكالمة التي كنتُ

أنتظرها، مكالمة مارلين دولاتور، الصحافية العاملة في جريدة جنوب-غرب التي قامت بتحقيق حول قضية كارلايل. خلال الليل، وبعد أن قرأت مقالها، كنت قد عثرت على أثرها في الإنترنت. كانت قد غيَّرت عملها، وأصبحت تعمل في جريدة غرب فرنسا. كنت قد بعثت لها بريداً إلكترونياً شرحتُ فيه أنني بصدد إعداد مختارات من أشهر الجرائم في القرن 21، وأني أرغب في أن أعرف انطباعاتها وذكرياتها حول القضية.

- شكراً على المكالمة.

- لقد سبق أن التقينا قبل بضع سنوات. كنتُ قد أجريتُ حواراً معك على هامش معرض «مسافرون مدهشون» سنة 2011.

- طبعاً، ما زلت أذكر تلك المقابلة، قلت كاذباً.

- هل توقَّفتَ عن كتابة الروايات لتكتب دراسات حول أحداث واقعية؟

- في بعض الأحداث الواقعية يتجاوز الرعب الخيال.

- أتّفق معك.

ثبّتُّ الهاتف بين أذني وكتفي، كي أتمكّن من إحكام القبض بكلتا يدَيَّ على ابني الذي كان قد وقف ليتفرج على القطار وهو يدخل محطة المترو.

- هل تتذكرين قضية كارلايل؟ سألت مارلين.

- أكيد. في الحقيقة أحسستُ بالقرب من كلير حينذاك. كانت لدينا عدة نقاط مشتركة: أب مجهول، كلتانا تربينا في أحضان أم غير متزوجة، كلتانا ننتمي إلى وسط شعبي وننظر إلى المدرسة على أنها وسيلة للترقي الاجتماعي... كانت كأنها أختي الأميركية الصغرى.

- هل أنتِ متأكدة من أن كلير لم تكن تعرف أباها؟

- أعتقد أن أمها نفسها لم تكن تعرف ممّن حبلت.

- هل أنت متأكدة من ذلك؟

سمعت صوتَ تنهدها عبر الهاتف.

- تقريباً. على كلّ حال، ذلك ما استخلصته من كلام جويس كارلايل حين استجوبتها حول الموضوع. حدث ذلك في فرنسا أسبوعين بعد اختطاف كلير، في الوقت الذي كان التحري في القضية لا يعرف أيّ تقدُّم. لم أكتب في المقال أن جويس، قبل ولادة ابنتها، عاشت سنوات من تعاطي المخدرات بكلّ أنواعها: كراك، هيروين، كريستال. وعلى مدى سنتين أو ثلاث، في نهاية الثمانينيات، مارست البغاء، ولجأت إلى تأجير جسدها للرجال مقابل 10 دولارات كي تحصل على ما تحتاج من مخدرات.

شعرت بالغثيان حين سمعت ذلك. بعد تردّد قصير، قررت أن أصمد أمام الرغبة في إخبار محدّثتي بأني متوجّه إلى نيويورك. فمارلين دولاتور صحافية محترفة، وإذا ما شعرت أني مهتم بالقضية إلى هذا الحدّ، فستدرك أنها أمام فرصة سبق صحافي محتمل. بعد أن جاهدت أن أبعد الشرطة عن مشاكلي، لن أرمي نفسي في فم الذئب بالبوح لصحافية بما أنا عازم عليه.

حاولت إذاً أن أوحي لها بعدم الاهتمام، فقلت:

- هل كان لك اتصالات أخرى بجويس منذ ذلك الحين؟

صمتت مارلين صمتاً مندهشاً قبل أن تقول:

- ما كنت لأستطيع ذلك، فقد ماتت جويس بعد أسبوعين من لقائنا.

ذُهلت.

- لا علمَ لي بذلك.

- أنا نفسي لم أعلم بالخبر إلّا في صيف 2010، حين كنت

أقضي عطلتي في نيويورك. لمّا زرت حيّ هارلم، تملّكتني الرغبة في أن ألقي نظرة على المنزل الذي عاشت فيه كلير طفولتها. لم أنسَ عنوانها: 6 شارع بيلبري، أي شارع التوت البرّي... ولم أعلم بأن جويس ماتت نهاية شهر يونيو 2005، أي أربعة أسابيع فقط بعد اختطاف ابنتها، إلّا حين وصلت إلى عين المكان، وتحدّثتُ إلى أصحاب الدكاكين في الحي.

إذا صحّت هذه المعلومة، فستغيِّر كثيراً من الأمور.

- ما هو سبب موتها؟

- جرعة هيروين زائدة. كانت قد انقطعت عن تناول المخدرات طوال خمسة عشر عاماً، لكن مأساة ابنتها جعلتها تعود إلى التعاطي. بعد فطام طويل كهذا، فإن أيّ جرعة وإن كانت صغيرة تستطيع أن تقتلك.

كانت سيارة الأجرة قد عبرت جسر بيرسي ومضت بمحاذاة الأرصفة. كان المنظر في الجهة الأخرى من نهر السين يمرّ أمام عيوننا: مسبح جوزيفين بيكر العائم فوق النهر، أبراج خزانة فرنسوا متيران، مراكب النهر الكسلى، وأقواس قنطرة توليباك المنخفضة.

- هل لديك معلومات أخرى عن القضية؟

- لا، لا شيء يخطر على بالي الآن، ولكن يمكن أن أحاول العثور على ما دوّنته آنذاك.

- سيكون ذلك...

قاطعتني:

- مهلاً، لقد تذكرت شيئاً. كانت هناك شائعة تُتداول في أثناء التحريات في القضية: قيل إن جويس أجّرت محقّقاً خاصّاً كي يقوم بتحرّياته الخاصة.

- ومن أين علمت بذلك؟

- كنت على علاقة غرامية بشخص يُدعى ريشار أنجلي حينذاك، شرطي شاب من شعبة مكافحة الجرائم في بوردو. إنه وغد، ولكنه كان طموحاً إلى أقصى حدّ، وكان يمدّني بالمعلومات أحياناً.

ملتُ ما استطعت كي أخرج قلماً من جيبي وأسجّل اسم الشرطي على الورقة الوحيدة التي وقعَت عليها يدي: قصة ابني المفضلة التي كنت قد حملتها معي كي يتسلى في أثناء السفر: **تشوبي وحماقاته**.

- وماذا كان عمله؟

- كان مكلَّفاً بالقوانين الإجرائية ضمن المجموعة التي كانت تحقق في قضية كلير كارلايل. كان زملاؤه والقاضي المكلّف بالقضية، بحسب ما رواه لي، غاضبين من أن يحقّق في القضية شخص من الخارج.

- ومَن كان ذلك الشخص؟ أهو محقّق أميركي؟

- لا أعرف. تحرّيت في الأمر قليلاً حينذاك، لكنني لم أتوصّل إلى أيّ شيء ملموس.

صمت، ثم استأنفت:

- إذا توصّلت إلى أيّ شيء جديد يا رافائيل، فهل تُطلعني عليه؟

- طبعاً.

حزرت من خلال نبرة صوتها أنّ دقائق قليلة كانت كافية كي تُصاب مارلين دولاتور بعدوى فيروس «كلير كارلايل» من جديد.

تجاوزت سيارة الأجرة الآن بوابة بيرسي، ومضت في الطريق السريع. هدأ ابني. كان يضمّ إلى صدره فيفي، كلبه الوبري المخلص.

- في أثناء التحقيق، استأنفت الصحافية، كنت أشعر دائماً أنّ شيئاً ما يفلت منّا. لقد وقفت الشرطة، والصحافيون، والقضاة عاجزين أمام هذه القضية. فحتى بعد أن عُثر على أثر الحمض النووي في منزل هاينز كيفر، ظلت القضية تبدو وكأنها غير محلولة تماماً.

إنها المرة الأولى التي أسمع فيها شخصاً يعارض الرواية الرسمية حول القضية.

- ماذا تقصدين بالضبط؟ كيفر كان مطابقاً للصورة التي رُسِمت له بالاستناد إلى أقوال الشاهدة.

ذكَّرتني قائلة:

- نعم، ولكنها صورة تعتمد على شهادة شخص واحد فقط.

- شهادة أوليفيا منديلسون.

- طفلة لم تستطِعْ الشرطة استجوابها إلّا ساعات قليلة، لأنّ والديها أعاداها إلى نيويورك في الغد.

- لم أفهم ما تقصدينه. هل تشكّكين في استنتاجات الـ. . .

- لا، لا، قاطعتني قائلة، ليست لديّ أيّ نظرية بديلة لما توصّلت إليه الشرطة. ليست لديّ دلائل، ولكنني استغربت دائماً أن لا يكون هناك إلّا شاهد واحد على الاختطاف، وأن يتمّ العثور على أثر للحمض النووي، ولكن ليس على الجثة. ألا يُثير لديك هذا شيئاً من الشك؟

حان دوري لكي أتنهَّد.

- أنتم معشر الصحافيين، تَرون الشرّ في كلّ مكان.

- وأنتم معشر الكتّاب، لديكم مشكلة مع الواقع.

9

شارع التوت البرّي

يطلق الناس اسم الحقيقة على حقيقتهم الخاصة دائماً، أي، على ذلك الشكل الذي يرون به الأشياء.

بروتاغوراس

1.

ما أن تجاوزت سيارة الأجرة قنطرة بروكلين، حتى استعدتُ أجواء مانهاتن المألوفة، المليئة بالحركة والتغير. لم تطأها قدماي منذ ولادة تيو، وإني لأدرك الآن كم اشتقتُ إلى سمائها الحديدية، ونبضها المغناطيسي.

إنني أعرف نيويورك مذ كنت في الثامنة عشر من عمري. في الصيف الذي تلا اجتيازي لامتحانات البكالوريا، وبدافع من إحدى نزوات قلبي، ذهبت صحبة فتاة دنماركية إلى مانهاتن. وبعد ثلاثة أسابيع من وصولنا، قررت كيرستين -التي حلَّت ضيفة مساعدة على أسرة في أبر إيست سايد- أن تعلن أنّ علاقتنا انتهت. لم أكن أتوقع ذلك فتألّمت كثيراً للفراق. لكن افتتاني بالمدينة وما اكتشفته فيها

سرعان ما واساني وخفَّف عني الحزن الذي تركه ذلك الحب الأول في قلبي.

مكثت في مانهاتن سنة كاملة. خلال الأسابيع الأولى، نجحت في العثور على عمل في مطعم في شارع ماديسون، ثم توالت الأعمال الصغيرة التي زاولتها: بائع مثلجات، نادل في مطعم فرنسي، عامل في محل أفلام، كُتبي في محل بإيست سايد. كانت تلك الفترة واحدة من أغنى فترات حياتي. تعرفت خلالها على أشخاص أثّروا في حياتي إلى الأبد، وحضرت مناسبات حاسمة كيَّفت إلى حدٍّ ما بقية حياتي. منذ ذلك الحين، وإلى أن وُلد تيو، تردَّدت على مانهاتن مرتين في السنة على الأقل، بالحماس نفسه.

استغللت الواي فاي المتوفر بالطائرة كي أتبادل الرسائل الإلكترونية مع موظفي الاستقبال في نادي البريدج، وهو أحد فنادق حي ترايبيكا الذي اعتدتُ أن أنزل به منذ عشر سنوات، والذي لا يضمّ، رغم اسمه، أيّ جمعية للاعبي البريدج. كانوا قد مدحوا لي خدمة بعض المربيات الكفؤات، فاستأجرت إحداهن كي ترعى ابني في أثناء غيابي الذي سيفرضه انشغالي بالتحقيق، كما عمدتُ إلى استئجار عربة أطفال، وجهّزت قائمة بالمشتريات التي اقترحوا عليّ أن يقوموا بها عوضاً عني: علبتا حفّاضات حجم 12-15 كلغ، علبة مناديل مبللة، قطن، كريم منظف، وبرطمانات طعام جاهز للأطفال.

«واضح أنّ ابنك يعبّر عن نفسه» قالت المضيفة حين كنّا ننزل من الطائرة. تلميح ذكي! فقد كان تيو لا يُحتمل طوال الرحلة، ما جعلني أشعر بالخجل. دفعه التعب والتهيج إلى أن لا يستقر في مكان، مزعجاً المضيفات والمسافرين في مقصورة رجال الأعمال. ولم ينَم إلّا في سيارة الأجرة التي أخذتنا إلى الفندق.

لما وصلنا، لم أفكّ أمتعتي، بل غيّرتُ حفاضة ابني وبقيت إلى جنبه إلى أن نام، ثم تركته في رعاية مارييك، المربية الألمانية التي لو رأتها جدتي لقالت: «إنها من الجمال بحيث لا يمكن أن تكون مُستقيمة».

الخامسة مساء. المدينة كخلية نحل. حركة دائبة وضوضاء. والصراع العسير من أجل الحصول على سيارة أجرة. في هذا الوقت من النهار، يكون التنقل بالمترو أسرع، فمن محطة شارع شامبرس، ركبت المترو «أ» المتوجّه نحو الشمال، وبعد أقل من نصف ساعة وصلت إلى محطة الشارع 125.

لم أكن أعرف حي هارلم جيداً. ففي التسعينيات، حين أقمت بنيويورك أول مرة، كان الحي مخرّباً وخطيراً بحيث لا يمكن لأيّ شخص عاقل أن يفكِّر في أن يقضي فيه عطلته. وكما جميع السياح، كنت قد زرت الحي لأتذوق معنى الخوف، وأحضر قدّاساً من تلك التي يشتهر بها حي هارلم[1]، وألتقط صورة لأضواء النيّون على واجهة مسرح أبولو، ولا شيء غير ذلك.

سرت بضع خطوات على الرصيف يحدوني فضول لمعرفة التطور الذي شهده الحي. كنت قد قرأت في الطائرة مقالاً يشرح كيف أنّ جماعة من المقاولين عمدت إلى تغيير اسم الحي ليصبح «SOHA» مختزلين بذلك South Harlem أي جنوب هارلم، وراجين أن يمنح هذا الاسم المختصر الحيّ رونقاً جديداً وحديثاً. الواقع أنّ المكان لم يعُد ذلك الحي المشهور بجرائمه، بل كادَ

(1) Gospel mass: هي قداديس تُقرأ فيها الأناجيل مصحوبة بالرقص والغناء - المترجم.

يصبح شبيهاً بتلك الصورة التي رسمها له الدليل السياحي.

في الشارع 125 -الذي يحمل اسم شارع مارتن لوثر كينغ أيضا- عدتُ إلى تلك الأجواء التي أحبّها في مانهاتن. الكهرباء في كلّ مكان، صفّارات الإنذار، الألوان، الروائح، اللهجات المختلفة، عربات الباعة المتجولين... باختصار، إنها أجواء فريدة ومثيرة تُشعرك بأنك في حضرة فوضى عارمة، لكن مُنَظمة.

وما أن يبتعد المرء عن هذا الشارع، حتى يصبح الحي أكثر هدوءاً. احتجت إلى بضع دقائق كي أتذكّر معالم الحي وأهتدي إلى شارع بيلبري الشهير، فهو في الحقيقة زقاق محصور بين الشارع 131 و132، متعامد مع شارع مالكوم إكس.

كانت أشعة الشمس على الرصيف جميلة في نهاية بعد الظهر الصيفية هذه، تنعكس على زجاج النوافذ، وتتراقص بين أوراق الأشجار. على جانبَي الشارع كان هناك منازل من الآجر الأحمر ذات سقوف خشبية منحوتة وملونة، وأروقة ذات درابزينات حديدية، وسلالم تؤدي إلى حدائق صغيرة. منظر ساحر يدفعك إلى أن تقول مع نفسك: «لا أشعر أني في نيويورك».

بينما كنت أسير نحو طفولة كلير، في فترة بعد الظهر تلك، لم أعُد أشعر أني في هارلم، بل شعرت أني في الجنوب العميق، في جورجيا أو كارولاينا الجنوبية، في نواحي سافانا أو شارلستون.

على خطى فتاة بروكلين.

2.

موزيل. الطريق السيار أ 4.

المخرج 44: فالسبورغ/ ساربورغ.

حين توقف مارك كاراديك عند قمرة الأداء الوحيدة، ألقى نظرة على ساعة يده السبيدماستر قبل أن يفرك عينيه. كان حلقه جافاً، وحدقتاه واسعتين. كان قد غادر باريس على الساعة الحادية عشر صباحاً، فقطع أكثر من أربعمئة كيلومتر في أربع ساعات ونصف، ولم يتوقف إلّا مرة واحدة في محطة للوقود في فردان كي يملأ حاوية السيارة عن آخرها.

أدّى للعاملة ما عليه أن يؤديه، ثم سار في الطريق المؤدية إلى فالسبورغ.

فالسبورغ مدينة متاخمة لحديقة فُوج الطبيعية، وهي آخر مدن اللورين قبل الدخول إلى حدود الألزاس. ركن مارك سيارته الرينج روفر في «ساحة الأسلحة» التي كانت أشعة الشمس تغمرها. أشعل سيجارة ووضع يده أمام جبينه كي يتّقي الأشعة. كانت الثكنة السابقة رمادية اللون، والتمثال النحاسي وهو عبارة عن نصب تذكاري لأحد جنرالات الإمبراطورية، والأحجام الخارقة للعادة، كلّها تُذكر الزائر بإرث المدينة الحربي، وبفترة ليست بالبعيدة، فترة الاستعراضات العسكرية التي كان يخضع لها شبان لا تتجاوز أعمارهم العشرين عاماً قبل أن يذهبوا إلى الحرب ويُقتلوا. تذكّرَ جده الذي قُتل في ديسمبر 1915، في مان دو ماسيج بشامبان. لكن الساحة اليوم هادئة، لا ضوضاء ولا أصوات أحذية عسكرية ولا أناشيد حربية فيها، بل أشخاص باسمون، يجلسون في شرفات المقاهي كي يحتسوا قهوة الكابوتشينو تحت أشجار الكستناء.

كان مارك قد استغلّ الطريق الطويل بين باريس وفالسبورغ كي يجمع المعلومات. لم يحتَجْ إلّا إلى اتصالات هاتفية قليلة كي يتوصل إلى مكان فرانك ميزولييه، الدركي الذي كان أول من أخبَرَ عن الحريق، وأوّل من وصل إلى منزل هاينز كيفر الذي شبّت فيه النيران. إنه يشغل اليوم منصب رئيس فرقة الدرك بفالسبورغ. كان مارك قد اتصل بسكرتاريا الفرقة ونجح في الحصول على موعد بسهولة. كانت السكرتيرة قد أخبرته أنّ الدرك يتقاسم مقرّه مع مبنى البلدية. سأل عاملاً يقوم بتقليم الأشجار عن عنوان المقرّ فدلّه عليه، ثم عبر الساحة المبلطة أرضيتها بأحجار رمادية وأخرى من الغرانيت الوردي.

تنشق الهواء ملء رئتيه. منذ زمن طويل لم يغادر مارك باريس، لذلك كان مرتاحاً أن يقوده تحقيقه إلى مدينة بعيدة عن العاصمة. استسلم لهدوء المكان لحظة، مانحاً نفسه سفراً عبر الزمن إلى الجمهورية الثالثة: علم الجمهورية ثلاثي اللون وهو يخفق على واجهة مبنى البلدية، أجراس الكنيسة وهي تدق، الضوضاء المنبعثة من ساحة إحدى المدارس.

كانت المنازل المحيطة بالساحة تعزّز الشعور بتلك «القوة الهادئة» التي تخيم على المدينة: الواجهات من الحجر الرملي، العوارض التي علاها الزنجار، السقوف العالية مزدوجة المنزلق المغطاة بآجر من الطين.

دخل كاراديك إلى مقر بلدية المدينة الذي كان بناية عسكرية سابقاً، وأصبح يضم اليوم، إلى جانب البلدية، متحفاً تاريخياً ومكتباً للبريد. في قلب المبنى، أحس ببرودة منعشة. تحت القوس العالي، بدا الطابق الأرضي بتماثيله الرخامية وأخشابه الداكنة شبيهاً بكنيسة.

عند الاستعلام، قيل له إنّ المكاتب التي يبحث عنها موجودة في الطابق الأخير. صعد أدراج السلم، ثم وصل إلى ممرّ أمامه باب زجاجي.

بدا المكان خالياً عدا عن امرأة شابة جالسة وراء منضدة استقبال صغيرة.

- هل أستطيع أن أساعدك يا سيدي؟

- اسمي مارك كاراديك، لديّ موعد مع فرانك ميزولييه.

- اسمي سولفيغ مارشال، قدّمت نفسها وهي تداعب خصلة من شعرها الأشقر. أنا التي أجبتك في الهاتف.

- تشرَّفتُ بمعرفتك.

رفعت سماعة الهاتف.

- سأخبره بمجيئك.

فكَّ مارك زراً من أزرار قميصه، فقد كانت الحرارة في هذا الطابق جهنمية. كانت كلّ الغرف هاهنا منحنية السقف، والحيطان مغشاة بالخشب الأبيض، ما يجعل المرء يشعر بأنه يختنق تحت أشعة الشمس الحارقة.

- المُقدّم سيستقبلك بعد دقيقتين. هل تريد قليلاً من الماء؟

رحّب بعرضها. صبَّت له الدركية كأساً، وقدَّمت له حلوى ألمانية طريّة أخذَ يلتهمها بشراهة.

- أنت شرطي، أليس كذلك؟

- أتقولين ذلك لأنني آكل كما تأكل الخنازير؟

انفجرَت سولفيغ ضاحكة. انتظرت أن ينتهي من أكل الحلوى، ثم قادته إلى مكتب رئيسها.

3.

نيويورك.

كان الرقم 6 من شارع بيلبري -حيث قضت كلير طفولتها وحيث ماتت أمها- عبارة عن منزل ذي طلاء أرجواني وباب أبيض ذي مصراعين.

وبينما كنت منشغلاً بتأمّل البناية منذ عدة دقائق إذا بامرأة تنبثق من تحت الرواق. شعر أحمر، وجه شاحب تخضّبه بقع النمش. حامل في آخر شهورها.

- هل أنتَ مبعوث الوكالة العقارية؟ سألتني وهي تنظر إليّ نظرة نفور.

- لا، يا سيدتي. اسمي رافائيل بارتليمي.

- اسمي إيثيل فاراداي، قالت وهي تمدّ لي يدها على الطريقة الأوروبية. أنتَ تتكلم بلكنة فرنسية، قالت ملاحظة. هل قدمتَ من باريس؟

- نعم، جئت بالطائرة هذا الصباح.

- أنا إنجليزية، لكن والديَّ يسكنان في فرنسا منذ بضع سنوات.

- حقاً؟

- نعم، في لوبرون، في قرية روسيون.

تبادلنا بعض المعلومات العابرة حول فرنسا وحول حملها. قالت إن الحمل لا يُطاق في مثل هذه الحرارة، وأن فكرة إنجاب طفل ثالث في سنّ الرابعة والأربعين ليست جيدة، «والحال، أني لم أعُد أستطيع أن أبقى واقفة، هل يزعجكَ أن أجلس؟ لقد حضرت شاياً مثلجاً قبل قليل، هل ترغب في كأس؟».

كان واضحاً أنّ إيثيل فاراداي تعاني من الملل، وأنها مستعدة أن تقبل بأيّ رفقة. جلسنا تحت الرواق، أمام كأسين من الشاي، فاعترفتُ لها، جزئياً على الأقل، بهدف زيارتي:

- أنا كاتب، وأقوم ببحثٍ حول فتاة قضَت طفولتها في منزلكِ هذا.

- حقاً؟ قالت مندهشة. ومتى كان ذلك؟

- في تسعينيات القرن العشرين، وبداية القرن الواحد والعشرين.

استغربَت.

- هل أنت متأكِّد أنها عاشت هنا؟

- نعم، أعتقد ذلك. ألم يكن هذا المنزل في ملكية جويس كارلايل؟

أكّدت إيثيل ذلك بإشارة من رأسها.

- أنا وزوجي اشتريناه من أختيها.

- أختاها؟

أشارت إيثيل بيدها نحو الشرق.

- اسمهما أنجيلا وغلادس كارلايل. تسكنان في هذا الحي نفسه، في الرقم 299. أكاد لا أعرف عنهما شيئاً. شخصياً، لا أكنّ لهما أيّ عداء، ولكن يبدو أنهما ليستا طيبتين.

- ومتى اشتريتما المنزل؟

عضَّت على شفتها السفلى وهي تفكر:

- سنة 2007، لمّا عدنا من سان فرانسيسكو. كنت آنذاك حاملاً بطفلي الأول.

- في ذلك التاريخ، هل كنتِ تعلمين أنّ شخصاً مات في هذا المنزل بجرعة هيروين زائدة؟

هزّت إيثيل كتفيها.

- علمتُ ذلك فيما بعد، لكن ذلك لم يؤثر عليّ في شيء، فأنا لا أؤمن بتلك الخرافات حول المنازل الملعونة، أو التي تسكنها الأشباح. لا بد أن يموت الإنسان في مكان ما، أليس كذلك؟

شربت جرعة من شايها، ثم أشارت إلى المنازل من حولها.

- أليست هذه هارلم، أليست هذه المنازل الجميلة محطّ أطماع كلّ أسرة محترمة وحديثة؟ خلال سنوات الثمانينيات، وقبل أن يتمّ تجديدها، كانت هذه المنازل مهملة، فاستولى عليها باعة المخدرات وحولوها إلى أوكار لتعاطي المخدرات. أتحدّاك أن تعثر على منزل واحد هنا لم يمُت فيه شخص موتاً عنيفاً.

- هل كنتِ على علمٍ بأنّ لجويس كارلايل ابنة؟

- لا، لم أكُن أعلم.

- لا أصدق ذلك.

استغربتْ.

- ولماذا قد أكذب عليك؟

- ألم تسمعي قط عن تلك المراهقة ابنة هذا الحي التي اختطفت سنة 2005 غرب فرنسا؟

أشارت برأسها نافية.

- سنة 2005 كنا نعيش في كاليفورنيا، في سيليكون فالي.

وسعياً إلى قليل من البرودة والانتعاش، وضعت الكأس على جبينها قبل أن تواصل حديثها:

- أريد أن أتأكد ممّا قلتَه: أقلتَ إنّ ابنة مالكة هذا المنزل سابقاً اختطفت؟

- نعم، اختطَفَها وحش اسمه هاينز كيفر.

- وما اسم الفتاة؟

- كلير، كلير كارلايل.

وفي اللحظة التي لم أعُد أتوقع أن تفيدني إيثيل بشيء، انقبض وجهها وامتقع لونها أكثر من ذي قبل، فصار أبيض كالطباشير، وتسمّرت في مكانها.

- أنا. . .

شرعت تتكلم، ثم سكتت فجأة. واضطربت لحظة قبل أن تتيه نظراتها في الفراغ، وكأنها عادت إلى ذكريات بعيدة.

- الآن تذكرت، لقد حدث شيء ما بالفعل، استأنفت بعد لحظات. تلقينا مكالمة غريبة يوم احتفالنا بالانتقال إلى منزلنا الجديد. كان ذلك يوم. . . 25 أكتوبر 2007. كنا قد اخترنا ذلك التاريخ لدعوة أصدقائنا إلى الاحتفال معنا لأنه يصادف يوم عيد ميلاد زوجي الثلاثين.

ولكي تُجمّع أفكارها، توقفت عن الكلام لحظة حسبتُها دهراً، فقلت لكي أساعدها على أن تستأنف الكلام:

- تلقيت في ذلك اليوم مكالمة، وماذا بعد؟

- كانت الساعة تشير إلى الثامنة مساء تقريباً. كانت الحفلة على أشدها. موسيقى وضحك. كنت في المطبخ منشغلة بوضع الشموع على الحلوى، فإذا بالهاتف المنزلي المعلق على الحائط يرن. حملته، وقبل أن أردّ، سمعت صوتاً يصيح: «ماما، هذه أنا، كلير! لقد هربت يا ماما! هربت!».

أنا مَن تسمّر في مكانه هذه المرة، وأحسستُ برعدة تسري في كلّ جسدي. الفرق في التوقيت بين فرنسا وشرق الولايات المتحدة ست ساعات. إذا كانت إيثيل قد تلقت المكالمة على الساعة الثامنة مساء، فهذا يعني أنّ كلير اتّصلت بها على الساعة الثانية صباحاً، أي عدة ساعات قبل أن يشبّ الحريق. لقد حصل ما حزرته أنا ومارك فعلاً. هربت كلير من براثن هاينز كيفر. ولكن، وبعكس ما اعتقدنا، لم يكن هروبها صباح يوم الحريق، بل في اليوم الذي سبقه. وهذا يغيِّر كلّ شيء...

انطلقَ لسان إيثيل، فواصلت:

- سألتُها مَن تكون، وأعتقد أنها لمّا سمعت صوتي أدركَت أني لستُ أمها.

حيّرني أمر بخصوص رقم الهاتف فسألتها:

- وكيف استطاعت كلير أن تتّصل بك؟ فأنت لم تحتفظي برقم هاتف أمها لما اشتريتِ المنزل، أليس كذلك؟

- بل فعلتُ. لم يتمّ قطع الخط، بل ظلَّ العمل به معلّقاً فقط، ولمّا اتّصلنا بمصلحة البريد اقترحوا علينا أن نحتفظ بالرقم نفسه. كان ذلك شائعاً آنذاك، لا سيما وأن الاحتفاظ بالخط نفسه أرخص من الحصول على خطّ جديد. وبما أننا كنّا نعاني من ضائقة مالية...

- ألم تبلّغي الشرطة بعد تلقي المكالمة؟

جحظت عيناها، وقالت متبرّمة:

- ماذا تقول؟ ولماذا أبلغهم؟ لم أكُن أعرف شيئاً عن تلك القضية، ولم أكن أعرف مَن الفتاة التي اتصلت، فعمَّ أبلغ؟

- وبماذا ردَدْتِ عليها؟

- قلتُ لها الحقيقة، قلت لها إن جويس كارلايل ماتت.

.4

تقدّم فرانك ميزوليه، وهو رجل طويل القامة ذو صوت أجش ووجه دهني، نحو مارك وشدّ على يده.

- شكراً على استقبالك لي. اسمي مارك كاراديك: أنا...

- أعرف مَن أنت يا نقيب! قاطعه الدركي وهو يشير إليه بالجلوس على أحد المقاعد. أعرف أنك من أمهر رجال شعبة مكافحة السطو: قضيتَ على عصابة السلفادوريين الشهيرة، وعلى عصابة ضاحية باريس الجنوبية، وعلى عصابة «فريق الأحلام» المتخصّصة في السطو على الشاحنات المصفّحة الناقلة لأموال البنوك. شهرتك سبقتكَ إلى هنا يا نقيب.

- ليس إلى هذا الحدّ.

- على كلّ حال، لقد ملأت حياتنا بالأحلام، خاصة في مثل هذه المدينة الصغيرة التي لا تحدث فيها أشياء مثيرة.

أخرج ميزوليه منديلاً من جيبه ومسحَ جبينه.

- بل إننا لا نتوفّر حتى على مكيّف للهواء!

طلب من سولفيغ أن تحمل إليهما قنينتي ماء، ونظر إلى مارك وهو يبتسم ابتسامة مسالمة.

- طيب، لماذا شرفتنا بزيارتك؟

لأنه بحضرة دركي، فضّل مارك أن يتفادى الأكاذيب.

- أنبهك منذ البداية، وتجنباً لأيّ سوء فهم، بأني الآن متقاعد، وأشتغل لحسابي الخاص.

هزّ ميزولييه كتفيه.

- إذا كان بإمكاني أن أساعدك، فلن أتردّد.

- جئت من أجل قضية كلير كارلايل.

- لا أذكر عنها شيئاً، أكدّ الدركي وهو يجذب قميصه إلى أسفل كي يخفي بطنه المنتفخة.

استغرب مارك، وقال بصوتٍ أكثر حزماً:

- كلير كارلايل، كرّر قائلاً. إنها إحدى ضحايا هاينز كيفر، تلك الصغيرة التي لم تعثر الشرطة على جثتها أبداً.

ردّ الدركي وقد اغتاظ قليلاً:

- نعم، الآن فهمت، أنت تعمل لحساب الشاب بواسو، أليس كذلك؟

- إطلاقاً. مَن هو بواسو؟

- لا تهتم بالأمر، قال متلافياً الموضوع في الوقت الذي كانت تغلق سولفيغ الباب خلفها بعد أن وضعت القنينتين.

فتح ميزولييه قنينته وأخذ يشرب منها مباشرة.

- ماذا تعرف عن كيفر بالضبط؟ سأله وهو يمسح فمه بظاهر يده. أنت تعرف أني لم أكن مكلفاً بالقضية، أليس كذلك؟

- ولكنك كنتَ أوّل مَن وصل إلى مكان الحريق، وأريد أن أعرف في أية ظروف حصل ذلك.

ضحك الدركي ضحكة عصبية.

- كنت أودّ أن أقول إنّ ذلك حصل بفضل حاسّتي السادسة، إلّا أنّ الحقيقة أنه لم يحصل إلّا عن طريق الصدفة. لو أنك أخبرتني مسبقاً بسبب زيارتك، لكنت بحثت عن التقرير الذي كتبته آنذاك. يمكنني أن أبعثه لك بواسطة الفاكس إذا شئت.

- شكراً لك. في انتظار ذلك، هلّا ذكرتني بأهمّ ما جاء في ذلك التقرير.

حكّ ميزولييه أذنه، ونهض من على كرسيه بعد مجهود كبير، ثم وقف أمام خريطة حائطية معلّقة خلف مكتبه.

- حسناً، هل تعرف المنطقة قليلاً؟

واستأنف من دون أن ينتظر الجواب:

- فالسبورك تقع على الحدود بين اللورين والألزاس.

قال ذلك وهو يتناول مسطرة من على مكتبه، وأشار إلى منطقة على خريطة من مثل تلك التي كانت تستعمل في المدارس في الماضي.

- أنا أسكن في الألزاس، لكن، حين ارتُكِبت الجريمة، كنت أعمل في مقرّ الدرك بسارسبورغ، في موزيل، فكان عليّ أن أقطع أكثر من ثلاثين كيلومتراً كلّ صباح.

- هذا ليس أسوأ من التنقّل بواسطة وسائل النقل العمومية في باريس، لاحظ مارك.

تجاهل ميزولييه تعليقه.

- في ذلك الصباح، وأنا ذاهب إلى عملي، رأيت دخاناً أسود ينبعث من الغابة، فأقلقني الأمر واتصلت بالإسعافات على الفور. هذا كلّ ما في الأمر.

- كم كانت الساعة حينذاك؟

- حوالي الثامنة والنصف صباحاً.

اقترب مارك من الخريطة.

- أين كان يقع منزل كيفر؟

- هنا، قال الدركي وهو يشير إلى منطقة وسط الغابة.

- إذاً، فقد كنت متوجهاً إلى عملك ككلّ صباح. . .

قال مارك وهو يُخرج قلماً من جيبه، ودون أن ينزع غطاءه، استعمله ليتتبع الطريق التي سلكها الدركي.

- . . . وحين وصلت إلى هذا المكان، في حوالي الثامنة والنصف، رأيت دخاناً منبعثاً. . . من هنا.

- نعم يا نقيب.

قال مارك محافظاً على لباقته:

- لقد سبق لي أن مررتُ بهذا الممرّ الجبلي في سافيرن، والواقع أني لا أرى كيف يمكننا أن نرى أي مكان في الغابة من هذا الممر.

- صحيح، ردّ الدركي. لم أكُن أسير على الطريق الرئيس، كما أشرتُ في تقريري.

ورفع مسطرته من جديد نحو الخريطة.

- كنت أسير في الطريق الثانوي د 133، في هذا المكان.

- دعني أسألك أيها العقيد مع كامل احترامي: ماذا كنت تفعل في طريق ثانوي غابوي في تلك الساعة المبكرة من الصباح؟

لم يتخلَّ ميزولييه عن ابتسامته.

- هل تحبّ الصيد يا نقيب؟ أمّا أنا فأعشقه، إنه هوايتي المفضلة.

- وماذا نستطيع أن نصطاد في هذه المنطقة؟

- اليحمور، والخنزير البري، والأيل، والأرانب. وإذا كنت محظوظاً، يمكنك أن تصادف الحجل والتدرج. باختصار، في ذلك التاريخ -صباح جمعة من شهر أكتوبر- كان موسم الصيد قد افتُتح منذ بضعة أسابيع، إلّا أنّ عطل نهاية الأسابيع السابقة كانت ممطرة.

عاد إلى الجلوس، ثم استأنف قائلاً:

- لم يتوقف المطر عن الهطول وكانت قد أعلنت مصالح الأرصاد الجوية أخيراً أنها تتوقع أن الطقس سيكون صحواً صافياً خلال اليومين القادمين، وبما أنني أنتمي إلى جمعية الصيد في موزيل، كنت قد اتفقت مع الأصدقاء أن نستغل عطلة نهاية الأسبوع في الصيد. كنت أسير في تلك الطريق إذاً كي أعاين الأمكنة ترقباً للغد، وأطّلع على حالة الممرات والسياجات. . . فأنا أحبّ أن أتأمّل الشمس وهي تطلع فوق الغابة بعد هطول المطر، وأن أشم رائحة الأرض.

أنت دركي يا رجل، لست حارس غابة، قال مارك في نفسه، لكنه أمسك عن الإدلاء بأية ملاحظة. إنه رجل زئبقي، وغير صريح، لكن مارك لم يتوصّل إلى النقطة التي يمكنه أن ينفذ منها إليه.

تنهّد تنهيدة مكتومة، ثم عادَ به إلى نقطة البداية:

- قلت إذاً إنك رأيت دخاناً من الطريق. . .

- نعم. وبما أني كنت أقود سيارة العمل -سيارة ميغان فاخرة لعلمك- استطعت أن أتصل بواسطة الراديو بالزملاء وبالإطفاء على حدّ سواء.

- ثم توجهت إلى مكان الحريق؟

- نعم، لكي أؤمّن وصول الإسعافات، ولكي أتأكّد من عدم وجود متنزّه أو صياد في الأرجاء. أمر منطقي، أليس كذلك؟

- بلى، لقد قمتَ بواجبك.

- يسرني أن تسلّم بذلك.

ابتسم ميزولييه، وأخذ يمسح نظاراته الراي-بان أفياتور بذيل قميصه، لكن مارك رفض أن يستسلم:

- إذا سمحت، ما زال لديّ سؤال أو اثنان. . .

- بسرعة إذاً، قال الدركي وهو ينظر إلى ساعة يده. يجب أن ألتحق برجالي في دوّار الطريق أ 4. لقد أقام الفلاحون حواجز منذ الصباح و. . .

- أعدت قراءة الصحف الصادرة آنذاك، فاكتشفت أنها لم تتحدث عن سيارة كيفر إلّا قليلاً، السيارة التي عُثر فيها على آثار جينية لكلير كارلايل.

- لم تكن فيها آثار تلك الفتاة فحسب، بل كان فيها آثار جميع الضحايا الأخريات. هل تعرف لماذا؟ لأن ذلك المريض كان ينقل ضحاياه في تلك السيارة. وعندما قامت الشرطة العلمية بأخذ البصمات، تمكنت من مشاهدة تلك السيارة عن كثب. كان كيفر قد جعل فيها شيئاً يشبه القفص، أو الخزنة، خزنة كبيرة كالقبر، قبر عازل للصوت.

بحث مارك في جيبه فأخرج مقالاً صحفياً كان قد أحضره من شقة رافائيل.

- إنها الصورة الوحيدة التي استطعت العثور عليها، قال وهو يمدّها إليه.

نظر ميزوليه إلى الصورة، صورة بالأبيض والأسود، غير واضحة.

- إنها هي من دون شك، بيك-أب نيسان نافارا.

- وماذا نرى خلفها؟

- دراجة كيفر النارية، دراجة 125 من نوع دراجات السباق، كانت مربوطة إلى عربة السيارة.

- ولماذا كانت هناك؟

- ومن أين لي أن أعرف؟

- بما أنك دركي، فلا بدّ أن لديك تفسيراً ما.

هزّ الدركي رأسه.

- لم أطرح على نفسي هذا السؤال قط. فأنا لم أكن مكلّفاً بالقضية، كما سبق أن قلت.

- هل كنت تعرف كيفر قبل القضية؟

- لم ألتقِ به، ولم أسمع عنه قط.

- بالرغم من أنك كنت تمارس الصيد بالقرب من منزله؟

- الغابة شاسعة، أجاب ميزولييه وهو يقوم من على مقعده ويتناول سترته. طيب، حان وقت الذهاب.

- سؤال أخير إذا سمحت، قال كاراديك وهو لا يزال جالساً. لقد مرّ على القضية عشر سنوات، فكيف لك أن تتذكر نوع سيارته؟ فالصورة التي أطلعتك عليها غير واضحة على الإطلاق.

لم يرتبك الدركي.

- بسبب قضية بواسو! ألم أعتقد في بداية لقائنا أنك أتيت لتسألني عنها؟

- احكِ لي.

تردّد الدركي قليلاً، لكنه ما لبث أن عاد إلى الجلوس. كان في هذا الحديث ما يُسليه. في لعبة القط والفأر هذه، كان يحسّ بأنه لا يُقهر.

- هل تعرف عائلة بواسو-ديبريه؟

حرك مارك رأسه نافياً.

- لستَ أول من لا يعرفها. قليلون الذين يعرفون هذه العائلة في المنطقة، رغم أنّ اسمها على قائمة أغنى مئة وخمسين عائلة في

فرنسا. إنهم أناس متحفظون، عائلة عريقة من الصناعيين، تنحدر من مدينة نانسي. وتتربع هذه العائلة اليوم على رأس إمبراطورية صغيرة متخصصة في توزيع مستلزمات البناء.

- وما علاقتها بالقضية التي جئت من أجلها؟

كان ميزولييه يتلذّذ بفراغ صبر مارك.

- تصور أن أحد أفراد هذه العائلة أتى لزيارتي قبل ستة أشهر: ماكسيم بواسو، شاب في العشرين من عمره، عصبي، مضطرب، غير مرتاح مع نفسه. جلس على الكرسي الذي تجلس عليه الآن، وأخذ يحدّثني حديثاً مضطرباً، قال إنه يخضع لعلاج نفسي لدى محللة نفسية، وأن الطبيبة نصحته بأن يذهب لمقابلتي كي يتمّ الاعتراف به كضحية، و...

نفدَ صبر مارك:

- اختصِرْ من فضلك.

- ارسُ على برّ! على أي حال، باختصار: استمعت إلى قصته، وهذا ملخصها: ادّعى أنه تم اختطافه من قلب مدينة نانسي عندما كان في العاشرة من عمره، يوم 24 أكتوبر 2007.

- يوم 24 أكتوبر؟ يومان قبل الحريق؟

- بالضبط! عملية سريعة كلمح البصر. بالكاد أربع وعشرون ساعة بين عملية الاختطاف والفدية. قال الشاب إنه اهتدى يوم الاختطاف إلى تسجيل رقم سيارة مختطفه. وبعد تسع سنوات، أعطانا الرقم، أدخلناه في الحاسوب، وخمّن ماذا اكتشفنا؟

- أنه رقم سيارة كيفر البيك-أب، قال مارك.

- أصبت! أليس هذا أمراً محيراً؟ اعتقدنا أول الأمر أنّ الصبي

اختلق كل ذلك، ولكن تبين لنا، وكما قلتَ من قبل، أنّ الجرائد لم تنشر رقم السيارة.

- وماذا قال لك بواسو أيضاً؟

- قال إنّ أباه أدى الفدية من دون أن يحتجّ ومن دون أن يبلغ الشرطة. تمت عملية التبادل في غابة في المنطقة: 500000 يورو، سُلِّمت لكيفر في حقيبة صفراء.

حين سمع الحديث عن الحقيبة، شعر مارك بدفقة من الأدرنالين تسري في جسده، لكنه تمالك نفسه، فلم يكن يرغب في تزويد الدركي بأي معلومة.

- وهل أعطى تفاصيل عن ظروف وملابسات اعتقاله؟ هل عنّفه كيفر؟

- لا، أكّد أن كيفر لم يمسه بسوء. لكن الأمور مشوشة قليلاً في ذهن الصبي، فأخذ يقول تارة إن كيفر كانت لديه شريكة، وتارة أخرى إنه ليس متأكداً من ذلك.

شريكة؟

- وما الذي دعاه إلى مقابلتك أنت بالذات؟

- للسبب نفسه الذي دعاك أنت إلى مقابلتي. قام بتحريات على الإنترنت فوقع على اسمي الذي تكرّر في عدد من الجرائد.

- ولماذا لم يبلغ والداه عن اختطاف ابنهما؟

- لكي لا ينتشر الخبر. وهذا بالضبط ما يلومهم ابنهما عليه! فعائلة بواسو-ديبريه اعتبرت أنها نجحت في أن تحلّ المشكلة بنفسها، خاصة وأن نصف مليون يورو لا شيء بالنسبة إليها. الصمت من ذهب: هذا المثل الشهير تجسّد بشكل مثالي في هذه الحالة.

طرقت سولفيغ الباب ودفعته قبل أن يُسمح لها بالدخول.

- مايـر يـحاول أن يتصل بك يا عقيد، يبدو أن جراراً من جرارات الفلاحين شرع في تخريب دوّار الطريق أ 4.

- اللعنة، يا لهم من قرويين أغبياء! صاح الدركي غاضباً وهو ينهض من على مقعده.

نهض مارك بدوره.

- هل يمكنك أن تعطيني نسخة من شهادة ماكسيم بواسو؟

- لم أدوّن شهادته. قانونياً، لم يعُد لِما أدلى به أيّ أهمية اليوم. فقد أُغلِق الملف بعد عدة تحقيقات. فمن سنتابع اليوم؟

تنهّد كاراديك.

- هل تعرف أين يقيم على الأقل؟

- لا، إنه في خلاف مع عائلته. بحسب آخر معلوماتي، كان يعمل في مكتبة كبيرة في مدينة نانسي اسمها باحة الكتاب.

- أعرفها.

في الوقت الذي كان ميزوليبه يرتدي سترته، أسرت سولفيغ إلى مارك:

- إنني أنتمي إلى فريق تحرير مجلة الدرك الوطني. وأنا بصدد كتابة مقال حول الشخصيات الشهيرة في الشرطة الفرنسية. فهل تسمح بأن أجري معكَ حواراً؟

- لا وقت لديّ في الحقيقة.

- اسمح لي بسؤال واحدٍ إذاً: ما هي أهمّ صفة يجب أن يتّصف بها الشرطي ليكون متميزاً؟

- أن يكون لديه حدس قوي في ما يخصّ الكذب. ولعلّ هذا أكثر ما نفعني في تحرياتي. إنني أعلم عندما يكذب عليّ أحدهم.

- وأنا، هل كذبت عليك؟ سأله موزيلييه.

- نعم، كذبت عليّ مرة واحدة، أكدّ كاراديك.

ارتفعت درجة التوتر فجأةً.

- هكذا إذاً؟ أرى أنّ الشجاعة لا تنقصك! ومتى أخفيت عنك الحقيقة؟

- هذا ما ينبغي أن أتوصل إليه.

- عُدْ إلى زيارتي حين تتوصّل إلى ذلك!

- سأفعل.

10

أختان تعيشان في سلام

لا وجود للأبرياء. كلنا مذنبون بدرجات متفاوتة.

ستيغ لارسن

1.

الطريق بين فالسبورغ ونانسي عبارة عن خلاء كبير يُشعرك بأنك خارج الزمن، ويطمئنك.

أحبّ مارك كاراديك، وهو يقود سيارته رباعية الدفع، رتابة الطريق المريحة للأعصاب: المراعي من حوله، والمواشي، وروائح الأسمدة، والأراضي الزراعية على حدّ البصر، والجرارات التي تسير على الإسفلت ببطء والتي لم يسعَ قط إلى تجاوزها.

تنعكس أشعة الشمس على اللوحة الأمامية لسيارته. وعلى المذياع، قرص يصدح بموسيقى الجاز، جاز كيني ويلر الراقي. منذ عشر سنوات وهذا القرص لا يتوقف عن مصاحبته كلما سافر بسيارته. إنه آخر هدية قدّمتها إليه زوجته قبل أن ترحل.

قبل أن تموت.

في أثناء الطريق، لم يتوقف مارك عن التفكير في ما قاله الدركي. كان يستعيد الحوار الذي دار بينهما وكأنه قام بتسجيله. كان يتمعّن في ما تبادلاه من حديث، ويستوعبه. كان قد حدس، على الفور، أن ميزولييه شاهدٌ أساس في القضية، وأن المحقّقين قد أساؤوا تقدير قيمته. كان يعرف أنّ الدركي كذب عليه، ولكن عليه أن يجتهد كي يكشفه.

عندما أشرف على الدخول إلى مدينة نانسي، تردّد في أن يترك رسالة على مجيب رافائيل الآلي. **لا، ليس بعد.** فضّل أن ينتظر حتى يحصل على مزيد من العناصر الملموسة.

حين وصل إلى وسط المدينة، أغوته نفسه بأن يركن السيارة في مكان ممنوع أمام المكتبة، لكنه لم يستسلم لتلك السهولة. ليس من الحكمة أن يغامر بسيارته. عثر على مكان في موقف للسيارات بسان-جان، قرب محطة القطار والمركز التجاري، وهو عبارة عن بناية حجرية ضخمة، يعود تاريخ تشييدها إلى السبعينيات.

غادر ذلك الحي الذي انعدمت فيه الجاذبية، وتشوّهت معالمه بسبب الأشغال في كلّ مكان.

إنها مدينة شاحبة، كئيبة، تفتقد الحيوية. مدينة لها في ذاكرته صورة سلبية، رغم أنه كان قد التقى هنا في نانسي، عام 1978، بالتي أصبحت زوجته فيما بعد. كان حينذاك مفتشاً شاباً (كما كان يُقال في تلك الفترة)، مفتشاً تخرَّج حديثاً من معهد الشرطة في كان-إكلوز، وذهب إلى مدينة نانسي من دون حماس كي يشارك في تكوين مهني أُقيم في كلية الآداب والعلوم الإنسانية. وهناك، في أحد المدرجات، في أثناء فسحة الانتقال من محاضرة إلى أخرى، التقى بإليز، طالبة في قسم الأدب القديم، في العشرين من عمرها، تسكن

في غرفة في الحي الجامعي بشارع نوتردام-دو-لورد.

كان مارك يعمل في باريس، وعلى مدى سنتين، وفي انتظار أن تنهي إليز دراستها، تنقل بين المدينتين. وما زال إلى الآن يذكر أنه في بعض الأمسيات، كانت تدفعه رغبة مفاجئة إلى أن يترك العاصمة ويذهب للقائها في نانسي على متن سيارته الرينو 8 غورديني. أحسّ بالدمع يبلّل عينيه. إننا لا نعيش مثل هذه الأشياء إلّا مرة واحدة في حياتنا، ولكننا لا نعي قيمتها في تلك اللحظات إلّا نادراً. وتلك إحدى مآسي الحياة.

اللعنة. ما كان ينبغي أن يفتح الباب أمام الذكريات. كان ينبغي أن يوقفها، أن يقاومها، أن لا يمنحها أي مجال، وإلّا فسوف يضيع.

رمش، لكن صورة إليز تسلّلت أمام عينيه. إنها فتاة من شرق فرنسا بامتياز. وجه جاد، وشعر أشقر فاتح، وعينان صافيتان. يعتقد مَن يراها أوّل مرة أنها فتاة ذات جمال بارد، منعزلة، لا تُطال. لكنها تعرف، حين تختلي بها، كيف تكون عكس ما توحي به: مرحة، جذابة، ومتحمّسة.

إليز هي التي حبّبت إليه الأدب، وفن الرسم، والموسيقى الكلاسيكية. فتاة متطلّبة مع نفسها، لكنها ليست متعالية. كانت تحمل دائماً كتاباً في يدها: رواية، ديوان شعر، كتيب لمعرض لوحات فنية. كان الفن، والخيال، والأحلام جزءاً لا يتجزأ من عالمها. حين أدخلته إليز عالم الفن الجميل، غيّرته تماماً، إذ أدرك بفضلها أنّ العالم لا يقتصر على حقيقة تحرياته وتحقيقاته. أدرك أنّ العالم شاسع وزئبقي ومُدوّخ.

وبينما هو يتسكّع في المدينة، أحسّ مارك أنه يخسر المعركة

ففتح محفظة نقوده وأخرج منها حبة ليكزوميل وكسرها نصفين. إنها آخر سلاح بالنسبة إليه. وضعها تحت لسانه. الدواء كي لا يهوي. الدواء كي يوقف الألم الذي يشعر به لأنه لم يستطع أن يحب إليز أكثر ممّا أحبها، وأنه لم يستطِعْ أن يحتفظ بها.

أحسَّ بمفعول الدواء على الفور، إذ صارت الذكريات أقل إيلاماً، وانخفض الضغط قليلاً. وبينما ذكرى زوجته تتلاشى، تذكّر ما قاله فلوبير الذي كانت تحب كتاباته: «في قلب كل واحد منا غرفة ملكية. غرفتي أنا مغلقة تماماً، لكنها ليست مدمَّرة».

2.

في فترة بعد الظهر تلك من نهاية الصيف، بدا ماضي شارع بيلبري الكئيب من البُعد بحيث يظنّ المرء أنه لم يوجد يوماً. كانت أوراق الأشجار تصدر حفيفاً وسط نسيم يهمس بأغنية هادئة في آذان العابرين. وكانت الشمس تُرسل أشعّتها الذهبية على الجدران كأنها رسام انطباعي يرسم لوحة كئيبة ودافئة في آنٍ معاً، لوحة ما بين لوحات نورمان روكويل وإدوارد هوبر.

على عتبة المنزل رقم 299، جلست امرأتان سوداوان لنيل قسط من الراحة في الهواء الطلق وهما تحرسان طفلة صغيرة وطفلاً مشرفاً على المراهقة ينجزان واجباتهما الدراسية على طاولة وسط الحديقة.

- هل تبحث عن شيء يا سيدي؟

تلك التي بادرت بطرح السؤال، وهي أكبر الأختين سناً، لا شكّ أنها أنجيلا أخت جويس كارلايل الكبرى.

- صباح الخير أيتها السيدتان، اسمي رافائيل بارتليمي، هل يمكن أن أطرح عليكما بعض الأسئلة عن. . .

أبدت أنجيلا تحفّظها على الفور:

- لا تقُل لي إنك صحافي؟

- لست صحافياً، أنا كاتب.

لقد أثارت انتباهي دائماً تلك الكراهية التي يكنّها الناس للصحافيين، في الوقت الذي يشعرون بالحب تجاه الروائيين.

- أسئلة عن ماذا؟

- عن أختك جويس.

لوحت بكفّها في الهواء بحركة سريعة عصبية، كأنها تريد أن تبعد عنها زنبوراً.

- جويس ماتت منذ أكثر من عشر سنوات! فمَن أنت حتى تسمح لنفسك بأن تستحضر ذكراها؟

كان لأنجيلا صوت جهوري حازم. إنها تشبه ممثلات تلك الأفلام الثقافية التي أعادت الاعتبار للسود وأظهرتهم في صورة إيجابية غير تلك التي تعوّد عليها المشاهد. امرأة ذات مظهر أفريقي خالص، شعرها مجعد منفوش، ترتدي قميصاً ملوّناً وسترة جلدية من دون أكمام.

- آسف لأنني استحضرتُ ذكريات أليمة، لكن لديّ معلومات قد تهمّك.

- أية معلومات؟

- معلومات بشأن ابنة أختك، كلير.

رمَت عيناها بشرَر وقامت من على كرسيها الهزاز كي تشتمني:

- لا أحب مساومتك أيها الفتى الغر! إذا كان لديك ما تقوله فقُلْهُ على الفور وإلّا عُدْ من حيث أتيت!

هبَّت غلادس، أختها الصغرى، لنجدتي:

- اتركيه يتكلّم يا أنجي، يبدو أنه فتى طيب.

- نعم، فتى طيب متطفّل! صرخت قائلة، ثم دخلت المنزل وأخذت الطفلين معها كأنها تريد أن تحميهما.

تحدثتُ مع غلادس عدة دقائق. هيئة غلادس أكثر تقليدية من أختها، وهي هيئة تقربها من كلير: شعر طويل أملس، قسمات ناعمة، وجه ممكيج برهافة. ذكرني فستانها القصير الذي يبرز ساقيها العاريتين عن آخرهما، بغلاف ألبوم دونا سامر الذي يحمل عنوان **أربعة فصول من الحب**، والذي كان ضمن الألبومات الغنائية التي كانت في خزانة والدَي الموسيقية. ذلك الغلاف الذي استثارني طوال سنّ المراهقة.

قبلَتْ غلادس، وهي امرأة لطيفة وفضولية، أن تحدّثني عن المرحومة. دون أن ألحّ عليها، أكّدت لي ما سبق أن أخبرتني به مارلين دولاتور، الصحافية في جريدة **غرب فرنسا**: أي أن جويس ماتت فعلاً جراء جرعة هيروين زائدة شهراً واحداً فقط بعد اختطاف كلير.

- أبعدَ أن انقطعت جويس عن تعاطي المخدرات سنوات عديدة، عادت إلى تعاطيها من جديد وبشكل مفاجئ؟

- وكيف لنا أن نلومها؟ لقد كانت منهارة تماماً جراء اختفاء ابنتها.

- ولكن، في ذلك الوقت الذي تناولت فيه الجرعة الزائدة، كان هناك أمل في أن يتمّ العثور على كلير حيّة.

- الضغط والقلق كانا ينخرانها. هل لديك أطفال يا سيد بارتليمي؟

أريتها صورة تيو على هاتفي.

- يبدو سعيداً! قالت. إنه يشبهك كثيراً.

قد يبدو الأمر سخيفاً، لكن كانت هذه الملاحظة تسعدني كلّما سمعتها. وأنا أشكرها، انفتح باب المنزل فجأة. أقبلت أنجيلا حاملة ألبوم صور تحت ذراعها وانضمّت إلينا. كانت قد هدأت، وانخرطت في الحديث الذي كنا نخوض فيه، والذي يبدو أنها كانت تتابعه من خلف نافذتها.

- إذا أردت أن تفهم جويس، يجب أن تستحضر هذه الحقيقة في ذهنك: كانت أختنا امرأة متحمّسة، شغوفة، عاشقة. ذاك طبعها، وهو يختلف عن طبعي، ولكنني أحترمه.

وتذكرتُ جملة أناتول فرانس: «إنني أفضّل اندفاعة الشغف على رزانة اللامبالاة».

أخذت أنجيلا تُهوّي نفسها بالألبوم الذي جلبته.

- عندما كانت صغيرة، ارتكبت جويس أخطاء كثيرة، لكنها تعقَّلت لمّا أنجبت كلير. كانت امرأة مثقفة وأماً صالحة، ولكنها كانت تحمل في دواخلها شعلة سوداء، ذلك النزوع نحو تدمير الذات الذي نراه عند بعض الأشخاص. نزوع شبيه بحيوان شرس تحمله بداخلك وقد تتمكّن من ترويضه سنوات طويلة إلى أن تعتقد أنك تمكَّنت من قهره. لكنه لا يموت أبداً، فهو لا يتحيَّن إلّا الفرصة المواتية كي ينقضّ عليك من جديد.

- ألم تتوقّعا أن يقع ما وقع؟ أعتقد أنّ الحالة التي كانت عليها آنذاك لا بد أنها دفعتكما إلى أن تمنحاها ما يكفي من رعاية.

نظرت إليّ بعينين محمَّلتين بالأسى.

- أنا من وجدت جويس على أرضية الحمّام وفي ذراعها إبرة مغروسة. أعتقد أني أتحمل شيئاً من المسؤولية في موتها.

3.

نانسي.

تنقّل كاراديك من رصيف إلى آخر وهو ينفذ بين المارة. تحت الشمس، بدت عاصمة دوقات اللورين السابقة وكأنها انتعشت من جديد بالمقارنة مع الذكريات التي كان يحتفظ بها عنها. يغيّر الجو الجميل كلّ شيء حين يخيّم على المدينة، فيمنحها الفيتامينات التي تنقصها في الأيام الماطرة. حتى تلك العمارات الصغيرة في شارع كلوديون بدت كأنها عمارات باريسية. أما شارع سان-جان فأصبح يعجّ بالراجلين وبحركة الترامواي، ما جعله مليئاً بالحيوية.

شارع سان-ديزييه. مكتبة باحة الكتب. كانت المكتبة لا تزال مخلصة للصورة التي احتفظ بها مارك في ذاكرته. تذكّر بوضوح بلاط الطابق الأرضي والممرات في كلّ طابق، تلك الممرات التي توحي للزائر بأنه على ظهر سفينة.

وما إن دخل حتى توجه بالكلام إلى موظف كان منشغلاً بعرض قواميس الجيب على أحد الرفوف.

- أبحث عن ماكسيم بواسو.

- قسم الروايات البوليسية، الطابق الثالث.

صعد مارك الأدراج مسرعاً، لكنه حين وقف أمام طاولة عرض الروايات المشوقة والروايات البوليسية، لم يجد إلّا كُتبية تحاول أن تجعل أحد القراء يشاركها حماسها لرواية **نيكروبوليس**، رائعة هربرت ليبرمان.

- ماكسيم؟ إنه الدخول المدرسي، وقد ذهب ليساعد موظفي القرطاسية.

عاد مارك أدراجه وهو يتذمّر: **الدخول المدرسي**. . . يا له من حظ سيئ! لقد أتى إلى المكتبة يوم الجمعة بعد الظهيرة، أي بعد أن خرج التلاميذ من المدارس، وأتوا رفقة آبائهم ليشتروا لوازمهم المدرسية، ما جعل جناح القرطاسية مكتظاً عن آخره.

كان البائعان الشابان منهمكين في العمل. نظر مارك إلى سترة أصغرهما سناً، سترة حمراء تحمل شارة تدلّ على اسمه.

- ماكسيم بواسو؟ أنا النقيب كاراديك، من شعبة مكافحة السطو. أريد أن أطرح عليك بعض الأسئلة.

- نعم، ولكنني. . . ليس هنا، غمغم بواسو.

كان ماكسيم بواسو يبدو أصغر سنّاً ممّا تصوره مارك. كان وجهه الجميل المعذب لا يخفي شيئاً من شكوكه وهشاشته. ذكّره بمونتغومري كليفت في أدواره الأولى في فيلم **النهر الأحمر**، و**مكان تحت الشمس**. . .

- يمكنك أن تأخذ استراحة، قال له الموظف الآخر المسؤول عن الجناح. سأستدعي ميلاني كي تعوضك.

نزع ماكسيم سترته التي تحمل ألوان المكتبة ومشى وراء كاراديك الذي كان يستعمل مِرفقيه كي ينفذ من الزحام.

- لقد منعني هذا الإقبال من تناول وجبة الغذاء، قال بائع الكتب لمّا وصلا إلى الرصيف. هناك مطعم سوشي قريب من هنا، هل يناسبك؟

- أفضِّل شرائح اللحم المشوي، ولكن لا بأس.

بعد خمس دقائق، كان الرجلان جالسين جنباً إلى جنب على كرسيين عاليين. كان المطعم يعمل وفق نظام **الكايتن**: أي أنّ

الأطباق تُعرَض على الزبائن فوق حزام متحرك. في تلك الساعة، كان المطعم قد فتح أبوابه منذ لحظات فقط، ما جعله شبه خالٍ من الزبائن.

- لقد سبق أن حكيت كل شيء للعقيد ميزولييه، قال بواسو وهو يضع القَشَّة في قنينة ماء فيتيل بمذاق النعناع.

أفصح كاراديك عن نواياه منذ البداية:

- انسَ ذلك الوغد. أنت تعرف أنه لن يساعدك.

رغم أنّ هذه الصراحة راقت عامل المكتبة الشاب، فقد أخذ يدافع عن الدركي:

- من وجهة نظره، ميزولييه على حق. لقد مرّت تسع سنوات على تلك الواقعة، فصارت قصتي عديمة الأهمية.

حرك مارك رأسه غير موافق.

- بل إنها مهمة، وقد تساعدنا على فهم قضية أخرى أيضاً.

- حقاً؟

- دعني أطرح عليك بعض الأسئلة، وسأشرح لك ما أقصده بعد ذلك. موافق؟

أومأ الشاب، وأعاد مارك على مسمعه الخطوط العريضة للقصة كما حكاها له العقيد.

- كان سنك آنذاك عشر سنوات، أليس كذلك؟

- عشر سنوات ونصف، كنت قد انتقلت للتو إلى القسم السادس.

- وأين كنت تسكن؟

- في منزل والدَي الكبير بساحة لاكارير.

- في المدينة العتيقة، أليس كذلك؟ قرب ساحة ستانسلاس؟

أشار بواسو برأسه مؤكداً، ثم استأنف:

- كان سائق الأسرة يأخذني لتلقي الدرس الديني بعد ظهيرة كلّ أربعاء.

- في أي مكان؟

- في كنيسة سانت-إيبر. كنتُ قد كذبت على أبي في ما يخصّ توقيت الدروس لكي يكون لديّ فائض من الوقت قبل الدرس. كان السائق يوصلني إلى شارع دو غيز، وعوض أن أذهب إلى الكنيسة، كنت أتوجه إلى حديقة أورلي حيث يقوم أحد المرشدين بإلقاء دروس في المسرح خاصة بالأطفال. كان الدخول مجانياً، ولا يستدعي تسجيلاً مسبقاً. كانت دروساً ممتعة حقاً.

شرب مارك جرعة من الجعة من القنينة مباشرة، وتناول قطعة ساشيمي. واصل ماكسيم حكايته بصوت مرتعش:

- اختطفني ذلك الشخص في الطريق الذي اعتدتُ أن أعود منه إلى الكنيسة. كنت أعود دائماً من طريق مختصر يمرّ بالقرب من المستشفى الجامعي. لم أرَه قادماً نحوي، وما هي إلّا لحظة خاطفة حتى وجدت نفسي معتقَلاً في سيارته رباعية الدفع.

- هل كان يعرف من أنت؟

- أكيد. فقد كانت أول جملة قالها لي: «ستمضي الأمور على أحسن وجه، أبوك سيُخرجك من هنا في أسرع وقت». لا شك أنه راقب تحركاتي على مدى عدة أسابيع.

- ما هي المدة التي استغرقتها السيارة في الطريق قبل أن تصلا؟

- ساعتين تقريباً. لما وصلنا إلى منزله وسط الغابة، كانت

السماء تمطر، وكان الليل قد أوشك أن يحلّ. سجَنني أول الأمر في غرفة صغيرة مخصَّصة للأدوات المنزلية. أعتقد أني كنت محموماً بسبب الصدمة. كنت أهذي، وأصرخ، ولا أستطيع أن أتوقف عن فعل ذلك. الواقع أني كنت مرعوباً إلى درجة أنّي تغوّطت في سروالي. صفعني صفعة أو اثنتين، ثم قرَّر أن يدخلني إلى المنزل. غطى عينَي أولاً، ثم أنزلني عدة أدراج. فتح باباً، ثم آخر. وفي النهاية، عهد بي إلى فتاة. كان صوتها ناعماً، ورائحتها طيبة، كرائحة البنفسج على ثياب حديثة الكواء. طلبت مني ألّا أزيل العصابة من على عينَي، وألّا أقلق. نظَّفتني بخرقة، بل وهدهدتني إلى أن نمت.

- وهل تعرف اسم تلك الفتاة؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

أومأ بالإيجاب.

- قالت إن اسمها لويز.

أخذت عينا كاراديك تطرفان.

إنها لويز غوتييه، الضحية الأولى التي كانت في الرابعة عشر من عمرها لما اختفت نهاية سنة 2004، وذلك حين كانت تقضي عطلتها في منزل جدَّيها ببروتان.

أجهشَ ماكسيم بالبكاء قائلاً:

- لقد اعتقدتُ طوال السنوات الماضية أنّ تلك الفتاة كانت متواطئة معه! ولم أتعرف على هويتها إلّا مؤخّراً، بعد أن قرأت مقالات حول المدعو هاينز كيفر. كانت...

- أعرف من كانت. هل تعرفت على فتيات أخريات هناك؟

- لا، لا أحد غير لويز. لا شيء كان يوحي بأنّ هناك فتيات أخريات في المنزل.

تسمّر ماكسيم في مكانه، وتاهت نظراته في الفراغ، والتزم الصمت لحظة.

- ما هو الوقت الذي استغرقه والداك في جمع الفدية؟ سأله كاراديك.

- ساعات قليلة فقط. لم يرتكب كيفر خطأ المطالبة بمبلغ جنوني. اكتفى بخمسمئة ألف يورو، واشترط أن تكون من فئة 50 و100 يورو وأن لا تحمل أية علامة. لا شك أنك تعرف أنّ ثروة أبي هائلة، لذلك لم تعترضه أي صعوبة في جمع هذا المبلغ.

- وأين تمّت عملية التبادل؟

- في غابة لانوفوفيل-أو-بوا التي تقع قرب لونيفيل.

- وكيف تمكَّنت من تذكّر كلّ هذه التفاصيل؟

شرح بواسو الأمر:

- لما كان الغد، وفي الوقت الذي كنّا نغادر منزله، قيّدني. ولكنه لم يضَع عصابة على عينَي هذه المرة، وأجلسني جنبه في المقعد الأمامي. وفي منتصف الطريق، توقف عند كشك للهاتف بجانب الطريق، واتصل بوالدي لكي يحدّد له مكان اللقاء.

- وكيف كان كيفر خلال تلك اللحظات؟

- اللعنة، لقد كان عصبياً تماماً، ومضطرباً، لا يعرف ما يقدِّم أو يؤخر، وكان يهذي. لقد غامر حين تركني أجلس إلى جانبه، إذ كان من الممكن أن نثير الانتباه حتى وإن لم نسلك إلّا طرقاً ثانوية صغيرة. كان يضع قناعاً، ويكلم نفسه طوال الوقت. كان في غاية التوتر، كأنه تناول شيئاً ما.

- أدوية؟ مخدرات؟

- نعم، على الأرجح.

- ومتى رأيت رقم السيارة؟

- على ضوء مصابيح السيارة، في اللحظة التي كنت ذاهباً نحو أبي.

- في الغابة؟ كانت السيارتان متقابلتين؟

- نعم، كما في فيلم **جماعة الصقليين**. ألقى أبي بحقيبة من الجلد ملأى بالمال. تناولها كيفر، وبعد أن تأكّد ممّا في داخلها، تركني أذهب. انتهت القصة.

- مهلاً، مهلاً. عن أية حقيبة تتكلم؟ ألم يعطِه المال في حقيبة من القماش، حقيبة صفراء؟

- لا، كان المال في حقيبة كتلك التي يستعملها رجال الأعمال.

- ميزولييه قال إنك قلت إن المال كان في حقيبة صفراء.

غضب بواسو:

- لم أقل ذلك قط! كانت تلك الحقيبة صلبة، من نوع سامسونايت، فأبي لديه عدة حقائب من ذلك النوع. بعد ذلك، قد يكون كيفر نقل المال إلى تلك الحقيبة الصفراء. لن يفاجئني ذلك، فهو شخص مرتاب حذر. كان يعتقد أننا كنا نريد أن نوقع به بوضع جهاز للتنصت أو شيئاً من هذا القبيل.

طأطأ مارك رأسه فرأى أنّ أظافر بواسو الموضوعة فوق المنضدة مقضومة عن آخرها. كان الصبي حساساً، حذراً. وكان وجهه الملائكي مشوّهاً بفعل الضغط والخوف.

- وماذا حدث بعد ذلك مع والديك؟

- لا شيء. لا نقاش، ولا حوار. بالنسبة إليهما، أنا السبب في كلّ ما حدث. بعد يومين بعثا بي إلى مدرسة داخلية. في سويسرا

أولاً، وفي الولايات المتحدة بعد ذلك. لم يُطرح الموضوع بعد ذلك أبداً، ومع مرور الوقت، انتهى بي الأمر إلى أن كتمته في نفسي تماماً.

قطّب مارك حاجبيه.

- هل تريد أن تقول إنك قط لم تقُم بالربط بين ما حدث لك وما حدث لضحايا كيفر؟

- لا. في تلك الفترة كنت أعيش في شيكاغو، بعيداً عن تلك الأحداث. لم أسمع بقضية كيفر إلّا منذ ستة أشهر.

- كيف حدث ذلك؟ ذكر ميزوليه شيئاً عن علاج نفسي.

- نعم. كنت أرغب في أن أمكث في الولايات المتحدة وأن آخذ دروساً في المسرح في برودواي، لكنني اضطررتُ إلى العودة إلى فرنسا بعد حصولي على شهادة البكالوريا لأسباب صحية. لم أكُن في صحة جيدة. كنت أعيش في خوف دائم من كلّ شيء، وتفاقمت أزمات الخوف والقلق إلى أن أصبحت أعاني من الميول إلى الانتحار، ومن الهذيان المرضي، والهلوسة. كنت على حافة الجنون. أدخلوني مستشفى ساريغومين المتخصّص في مثل هذه الحالات، ومكثت فيه ستة أشهر. وتماثلت للشفاء شيئاً فشيئاً، بمساعدة الأدوية أولاً، ثم بمساعدة طبيب نفسي بعد ذلك.

- في أثناء حصص العلاج النفسي، بدأت تراودك ذكرى تعرّضك للاختطاف...

- نعم، وتفاقمت الأمور لما أدركت أنّ مختطفي هو كيفر نفسه، وأنه أحرق المنزل ساعات قليلة بعد عملية التبادل. كان يمكن أن أنقذ أولئك الفتيات، فهمت؟!

- هذا أمر قابل للنقاش، قال مارك مُصدِراً حكمه.

أخذ بواسو يصيح:

- اللعنة، كنت أعرف رقم سيارته! لو ذهبنا إلى الشرطة وبلَّغنا عنه، لتمكّنوا من القبض عليه قبل أن ينفّذ مجزرته.

أمسكه مارك من كتفه كي يهدئه.

- والداك هما المسؤولان، لا أنت.

- إنهما وغدان! لكي لا يظهر اسمهما على صفحات الجرائد، فضَّلا أن يتركا ذلك الوحش المفترس طليقاً. ألا يبعث ذلك على الجنون؟!

- هل تحدّثت معهما في الأمر؟

- لم أتحدث معهما منذ أدركت ما فعلاه. سأرفض الميراث. لا أريد أن أكون مديناً لهما بشيء. جدّي وجدتي هما اللذان أدّيا مستحقات المستشفى.

تنهّد مارك.

- لست مسؤولاً، لم يكن عمرك حينذاك إلّا عشر سنين!

- هذا لا يُبرئ ذمتي...

- بل يبرِّئها تماماً. كثيرون هم الأشخاص الذين ينبغي أن يلوموا أنفسهم على ما اقترفوه في هذه القضية، لكنك لستَ منهم، صدّقني.

أمسك ماكسيم رأسه بين يديه. لم يكُن قد تناول شيئاً من السوشي أمامه. تنهَّد كاراديك. لقد أحبَّ هذا الصبي، فهو صريح، وحساس، وطيب، وصادق. كان يريد أن يساعده حقاً.

- استمع إليّ جيداً. أعرف أنّ ما سأقوله الآن يسهل قوله لكن يصعب فعله: يجب أن تعثر على وسيلة تساعدك على أن تنسى ما حدث. اتفقنا؟ قُلْ لي أولاً: ماذا تفعل هنا؟

- أين؟

- في نانسي. غادر هذه المدينة، فلك فيها وفي هذه المنطقة برمّتها كثير من الذكريات السيئة. خُذْ المال الذي يَعرضه عليك والداك، واذهب إلى نيويورك، وموّل دروس المسرح تلك. ليس لدينا إلّا حياة واحدة وسرعان ما تنتهي.

- لا أستطيع فعل ذلك.

- لماذا؟

- سبق أن قلت لك إني مريض. أعاني من مرضٍ نفسي. والطبيب المعالج موجود هنا و...

- مهلاً! قال مارك وهو يرفع يده.

تناول من على المنضدة ورقة التعريف متعلّقة بالمطعم، وكتب عليها اسماً ورقم هاتف، ثم سلّمها لبواسو.

- إستير هازييل، قرأ الشاب. من هي؟

- طبيبة نفسية في مستشفى سانت-آن، فرنسية-أميركية. هي تعمل الآن في مانهاتن، في عيادتها الخاصة وفي المستشفى أيضاً. إذا احتجت إليها، أخبرها أنكَ من معارفي.

- وأين عرفتها أنت؟

- أنا أيضاً كنت في حاجة إلى المساعدة. كنت أعاني من الاكتئاب، ومن الهلوسة، ومن النوبات، ومن الخوف من نفسي ومن الآخرين. أبواب جهنم التي تحدّثت عنها، عبرت منها أنا أيضاً.

بدا ماكسيم مذهولاً.

- شيء لا يصدق. وهل عولجت تماماً الآن؟

حرك مارك رأسه نافياً.

- لا، لا يُعالَج الإنسان من هذه الأمور أبداً. وهذا هو الخبر السيئ.

- وماذا عن الخبر الجيد؟

- الخبر الجيد هو أنّ الإنسان يتعلّم كيف يتعايش معها.

4.

شارع بيلبري.

وضعت أنجيلا كارلايل ألبوم الصور القديم ذا الغلاف المنسوج على طاولة مدخل المنزل - وهو ألبوم صور من تلك الألبومات التي كان الناس يصنعونها في الماضي، عوض أن يخزّنوا المئات من الصور على هواتفهم وأن ينسوها.

أخذت غلادس وأنجيلا تتصفحان الألبوم بحبّ أمام ناظري. لقد حلّت لحظات الحنين الآن، وعادت جويس إلى الحياة قليلاً من خلال الصور. كان ذلك يؤلمهما، ويسعدهما في الوقت نفسه.

توالت السنون: 1988، 1989، 1990... ولم تكن الصور تعكس ما كنت أتوقعه. في تلك الفترة من حياتها، لم تكن جويس تلك الفزاعة المدمنة التي وصفتها لي مارلين دولاتور. كانت امرأة متفتّحة، مرحة، رائعة. هل اختلط الأمر على مارلين دولاتور؟ أم أنها اختصرت الأمور كما عوّدتها مهنة الصحافة؟ بحضرة الأختين، كنت أحاول أن أستقي المعلومات على مهل، مفضّلاً أن لا أشير إلى تعاطي أختهما للدعارة في مثل هذه اللحظة الحميمية.

- أخبرتني صحافية فرنسية أن جويس، بعد أن أنجبت ابنتها، أصبحت تتناول الكراك والهيروين.

- غير صحيح! قالت أنجيلا ثائرة. لم تتناول جويس الكراك

قط. صحيح أنه كان لديها مشاكل مع الهيروين، ولكن قبل أن تلد ابنتها سنة 1990. بعد ولادة كلير، كانت جويس قد ابتعدت عن المخدرات منذ فترة طويلة، وعادت إلى فيلادلفيا كي تعيش مع والدينا. وهناك عثرت على عمل في إحدى المكتبات، بل ومارست العمل الخيري في إحدى مراكز المساعدات الاجتماعية بالمدينة.

خزَّنتُ المعلومة في ذاكرتي وأنا أنظر إلى صور أخرى: صور لكلير وهي طفلة، صورها مع أمها، مع خالتيها، ومع جدّتها. خنقتني المشاعر. إنه لمن المؤثر أن أرى المرأة التي أحببتها وهي في سنّ السادسة أو السابعة. وفكّرت في تلك الحياة التي زرعتها في أحشائها. قد تكون طفلة تشبهها. هذا إذا تمكّنت من أن أعثر عليها.

هذه الصور، هي الأخرى، كانت بعيدة عن تلك الصور البائسة التي تناقلتها الصحافة. فقد كانت الأخوات كارلايل نساء مثقفات، ولا يعوزهن المال. أمّا أمهن، إيفون، فكانت محامية، وعملت طوال حياتها في مكتب عمدة مدينة فيلادلفيا.

- ألا توجد صور لوالدكما؟ سألتهما مندهشاً.

- من الصعب أن تلتقط صورة لشبح، أجابت غلادس.

- بل لهبة ريح على الأصح، قالت أنجيلا مصحّحة. هبة ريح كاشفة عن عضوها.

انفجرت الأختان ضاحكتين، ولم أستطِعْ أن أمنع نفسي من الابتسام أنا أيضاً.

- وكلير؟ مَن هو أبوها؟

- لا نعرف، قالت غلادس وهي تهز كتفيها.

- لم تكن جويس تتحدث عن ذلك، ولم نسعَ إلى أن نعرف.

- يصعب عليّ تصديق ذلك. ألم تطرح ابنة أختكما هذا السؤال مراراً؟

قطبت أنجيلا حاجبَيها، قرّبت وجهها مني، وصرخت:

- أرأيت رجالاً في هذا الألبوم؟

- لا.

- أرأيت رجالاً في هذا المنزل؟

- لا.

- لا رجال هنا، ولم يكن لهم وجود قط، ولن يكون لهم وجود أبداً. نحن هكذا دائماً، آل كارلايل. نعيش من دون رجال. إننا نساء أمازونيات.

- أعتقد أنها ليست مقارنة صائبة.

- لماذا؟

- تقول الميثولوجيا الإغريقية إنهن كن يكسرن أعضاء أبنائهن الذكور، أو يفقأن عيونهم كي يتّخذنهم عبيداً.

- فهمتَ جيداً ما نقصده. لا نتوقع من الرجال أيّ خير أيها الغر. هذه فلسفتنا، ولا يهمنا بعد ذلك أن تعجبك أم لا.

- ليس كلّ الرجال سواء.

- بل كلهم سواء: مضللون، متقلبون، جبناء، كذابون، خداعون. لستم جديرين بالثقة. تعتقدون أنكم محاربون، لكنكم لستم في الحقيقة إلّا دُمى تتحكّم فيها غرائزكم. تعتقدون أنكم فحول، لكنكم لستم في الحقيقة إلّا صيادين يلهثون وراء الهباء.

انخرطت في لعبتهما بدوري، فحكيتُ لهما تجربتي مع ناتالي وكيف أنها تخلت عني بعد شهر من ولادة طفلنا. لكن ذلك لم يكُن كافياً كي أحظى برحمتهما.

- تجربتك ليست إلّا استثناءً يؤكِّد القاعدة، صرّحت أنجيلا.

مالت الشمس نحو المغيب، وانخفضت درجة الحرارة. يبدو أنّ مظهري الباعث على الاطمئنان كان قد ساعدني إلى تلك اللحظة، إذ أطلقت الأختان العنان للبوح بأسرار الأسرة من دون أن تعرفا مَن أنا. صارت أنجيلا أقلّ قسوة. صحيح أنها تظاهرت بأنها لا تهتم بقصتي، لكنها في الحقيقة تعاطفت معي.

أغلقَت الألبوم. غطَّت السحب الشمس لحظات قليلة قبل أن تتبدد.

- لماذا قلتِ قبل قليل إنك تشعرين بأنك مسؤولة قليلاً عن موت جويس؟

- كلنا مسؤولون إلى درجة ما، أكدت غلادس.

تنهدت أنجيلا.

- في الحقيقة، لم نكن في المنزل في عطلة نهاية الأسبوع التي حدثت فيها الواقعة. كنا عند أمنا في فيلادلفيا. لم تشأ جويس أن تذهب معنا لزيارتها. كنت أشكّ أنها عادت لتعاطي المخدرات، وإن كانت تدّعي العكس.

تدخّلت غلادس لتخفف من حدة الوقائع، فقالت:

- لم نمكث هناك وقتاً طويلاً، فقد عدنا بمجرد أن اطمأننا على أمنا التي كانت قد أُجريت لها عملية في الورك، ولم تكن تستطيع أن تبرح من مكانها، كما كانت أيضاً في غاية القلق بسبب اختطاف كلير، وبصراحة لا أعتقد أنّ بقاءنا هنا كان سيغيِّر من الأمر شيئاً.

- كيف وقعت الأمور بالضبط؟

قالت أنجيلا:

- أنا مَن وجدت جثة جويس في الحمّام يوم الأحد مساء بعد

عودتنا. كان في ذراعها إبرة مغروسة. يبدو أنها سقطت وارتطم رأسها بالحوض.

- هل أُجرِيَ تحقيق في الحادث؟

- طبعاً، أكدت غلادس. وبما أنّ موتها كان مفاجئاً، فقد دعا الطبيب الذي كشف على الجثة إلى تشريحها.

أضافت أنجيلا:

- ودعمت الشرطة طلب الطبيب لسبب محيّر، وهو أنّ قسم الشرطة تلقّى اتصالاً هاتفياً مجهولاً قال صاحبه إن اعتداء ما قد حصل في منزل جويس يوم وفاتها.

اقشعر بدني من رأسي إلى قدمَي. إنني أعرف هذا الإحساس جيداً. هناك دائماً لحظة من لحظات كتابة روايتك تفاجئك فيها شخصياتك، فترغب في أن تقوم بأشياء لم تكن قد خططتَ أنت أن تقوم هي بها، أو في أن تعترف بشيء مهم في حوار من الحوارات التي نقرتها أصابعك على لوحة الحاسوب. في مثل هذه الحالات، تستطيع أن تنقر على زر «حذف» وتستمر في الكتابة وكأن شيئاً لم يحدث. ولكنك لا تلجأ إلى هذا الاختيار في غالب الأحيان، لأن هذا الشيء غير المتوقع، هو اللحظة الأكثر إثارة في الكتابة، اللحظة التي تلقي بروايتك نحو المجهول. هذا هو الشعور الذي شعرتُ به وأنا أستمع إلى ما باحت به أنجيلا.

- حلَّل المحققون آخر المكالمات الهاتفية التي قامت بها جويس، فألقوا القبض على بائع المخدرات، وهو أحد أوغاد الحي. اعترف أنه باع جويس جرعة كبيرة تكفيها لعطلة نهاية الأسبوع، ولكن كان لديه دليل قوي على أنه لم يكُن في عين المكان عند وفاتها، فأفرجوا عنه.

سألتهما:

- هل كان لأحد دافع كي يقتل أختكما؟

تنهدت غلادس تنهيدة حزينة.

- لا أعتقد، ولكن حين يدخل المرء عالم المخدرات، يشرَع في التعامل مع الغوغاء رغم أنفه.

قالت أنجيلا مواصلة:

- على أيّ حال، لقد أكدت نتائج التشريح أنّ الوفاة حدثت نتيجة جرعة زائدة. أما ذلك الجرح في رأسها، فحدَث بسبب سقوطها على حافة الحوض.

- وماذا عن ذلك الاتصال الهاتفي المجهول؟

- كانت مثل تلك الأمور شائعة في الحي آنذاك. لعبة كان يلجأ إليها شباب الحي كي يُغضِبوا الشرطة.

- ألم تريا أنّ المصادفات كثيرة في هذه القضية؟

- بلى، ولهذا السبب لجأنا إلى خدمات محامٍ كي يزودنا ببعض الوثائق التي تضمّها التحقيقات.

- وبعد؟

وفجأة اربدَّ وجه أنجيلا، وكأنها ندمت على أنها باحت بالكثير. كأنها انتبهت إلى أنها لا تعرف عني شيئاً. كأنها تذكَّرت فجأة ما كنت قد قلته لها قبل نصف ساعة: «قد تكون لديّ معلومات بشأن ابنة أختك».

- ما هي تلك المعلومات التي لمَّحتَ إليها قبل قليل؟ ماذا كنت تريد أن تقول لنا عن كلير؟

كنت أعلم أنّ هذه اللحظة قادمة لا محالة، وأنها لن تمر مرور الكرام. كان هاتفي لا يزال فوق الطاولة. أخذت أبحث فيه عن

صورة بعينها. صورة تجمعنا أنا وكلير: صورة سلفي التقطناها أوّل أمس قبل أن نذهب إلى المطعم، التقطناها على عجل في ميناء أنتيب، وقلعة كاريه من خلفنا.

مدَدْت الهاتف إلى أنجيلا.

إننا نستطيع، طبعاً، أن نقوّل صورة ما نريد منها أن تقوله، إلّا أنّ هذه الصورة لم تكن كاذبة.

- كلير حية، قلت ببساطة.

أخذَتْ وقتها في تأمل الصورة، ثم رمت بهاتفي على الرصيف بكل ما تملك من قوة.

- اغرب عن وجهي أيها المُحتال! صرخَت قبل أن تنفجر باكية.

النساء اللواتي لا يرغبن في الرجال

الدم فوق الثلج، في غاية النظافة، امتزج الأحمر بالأبيض، يا له من منظر جميل.

جان جيونو

.1

- توقف بابا! تيو وحده! تيو وحده!

انتزع ابني الذي كان جالساً في مقعده العالي الملعقة البلاستيكية من يدي ليأكل حساء البطاطا بنفسه. بعد أن تأكّدت أن المريلة مربوطة حول عنقه بإحكام، تناولت شرابي، وجلست أتفرج على المجزرة التي يقترفها ابني كأني في السينما. كانت حركاته لا تزال تفتقد إلى الدقة. على أنفه التصق الحساء، وعلى ذقنه، وعلى شعره، وسقط شيء منه على الأرض وعلى الكرسي. خيل إليّ أن الحساء يتوجّه نحو كلّ مكان إلّا فمه. إلّا أن هذا كان يسعده، ويسعدني أنا أيضاً.

كانت المناظر من حولنا تذكرني بإيطاليا. كنا جالسين تحت شرفة فناء نادي البريدج، وهو فندق تحفّ به الخضرة من كلّ جانب ويعمّه الهدوء، مع أنه في قلب نيويورك. إنه فضاء شبيه بالفضاءات

الريفية، يُشعرك بأنك خارج الزمان، ويبرِّر الثمن الباهظ الذي تؤدّيه مقابل الإقامة فيه.

- كلّ مكان. . .، قال تيو.

- نعم يا صغيري، لم تترك مكاناً إلّا وأطعمته من حسائك. إنه شيء لا يدعو إلى الفخر. هل تريد اللبن المحلى الآن؟

- لا، ننزل!

- لم تقُل «من فضلك».

- من فضلك بابا، ننزل.

طيب، سيتناول اللبن المحلى فيما بعد. نظَّفتُ وجه تيو بفوطته بصعوبة بالغة، لأنه لم يكفّ عن إدارة وجهه في كلّ الاتجاهات كي يفلت مني. نزعت مريلته، وأنهضته من على كرسيه العالي، ثم تركته يتنزّه وسط هذا الفضاء الساحر، وسط أشجار النخيل والنباتات المختلفة.

في وسط الفناء، هناك تمثال ملاك من رخام ونافورة كبيرة ذات طابقين محاطة بالزهور. نظرت إلى ابني وهو يتسلل بين شجيرات مشذّبة بعناية، شجيرات تتشكل منها متاهات. خطرت ببالي صورة الطفل الصغير في فيلم *Shining* وهو يجري في ممرات المتاهة، فاقشعرّ بدني.

- لا تبتعد كثيراً يا تيو.

التفت نحوي وهو يبتسم ابتسامة عذبة، ويلوّح لي بيده.

تناولت هاتفي وأنا أتأمل الضرر الذي تعرَّض له جراء معاملة أنجيلا له. تشقَّقت شاشته، لكن الغشاء الواقي حماه بما يكفي كي لا يتعطل. شبكته إلى واي فاي الفندق، وحاولت، على مدى عشر دقائق، أن أعثر على أثر أوليفيا ماندلسون، صديقة كلير، والشاهدة

الوحيدة على اختطافها، لكن عبثاً. كنت أشكّ أنها تستطيع، بعد أن مرَّ على الحادث أكثر من عشر سنوات، أن تفيدني بشيء حاسم، لكنها كانت أحد السبل القليلة التي تبقت لي. لم أكن في حالة نفسية جيدة، لأنني كنت لا أكف عن التفكير في كلير التي اختطفت للمرة الثانية في حياتها.

انحنت النادلة نحوي، وقالت:

- هناك شخص يبحث عنك يا سيد بارتليمي.

التفتُّ نحو الباب الواقع جنب بار الكوكتيلات. إنها غلادس، أصغر الأختين كارلايل. كانت قد غيّرت فستانها الأبيض وارتدت سترة جلدية، وفستاناً ملوّنا بألوان زاهية، وحذاء ذا كعب عالٍ. نظرتُ إليها وهي قادمة تنساب بخفة وأناقة بين الفوانيس المغربية التي تحفّ الممر المبلط بالطين وسط العشب الأخضر.

تنفست الصعداء لما رأيتها. قبل أن أغادر منزلهما، كنت قد كتبت عنوان الفندق على بطاقة التعريف الخاصة بي، ووضعتها تحت كأس فوق الطاولة.

- مساء الخير يا غلادس، شكراً لأنكِ أتيتِ.

جلست أمامي على كرسي من قصب، لكنها لم تقُل شيئاً.

- أفهم جيداً ردّ فعل أختك.

- أنجيلا تعتقد أنك محتال وأنك تريد أن تبتزنا.

- أنا لا أريد مالاً.

- أعرف ذلك. بحثت عنك على الإنترنت. لا أعتقد أنك بحاجة إلى المال.

اقتربت النادلة، فطلبت منها غلادس أن تحضر لها كأس شاي أخضر بالنعناع.

- أرِني الصورة مرة أخرى، طلبت غلادس.

ناولتها الهاتف، وأخذتُ أطلعها على عدّة صور لكلير، فراحت تنظر إليها مندهشة، ثم ما لبثت الدموع أن بللت عينيها.

- إذا كنت لا تريد مالاً، فماذا تريد إذاً؟

- أريد أن تساعداني على العثور على المرأة التي أحب.

حكيت لها كلّ شيء على مدى ربع ساعة، دون أن تغفل عيناي عن تيو الذي كان يلاحق قطة الفندق المرقطة. كلّ شيء، منذ التقيت بكلير إلى أن تشاجرنا في جنوب فرنسا، والظروف التي قادتني إلى نيويورك. ولكنني لم أقُل لها إنّ كلير حامل حتى لا أثقل عليها أكثر من ذلك.

كانت تستمع إليّ وكلها آذان صاغية. وبدت طوال الوقت مندهشة وتكاد لا تصدّق ما تسمع. إنها فتاة ذكية. فكّرت في ما حكيته لها ملياً، ثم لاحظت قائلة:

- إذا كان ما تقوله صحيحاً، فلماذا لم تبلغ الشرطة؟

- لأن كلير ما كانت لترغب في ذلك.

- وكيف تأكدت من ذلك؟

- فكري قليلاً. لقد سعت على مدى عشر سنوات أن تبتعد عن طريق الشرطة، وأنا أريد أن أحافظ على السرّ الذي عملت على إخفائه طوال هذه السنين.

- أتحافظ عليه مقابل تعريض حياتها للخطر؟ سألت غلادس.

لم يكن لديّ جواب عن هذا السؤال. لقد اتخذت الخيار الذي بدا لي الأقل ضرراً، وكنت مصمِّماً على تحمّل نتيجة هذا الخيار حتى النهاية.

- إنني أقوم بكلّ ما بوسعي كي أعثر عليها، قلت شارحاً.

- هنا، في هارلم؟

- نعم. أعتقد أن جزءاً من حلّ لغز اختفائها يجب أن نبحث عنه هنا، في ماضيها.

- ولكنك روائي، ولست محققاً.

لم أقُل لها إن الأمرين لا يختلفان بالنسبة إليّ، بل حاولت أن أطمئنها عوض ذلك.

- مارك كاراديك، صديق لي وشرطي شهير، يواصل التحريات هناك في فرنسا.

بحثت عن ابني بنظراتي، فرأيته يحاول أن يتسلق جرّة من طين أطول منه مرتين.

- انتبه يا تيو.

لم يعبأ بتنبيهي.

أغمضت غلادس عينيها كي تفكّر. ذكّرني خرير مياه النافورة بقرص الموسيقى المهدئة التي كان يشغله طبيبي المعالج بوخز الإبر في قاعة الانتظار.

- في قرارة نفسي، ظلّ لديّ أمل ضئيل في أن تكون كلير على قيد الحياة، اعترفت غلادس. كنت في الرابعة والعشرين لما اختطفت ابنة أختي، وأتذكّر أني، في الأسابيع التي تلت، كان...

بحثت غلادس عن الكلمات المناسبة قبل أن تستأنف:

- ... كان لديّ إحساس أني مراقَبَة. لم يكن هذا الإحساس يستند إلى شيء ملموس، ولكنه كان واقعياً رغم ذلك.

تركتها تواصل.

- حتى عندما عثرت الشرطة على حمضها النووي في منزل ذلك الشاذّ، بقيتُ مقتنعة أن هناك قطعاً من الأحجية لا تزال ناقصة.

شيء غريب حقاً: هذا الإحساس كان يراود كلّ مَن كان معنياً بالقضية من قريب أو من بعيد.

- أحقاً أنكِ لا تعرفين مَن هو والد كلير؟

- نعم، وأعتقد أنه شيء غير مهم. كان لجويس عشاق كثيرون، لكنها لم ترتبط بأحد قط. لا شك أنك أدركت أن نساء عائلتنا حُرّات بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى.

- وما مصدر كراهيتكن للرجال؟

- ليست كراهية، إنها فقط رغبة في أن لا نكون ضحايا.

- ضحايا ماذا؟

- أنت شخص مثقف يا رافائيل. ولا حاجة إلى أنْ أشرح لك أنّ هيمنة الرجال على النساء تُمارَس في كلّ المجتمعات الإنسانية وفي كلّ العصور التاريخية. وهي هيمنة مبنيّة على ادِّعاء أنّ الرجل أسمى من المرأة، ادِّعاء ترسّخ في الأذهان إلى درجة أنه أصبح من الأمور الطبيعية المسلَّم بصحَّتها. وإذا أضَفتَ إلى هذا أننا نساء سوداوات...

- لكن، ما كلّ الرجال سواء.

نظرت إليّ وكأنني لا أفهم شيئاً على الإطلاق.

- القضية ليست فردية، قالت متبرمة. إنها قضية تقليد اجتماعي... طيب، لندع هذا الموضوع جانباً. أتمنى أن تكون أكثر مهارة في التحقيق والتحري منك في علم الاجتماع.

شربَتْ من كأس الشاي أمامها، ثم فتحت حقيبتها اليدوية الحمراء المصنوعة من جلد الثعبان.

- لا علم لي بما تبحث عنه هنا بالضبط، ولكنني أحضرتُ لك

نسخاً من هذه الأوراق، أعلنت وهي تُخرج من حقيبتها ملفاً من الورق المقوّى.

تصفحت الصفحات الأولى. إنها وثائق القضية التي كانت أنجيلا قد حصلت عليها عن طريق المحامي الذي لجأت إليه.

- لن تجد ضمن هذه الأوراق ملف الشرطة. لكن بما أنك جديد على القضية، قد تكتشف ما لم ننتبه إليه.

نظرَتْ إليّ غلادس وكأنها تقيّمني، ثم قررت أن تطلعني على الشيء الآخر الذي جلبته معها.

- حاول أن تذهب إلى هناك، نصحتني وهي تمدّ إليّ حلقة مفاتيح عُلِّق فيها مفتاح.

- ما هذا؟

- إنه مفتاح مستودع صغير فيه أمتعة جويس وابنتها. اذهَب إلى هناك. مَن يدري، فقد تعثر على شيء.

- ما الذي يجعلك تعتقدين ذلك؟

- بعد موت جويس ببضعة أسابيع، استأجرنا محلاً في هذا المستودع لنضعَ فيه بعض أمتعتها. ولمّا ذهبنا إلى هناك، فوجئنا بأنّ المحل الذي استأجرناه لم يكن جاهزاً بسبب المستأجرين السابقين الذين تأخّروا في إخلائه، فاقترح علينا صاحب المحل أن يخفض ثمن الإيجار وأن يخصِّص لنا محلاً آخر ريثما يفرغ المحل الأول.

كانت تتحدث بسرعة إلى درجة أني وجدت صعوبة في التركيز، لكن تتمة قصتها كانت مهمة.

- لكن احزر ماذا حدث؟ في الغد، ذلك المحل الذي كان من المفترض أن نتسلّمه أحرق عن آخره. الصدف كثيرة في هذه القضية، أليس كذلك؟

- ما هو الشيء الذي أرادوا أن يمسحوا أثره؟
- هذا دورك يا سيدي الروائي.
نظرت إليها صامتاً للحظة، وشعرت بالارتياح وأنا أنظر إليها، لأنّ بعضاً من ملامح وجهها ذكَّرتني بكلير.
تذكِّرُني بِكَم اشتقت إليك.
- شكراً على ثقتكِ بي.
حركتِ غلادس شفتيها مرتابة، ثم نظرت إليّ مليّاً وقالت:
- أثقُ بك لأن ليس بيدي إلّا أن أثق بك، حتى وإن لم أكُن متأكدة تماماً من أن الفتاة التي تتحدّث عنها هي كلير. لكنني أحذرك: لقد استغرق الأمر سنوات طويلة قبل أن نتمكن أنا وأختي من أن ننسى أختنا، وقد صار لنا اليوم أطفال، ولن أسمح لأيّ بائع أمل أن يدمِّر أسرتنا.
- أنا لا أبيع شيئاً، قلت مدافعاً عن نفسي.
- أنت روائي، وتبيع قصصاً جميلة.
- واضح أنكِ لم تقرئي كتبي.
- إذا كانت كلير على قيد الحياة، فاعثُر عليها. هذا كلّ ما أطلب منك.

2.

كان المطر يهطل منذ غادر مارك نانسي.
عَوْد على بدْء. عليه أن يقضي من جديد ساعة ونصف في الطريق باتجاه الشرق، لكن الطريق هذه المرة ليست ممتعة كما كان الحال بعد الظهيرة، بسبب الشاحنات الكثيرة والطريق الزلقة.
عاد الشرطي إلى مقرّ الدرك في فالسبورغ. كان ميزوليه غائباً

كما ظنّ، لكن سولفيغ كانت تقوم بساعات إضافية. وجدها غارقة في الفيسبوك على شاشة حاسوبها.

- هل قررت أن تقضي الليل في منطقتنا الجميلة يا نقيب؟

لم يكُن لدى كاراديك استعداد للمزاح.

- أين ميزوليبه؟

- أظن أنه ذهب إلى منزله.

- وأين يقع منزله؟

استلّت الدركية ورقة من درج الطابعة، ورسمت له خارطة سريعة.

- العقيد يسكن هنا، قالت وهي تضع علامة بالقلم. في كرشات، وهو مكان صغير تائه بين ستاينبورغ وهاتمات.

اتكأ الشرطي على منضدة الاستقبال، وأخذ يدلّك صدغيه كي يتخلّص من بداية صداع في الرأس. أحسَّ أنّ هذه الأسماء ذات النبرة الألزاسية التي تكاد تتشابه كلياً، بدأت توتر أعصابه.

وضع الخارطة في جيبه، وشكر سولفيغ قبل أن يعود إلى سيارته تحت المطر. بعد أن قطع ثلاثين كيلومتراً، خيَّم الليل. رأى في الظلام أن إشارة نقص الزيت في المحرك أضاءت. **يا له من حظ عاثر!** منذ أسابيع وسيارته تعاني من تسرّب في خزان الزيت، ولكنه كان قد قام بفحصها بنفسه قبل أن يغادر باريس. تمنى أن لا يتفاقم الأمر. بعد بضعة كيلومترات، انطفأت الإشارة. إنذار كاذب إذاً. إن سيارته تشبهه، فهي تعبة، ومترهلة، وقادرة على أن تظهر بعض التراخي في الأداء، ولكنها لا تستسلم أبداً.

اتبع تعليمات سولفيغ، فغادر الطريق د 6، لكي يمضي في ممرّ ضيق مترب وسط الغابة. وفي اللحظة التي اعتقد أنه أخطأ الطريق،

إذ بالممر يفتح على فرجة صغيرة يتوسطها بيت ريفي ألزاسيّ، أشبه بخربة.

كان المطر قد توقف. ركن كاراديك سيارته ومشى بضع خطوات في الوحل. كان فرانك ميزولييه جالساً في مدخل المنزل على كرسي وطيء، تحت ضوء مصباح عارٍ، وبجنبه عدد من قنينات الجعة.

- كنت أنتظرك يا نقيب. كنت متأكداً أنك ستعود، قال وهو يرمي إليه بقنينة جعة.

أمسك بها مارك في الهواء.

- تعال اجلس، اقترح ميزولييه وهو يشير إلى مقعد خشبي تقليدي كان قد وضعه بجانبه.

فضل كاراديك أن يبقى واقفاً، وأشعل سيجارة. شرع الدركي يقهقه.

- الحقيبة الصفراء طبعاً، هذا هو الخطأ الذي ارتكبته، كأنني مبتدئ.

لم يُبدِ مارك أيّ ردّ فعل. بدا ميزولييه كما لو أنه يخضع لاستجواب، مستعداً للاعتراف. لا داعي للأسئلة في مثل هذه الحالة، بل يكفي الاستماع إلى الأجوبة. وشيئاً فشيئاً، أخذ الدركي يعترف.

- يجب أن تعلم أني لم أكُن هكذا في السنوات الماضية، لم أكُن قربة الخمر التي تراها أمامك الآن. كنت متزوجاً، وكان لديّ ولد. كنت شرطياً كفؤاً وطموحاً. هات سيجارة من فضلك!

ناوله مارك العلبة والولّاعة. أشعل ميزولييه واحدة، وأخذ نفساً طويلاً، وتغرغر بالدخان لحظة قبل أن ينفثه.

- هل تريد أن تعرف ماذا حدث فعلاً خلال تلك الليلة الشهيرة؟ يوم الخميس 25 أكتوبر 2007، قضيت المساء في ميتز، في شقة عشيقتي جولي، وهي بائعة في محلات غاليري لافاييت. هل تعرف تلك العبارة الشهيرة: «تتبعني، أهرب منك، تهرب مني، أتبعك»؟ إنها تلخِّص علاقتنا. في تلك الليلة تشاجرنا مرة أخرى، وبالغنا في شرب الخمر وتناول الكوكايين. وعند منتصف الليل، ركبت سيارتي وأنا سكران ومخدر تماماً، فكان ذلك بداية سقوطي.

أخذ نفَساً عميقاً من سيجارته، وشرب جرعة من قنينته قبل أن يستأنف:

- كانت قد مضت حوالي ساعة على انطلاقي بالسيارة، عندما وقع ذلك. كنت من السكر بحيث إني تهتُ عن الطريق، وأخذتُ أحاول استدراك الأمر. وفجأة رأيتها أمام سيارتي، خرجت لا أدري من أين، وتسمَّرت في مكانها كظبية أمام أضواء سيارتي.

- كلير كارلايل، قال مارك مخمِّناً.

- لم أعرف اسمها إلّا بعد وقت طويل. كانت في غاية الشحوب، ولم تكن ترتدي سوى سروال نوم خفيف وقميص. كان المنظر فظيعاً وجميلاً في الوقت نفسه. ضغطت على الفرامل بكلّ ما أملك من قوة، لكنني صدمتها، فسقطت على الأرض.

توقف عن الكلام لحظة كي يمسح أنفه الذي كان يسيل بكمّه كما يفعل الأطفال الصغار.

- لم أدرِ ماذا أفعل. خرجت من السيارة وانحنيتُ عليها. كانت طفلة خلاسية جميلة ونحيفة جداً، في حوالي الخامسة عشر أو السادسة عشرة من عمرها. وكانت على الأرض بجانبها حقيبة صفراء. اعتقدت أوّل الأمر أني قتلتها، ولكن حين قرّبت وجهي من

وجهها أدركتُ أنها تتنفس. كانت تظهر بعض الخدوش، لكن لا جروح ظاهرة.

- وماذا فعلت؟

- لن أكذب عليك وأقول لك إني لم أفكر في الهرب. إذا اتصلت برجال الإطفاء أو سيارة الإسعاف، فسيأتي رجال الدرك لا محالة. كانوا سيطلبون مني أن أنفخ في البالون، ويُجْرون تحليلاً على لعابي. وإنها لورطة كبيرة أن يتم إيقاف دركي سكران ومنتشٍ أيضاً. أضِفْ إلى ذلك أني سأكون مجبراً على أن أبرِّر ما حصل لزوجتي التي كنت قد أخبرتها أني سأتأخر في العمل.

- ماذا فعلت إذاً؟

- خفت. حملت الطفلة بين ذراعي ووضعتها في المقعد الخلفي. تناولت حقيبتها من على الأرض، واستأنفت السير نحو سافيرن من دون أن أكون متأكداً ممّا سأقدِم عليه من بعد. وفي الطريق، دفعني الفضول إلى أن أفتش الحقيبة لعلّي أجد أوراق تعريفها و. . . اللعنة! لم يسبق لي قط أن رأيت مثل ذلك الكَمّ من المال. عشرات الحُزم. مئات الآف من اليوروهات.

- المال الذي افتدي به الطفل بواسو. . .

أومأ ميزولييه بالإيجاب.

- كنت مذهولاً. لم أفهم شيئاً. كيف حصلت هذه الفتاة على هذا القدر الكبير من المال؟ فضلت أن لا أفكر في الأمر. كان لدي أهم من ذلك لأقوم به. والغريب في الأمر أني، وأنا أمضي في الطريق، استعدتُ الأمل. اعتقدتُ في تلك اللحظة أني لا أزال قادراً على تغيير الأمور. أخت زوجتي تعمل ممرضةً في قسم الطوارئ في مستشفى سافيرن. تردّدت في الاتصال بها. وفي النهاية، اخترت

حلاً آخر: لكي لا أثير الانتباه، وضعت الفتاة وحقيبتها خلف المستشفى قرب المصبغة، وذهبت إلى حال سبيلي. بعد بضع كيلومترات، اتصلت بالمستشفى مستعملاً رقماً مخفياً كي أخبرهم بوجود جريح وأنهيتُ المكالمة على الفور.مكتبة .. سُر مَن قرأ

امتصّ الدركي قنينة الجعة كما لو أنه يزوّد محرّكاً بالوقود. كان وجهه السمين يتصبب عرقاً. وكان قميصه الأزرق السماوي، قميص بدلته الرسمية، مفتوحاً وتظهر من تحته شعيرات رمادية.

- ولمّا كان الغد، ذهبت إلى المستشفى في الصباح الباكر. ادّعيت أني أقوم بتحريات حول سرقات تتعرّض لها مخازن الأدوية التابعة لبعض الصيدليات منذ عدة شهور، فتمكَّنت من أن أطرح بعض الأسئلة على العاملين في المستشفى، وسرعان ما علمت أنّ الفتاة ليست موجودة في المستشفى. وسألت أخت زوجتي عن الموضوع سراً، فأكَّدت لي أنّ مركز استقبال المكالمات توصَّل بمكالمتي أمس فعلاً، إلّا أنّ الممرضات لم يجدنَ أحداً في المكان المُشار إليه. لم أصدق ما سمعته. قلت في نفسي: لا شك أنّ الصبية استعادت وعيها وهربت. لحسن الحظ، اعتقدوا أن المكالمة لم تكن إلّا مكالمة هازلة من مثل التي يتلقّونها أحياناً، فلم يسجلوها ولم يخبروا أحداً بها.

عاد المطر يهطل. كان ينبعث من أوراق الأشجار صوت حفيف متواصل. وصارت الغابة، لما حل الليل، تبعث على الضيق والقلق. كانت النباتات حول المنزل كثيفة، لكن خادعة، وعاجزة عن أن تمنع عدواً محتملاً من أن يتسلّل عبرها إلى أن يصل إلى المنزل. كانت قطرات كبيرة تتساقط على وجه كاراديك وعلى كتفيه، لكن لم يبدُ أنه انتبه لذلك، لأنه كان متشوقاً لمعرفة بقية القصة.

- تجاوزتني الأحداث. عدتُ قلقاً إلى المكان الذي صدمت فيه الفتاة، وهناك رأيت الدخان المتصاعد وسط الغابة.

بدا الدركي محموماً مضطرباً وكأنه يعيش الأحداث من جديد:

- ما أن اتّضح ما حدث في منزل كيفر، حتى أدركت أنّ الصبية واحدة من ضحاياه، وأنها نجحت في الهرب. بسبب البطء في تحليل الحمض النووي، كان على الشرطة أن تنتظر حوالي أسبوعين ليُعرف اسمها: كلير كارلايل. كلّ الناس اعتقدوا أنها ماتت، إلّا أنا! وبقيت أتساءل عن مصيرها وكيف استطاعت أن تفلت، ولماذا لم يشر أحد إلى الكمّ الهائل من المال الذي كان في منزل كيفر، والذي كان واضحاً أنّها سرقته منه، إلى أن حمل إليّ ماكسيم بواسو الجواب على طبق من ذهب... بعد تسعة أعوام.

سأله كارادِيك وهو هادئ تماماً:

- عدا المال، هل كان في الحقيبة شيء آخر؟

- هه؟

- فكّر جيداً.

وجد ميزولييه صعوبة في التركيز.

- أوه... نعم، بطاقة هاتف و... دفتر سميك غلافه أزرق.

- وهل قرأت ما بداخله؟

- لا، كنت مشغولاً بأشياء أخرى أهمّ!

صارت تمطر بغزارة. لما تبين لكارادِيك أنه جمع من المعلومات ما يكفي، رفع ياقة سترته وذهب إلى حال سبيله.

تبعه ميزولييه إلى أن وصل إلى السيارة وهو يجرّ رجليه الثقيلتين في الوحل، ويناشده قائلاً:

- هل ما زالت تلك الفتاة على قيد الحياة؟ أنا متأكد أنك تعرف يا نقيب. فهلّا أخبرتني؟ إننا زملاء.

ركب مارك الرينج روفر دون أن ينظر إلى زميله.

- هذه الحكاية قتلتني! صاح حين شغل مارك المحرك. لو كنت بلّغت الإسعافات لمّا صدمتُها لتمكنت الشرطة من استجوابها ولتمكّنت من إنقاذ الفتيات الأخريات. اللعنة! لكني ما كنت لأستطيع أن أعرف ما سيحدث بعدها!

كانت السيارة قد ابتعدت، لكن الدركي كان لا يزال يصيح خلف كاراديك دامع العينين:

- ما كنت لأستطيع أن أعرف ما سيحدث بعدها!

3.

رغم أنّ حلول الليل والناموس طردانا من فناء الفندق، فإننا لم نخسر شيئاً حين انتقلنا إلى الصالون، فصالون نادي البريدج مكان دافئ خفيف الإضاءة، غني بالخشب والسجاد العتيق، ويستقبلك بترحاب كي تجلس في إحدى كنباته الوثيرة. كنت كلما جلست في هذا المكان المزيّن بالتحف الغريبة المنتقاة بعناية إلّا وشعرتُ كأني حللتُ ضيفاً على أحد المستكشفين الإنجليز العائدين من رحلة استكشافية. يذكّرني جمال هذا الصالون بنادي السنتور العزيز على قلبَي بلاك ومورتيمر، وبمكتبة البروفسور هنري هيغينز في فيلم **سيدتي الجميلة**.

اقترب تيو من المدفأة، وحمل سِطام النار.

- لا، لا، ضعه يا حبيبي! إنه ليس لعبة للأطفال!

تدخّلتُ قبل أن يؤذي نفسه، وحملته بين ذراعي، ثم أجلسته جنبي وانشغلتُ بتصفّح الملفّ الذي سلّمتني إياه غلادس. كنت قد تصفّحته من قبل، ولكنني اصطدمتُ بالنسخ المنسوخة، من نسخ أخرى بالأسود والأبيض، ما جعلها عصيّة على القراءة. أضِفْ إلى ذلك أنها كانت ملأى بمصطلحات تقنية باللغة الإنجليزية.

انهمكت في قراءة الورقة التي أثارت فضولي: نسخة من الاتصال الذي توصلت به الشرطة على الرقم 911، رقم الطوارئ. يوم 25 يونيو 2005، على الساعة الثالثة عصراً، بلَّغ صوت نسائي عن «اعتداء عنيف» في منزل جويس، رقم 6 شارع بيلبري. قال الصوت ضارعاً: «أسرعوا، إنها تُقتل». وبحثتُ في كومة الأوراق عن التقرير المتعلق بتشريح جثة جويس الذي يقدّر أن الوفاة حصلت على الساعة الرابعة عصراً تقريباً، لكن من الممكن أن تكون قد حصلت ساعتين قبل أو بعد ذلك.

- ننزل، بابا! من فضلك!

أراحني تيو من ملاحقته حوالي دقيقتين ونصف - أي دهراً بكامله. أنزلته من على الكنبة، وعدتُ إلى أوراقي.

أرسِلت سيارة شرطة إلى منزل جويس. على الساعة الثالثة وعشر دقائق بعد الزوال، وصل الضابطان باول وغوميز إلى عين المكان. بدا المنزل فارغاً. قاما بتفتيش محيط المنزل، ولم يعثرا على ما يُثير الشك. ونظرا من خلف النوافذ إلى الصالون، والمطبخ، والحمّام، وغرفة الطابق الأرضي دون أن يلاحظا شيئاً يدعو إلى القلق. لم يكن هناك أيّ أثر لكسر باب المدخل، أو لاعتداء، أو لدم. فخلصا إلى أنّ الاتصال كان مزحة سخيفة. اتصال من النوع الذي كانت الشرطة تتلقى منه العشرات حينذاك، وخاصة

في حي هارلم، اتصالات كانت سياسة العمدة رودولف جيولياني وخَلَفُه سبباً مباشراً فيها، فسياسة «عدم التسامح» التي طبّقاها أدّت إلى انحرافات خطيرة في ممارسة السلطة: مبالغات في مراقبة الأشخاص والتأكّد من هويتهم، مبالغات في تطبيق القانون، السعي إلى تحقيق الأرقام كان ضحيته الأولى السود والأميركيين من أصول لاتينية. وقد دفع الحنق والغضب من هذه المضايقات البوليسية بعض سكان الأحياء إلى أن يصعّبوا على الشرطة عملها كما صعّبَت حياتهم، وذلك باللجوء إلى اتصالات كاذبة. لم تستمر هذه الممارسات، ولكنها بلغت أوجها خلال صيف ذلك العام.

ورغم ذلك، تمّت معرفة مصدر الاتصال، وهو هاتف عمومي في لوور إيست سايد، يقع عند تقاطع شارعَي باوري وبوند، أي في مكان يبعد عن هارلم بحوالي خمسة عشر كيلومتراً. . .

ماذا يُستخلص من ذلك؟ أنّ الاتصال كان كاذباً؟ وإذا لم يكُن الأمر كذلك، فهذا يعني أن المرأة التي اتصلت بالرقم 911 لم تكن، بأي حال من الأحوال، شاهدة عيان على الاعتداء المزعوم على جويس. فكيف علمت بالاعتداء إذاً؟ ربما كانت جويس قد أخبرتها بذلك عبر الهاتف. في هذه الحالة، لماذا لم تتصل جويس بنفسها بالرقم 911؟ ولماذا لم يلاحظ الشرطيان اللذان التحقا بعين المكان أي شيء؟ إنه دوران في حلقة مفرغة. واضح أن شخصاً ما لم يقُل الحقيقة، بل ربما لم يكُن كلامه كله إلّا كذباً في كذب.

رفعتُ رأسي عن الأوراق. كان ابني يحاول أن ينال إعجاب فتاة شقراء جميلة تحتسي كأساً من المارتيني قرب المدفأة. أشارت إليّ بيدها إشارة مشجّعة، فابتسمت لها ابتسامة مؤدبة وأنا أفكر في ت، صديقي الكاتب، المطلّق، زير النساء، الذي يدّعي أنّ ابنه،

وهو لا يتجاوز السنتين، «مغناطيس يجذب الفتيات الجميلات»، وأنه يصطحبه كلما أراد أن يتعرّف إلى فتاة.

عدت إلى الأوراق. الشرطية التي كُلفت بالتحقيق في قضية موت جويس كانت امرأة من أصل كوري اسمها ماي سو-يون. كانت قد طلبت إجراء فحص مفصَّل لفواتير هاتفَي جويس الثابت والمحمول. أظهرت الفواتير المفصّلة أن جويس اتصلت في الليلة السابقة لوفاتها بشخص يُدعى مارفين توماس، في السابعة والعشرين من عمره، وسبق أن اعتُقِل عدة مرات في قضايا متعلقة ببيع المخدرات وبالسطو المسلح المصحوب بالعنف. ظهر رقم بائع المخدرات ثلاث مرات ضمن الأرقام التي اتصلت بها جويس خلال الأسبوعين الأخيرين من حياتها، فأمرت ماي سو-يون أن يُقبض عليه على أساسه.

على الورق، يبدو مارفين توماس متهماً مثالياً، إذ إن ملفّه القضائي يشهد أنه من أصحاب السوابق المتكرّرة، وأنه معروف بما يمارسه من عنف على الآخرين. عندما اعتقلته الشرطة للتحقيق معه، أكّد أنه باعَ كميات مهمة من الهيروين لجويس كارلايل، لكن التحقيق برّأه من الاعتداء عليها، بحيث كان لتوماس دليل قاطع على براءته، فقد كان عند وفاة جويس برفقة صديقين في نيوجيرسي بأطلنتيك سيتي. وقد سجلت كاميرات المراقبة تصرّفاته المستفزة الداعية إلى العراك في أحد الفنادق، والمنتجعات، والكازينوهات الموجودة في المدينة.

بعد ذلك، أثبت التقرير النهائي المتعلق بتشريح الجثة أن جويس ماتت جراء جرعة هيروين زائدة بالفعل، وبما أنه لم يرد في التحقيقات ما يخالف ذلك، فقد اقترحت الملازمة الأولى سو-يون إيقاف التحقيق في القضية.

فركتُ عينَي. كنت مرهقاً ومحبطاً تماماً. فبالرغم من أني علمت كثيراً من الأشياء عن القضية، إلّا أنني لم أكن أتقدّم في تحرياتي. ما العمل الآن؟ هل أسعى إلى العثور على بائع المخدرات؟ هل أحاول أن أحصل على شهادات أكثر دقة من الضابطين باول وغوميز؟ هل أتّصل بماي سو-يون؟ لا طريق من هذه الطرق بدا لي صالحاً أو مؤدّياً إلى الكشف عن الحقيقة. لقد مرّ على القضية أحد عشر عاماً، وتمّ إيقاف التحقيق فيها سريعاً. فلا أعتقد أنّ هؤلاء الأشخاص سيتذكّرونها بدقة. أضِف إلى ذلك أنّ الوقت يداهمني، وأنه لم يكن لي أي معارف تخوّلني التواصل مع شرطة نيويورك.

- مصّاصة، بابا!

تعب ابني من الحركة، فعاد إليّ وهو يفرك عينيه. وأنا أبحث في جيوبي عن المصّاصة، وقعتُ على المفتاح الذي كانت غلادس قد عهدت به إليّ.

كان الوقت متأخراً، ولكننا في المدينة التي لا تنام أبداً، وكانت حلقة المفتاح تؤكّد ذلك: Coogan's Bluff Self Storage - مفتوح 24/ 7.

المشكلة أني كنت قد منحت عطلة للمربية ماريك، ولا أعرف أيّ أحد هنا أعهد إليه بتيو. ملتُ نحو ابني، وهمستُ في أذنه:

- هل تعرف ما سنفعل الآن يا صغيري؟ سنذهب إلى التنزّه معاً.

12

هارلم ليلاً

سيجيء الموت، وستكون له عيناكِ.

تشيزاري بافيزي

1.

فجأة، أحسّ فرانك ميزوليبه بالبرد، فترك قنينات الجعة فوق الآجر الموضوع على الأرض مباشرة، ودخل إلى المنزل.

كان صالونه يشبهه: متعباً، متهالكاً، مثيراً للشفقة. إنه عبارة عن غرفة واطئة السقف، تعمّها الفوضى، جدرانها مغطاة بخشبٍ متداعٍ للسقوط، ومزيّنة بجوائز صيد علاها الغبار: رأس خنزير بري محشو بالقش، قرون أيل، دجاجة أحراج محنّطة.

أشعل النار في المدفأة وشرب جرعة من نبيذ الريزلينغ، لكن لم يكن ذلك كافياً كي يحس بالدفء وينسى قصة كلير كارلايل. لم يتبقَّ في مخزونه الخاص إلّا قليل من الحشيش، وحبتان أو ثلاث من الحبوب المخدّرة. إنه يحتاج إلى أكثر من ذلك هذا المساء. بعث برسالة نصية إلى مزوّده لوران إسكو، وهو بائع مخدرات يطلق على نفسه اسم إسكوبار.

إنّ المخدرات منتشرة في الأرياف أيضاً، إلّا أنها حقيقة لا تتطرق إليها نشرات الأخبار التلفزيونية. في كلّ القضايا التي عمل عليها ميزولييه (عمليات سطو، اعتداءات، انتقامات. . .) كانت المخدرات حاضرة دائماً. حتى في تلك القرى الخضراء البعيدة المنعزلة التي لا يتعدّى عدد سكانها ثلاثمئة نسمة، يمكن للمرء أن يعثر على الكوكايين خلف أوراق الزهور.

حسناً، سأحضر لك غرامين، أجاب بائع المخدرات على الفور. في انتظار مجيئه، تهالك ميزولييه على الكنبة. إنه يشفق على نفسه، لكن الشفقة لا تكفي كي تغير حياته ولو تغييراً طفيفاً. تلك المعركة التي تجري في ساحة نفسه بين الإرادة والتقاعس، كان دائماً ما يفوز فيها هذا الأخير. فتح الدركي أزرار قميصه، وأخذ يدلّك عنقه. وجد صعوبة في التنفّس، وأحسّ بالبرد. كان في حاجة إلى الدفء وإلى رائحة كلبه المهدئة، لكن ميستوفل العجوز مات في فصل الربيع المنصرم.

هل أنا مذنب أم بريء؟ بما أنه لم يكن قادراً على أن يحسم في الأمر، تخيّل نفسه وهو واقف يدافع عن نفسه أمام محكمة متخيَّلة. الوقائع ولا شيء غير الوقائع: قبل تسع سنوات، كان قد صدم صبية لا مبرِّر لوجودها في ذلك الطريق ليلاً. حملها إلى المستشفى وبلّغ الشرطة. صحيح أنه كان سكران مخدّراً إلى أقصى درجة، ولكنه قام بالأساسي. فإذا كانت الفتاة، بعد ذلك، قد فضلت أن تهرب، فإنها مذنبة هي الأخرى مثله تماماً!

سمع صوت سيارة قادمة.

إسكوبار لم يتأخر في القدوم.

ميزولييه، عبدٌ للكوكايين، نهض على الفور.

فتح الباب وخرج إلى الشرفة، فرأى خيالاً تحت المطر. كان شخص ما يتقدّم نحوه، لكنه ليس إسكوبار.

عندما اتضحت معالم الخيال، رأى الدركي مسدساً مصوّباً إليه.

فتح فمه مندهشاً، لكنه لم يستطِعْ أن ينبس ببنت شفة.

هل أنا مذنب أم بريء؟ يبدو أنّ شخصاً آخر أصدرَ الحكم بدلاً منه. أحنى ميزوليبه رأسه مستسلماً.

في نهاية المطاف، ربما من الأفضل أن ينتهي الأمر على هذا النحو، قال فرانك في نفسه قبل أن تنفجر جمجمته.

2.

هارلم. التاسعة مساء.

نزلنا من سيارة الأجرة قرب محطة مترو شارع إدجكومب. كان المستودع الذي جئنا إليه يقع وسط مجموعة من العمارات المخصصة لذوي الدخل المحدود، وهي عمارات على شكل صليب تبدو وكأنها تمتد إلى ما لا نهاية على مساحة مثلثة تقع بين نهر هارلم والشارع رقم 155.

كان الهواء حاراً رطباً، والحي شحيح الإنارة. ورغم ذلك، كان عددٌ من السكان يجلسون جماعات خارج المنازل، فوق الحيطان الواطئة والعشب.

كان المشهد مشحوناً، ولكنه لا يختلف عمّا نراه في بعض جهات الإيسون حيث عشتُ طفولتي، إلّا أنّ الناس في هذا المكان كلهم سود. قلت لنفسي إنّ هذا المشهد يشبه ما نراه في أفلام سبايك لي أيام كان سبايك لي يُخرج أفلاماً جيدة.

في فتور الليل، فتحتُ عربة تيو وأجلسته فيها. ولكي أسلّي ابني، أخذت أدفع العربة مقلّداً صوت سباق سيارات الفورمولا 1. كان الناس ينظرون إلينا بفضول، ولكنهم تركونا وشأننا. بعد بضع دقائق من البحث، وصلتُ لاهثاً إلى المبنى الذي كنت أبحث عنه. دخلت المكان وقدّمت نفسي. كان المسؤول عن المستودع، في تلك الساعة المتأخرة، طالباً مترفّعاً قليلاً. كان يجلس خلف حاسوبه الماكبوك، وكان جسده المتهالك على الكرسي يسبح داخل قميص يحمل شارة جامعة كولومبيا. كان وجهه القاسي مليئاً ببثور حبّ الشباب، ويعلوه شعر منفوش على الطريقة الأفريقية، ويضع نظارات واسعة الإطار، لا تخفي رغم ذلك حاجبيه الكثّين.

- هذا المكان غير صالح للرضّع، قال وهو يقوم بنسخ بطاقة تعريفي. ألا ينبغي أن يكون في سريره في مثل هذا الوقت؟

- إنه في عطلة. دار الحضانة لا تعمل غداً.

نظر إليّ نظرة غاضبة وكأنه يسأل: «أتسخر مني يا رجل؟». وكان الأمر كذلك فعلاً.

رغم هذا الخلاف العابر، أطلعني على مكان المستودع بواسطة خريطة.

شكرته، ودفعت العربة وسط المبنى من جديد وأنا أقلّد صوت سيارات السباق.

- سيارة بابا! بسرعة بابا! بسرعة! كان يقول تيو كي يشجّعني.

حين وصلت أمام المستودع، قلدتُ صوت انزلاق قبل أن أوقف عربة تيو ثم أنزلت ابني من العربة، ورفعت الستار الحديدي.

كان هناك غبار طبعاً، لكن أقل ممّا تصورت. حملت تيو بين

ذراعَي (الذي كان يحمل هو بدوره الكلب فيفي بين ذراعَيه)، ضغطت زر المصباح، ودخلت المستودع.

ذاكرة الماضي.

كان يجب أن أبقي في ذهني الظروف التي تم فيها جمع هذه الأشياء في المستودع. كانت غلادس وأنجيلا قد وضعتا هذه الحاجيات هنا بعد وفاة جويس سنة 2005، أي سنتين قبل أن يُعثَر على حمض كلير النووي في منزل هاينز كيفر. في تلك الفترة، لا شك أن شيئاً من الأمل في العثور على الفتاة المختطفة وتمكينها من الحصول على هذه الحاجيات التي تركتها أمها كان لا يزال يراود الأختين.

كان المستودع واسعاً، لكن تعمّه الفوضى. تقدّمت وسط الأشياء الموضوعة كيفما اتفق برفقة ابني، وكأنني ذاهب به إلى مغارة علي بابا كي يكتشفها. بدا تيو متحمّساً للمغامرة، فأخذ يُبدي إعجابه بكلّ ما نصادفه: أثاث من خشب، دراجة، مزلاجة، ثياب، أدوات مطبخ.

- ننزل بابا، من فضلك!

أنزلته على الأرض كي يلعب. كلّ شيء يزول بالغسيل، قلت في نفسي، سأحمّمه حين نعود إلى الفندق.

وبدأت العمل بجدّ. قد يكون من بين هذه الحاجيات المتراكمة دليل يدين شخصاً ما بما يكفي، بحيث دفعه ذلك إلى محاولة إضرام النار فيها.

أقراصُ أفلام، وأقراص موسيقى، وجرائد، وكتب. روايات ودراسات جادة: **التاريخ الشعبي للولايات المتحدة الأميركية** لهوارد زين، **تصنيع الموافقة** لنعوم تشومسكي، **الغاب** لأبتون

سنكلير، **أهالي قعر المجتمع** لجاك لندن، **لا شعار: إعلان الحرب على الماركات التجارية** لنعومي كلاين، وسير ذاتية أيضاً: سيرة لوسي ستون، وآن برادن، وبيل كلنتون، ومالكوم إكس، وتسعة من ليتل روك، وسيزار تشافيز، بل عثرت أيضاً على نسخة من كتاب **الهيمنة الذكورية** لبيير بورديو مترجماً إلى الإنجليزية. كانت جويس كارلايل مثقفة كأختيها، ومناصرة لقضايا المرأة، ومتعاطفة مع اليسار المتطرف، وهو شيء لا نصادفه كثيراً في الولايات المتحدة.

عثرت أيضاً على ملابس طفلة صغيرة لا بدّ أن تكون ملابس كلير، وعلى كتبها المدرسية. أخذت أتصفّح بشيء من العاطفة دفاترها المدرسية المليئة بكتابة كلير المجتهدة. من بين واجبات منزلية أخرى، عثرت على إنشاء من تأليفها يحمل عنوان: **لماذا أريد أن أصبح محامية**. كان تحليلها غنياً بالأفكار، ومليئاً بالاستشهادات برالف نادر وأتيكوس فينش (كان ذلك سنة 2005، أي قبل أن تكتشف أميركا أنه وغد). وأنا أقرأ تلك السطور، تذكرت شيئاً: مارلين دولاتور أكَّدت لي أنّ كلير كانت تريد أن تصير محامية. حين اختطفت، كانت هذه الرغبة تبدو مشروعاً فكّرت فيه بعمق وروية واستقرَّت عليه. فما الذي حدثَ كي تقرِّر أن تصبح طبيبة؟ تعرّضها للاختطاف على الأرجح. وربما الرغبة أيضاً في أن تساعد الآخرين بشكلٍ ملموس. خزّنت المعلومة في ذهني، وواصلتُ البحث.

بعد خمس وأربعين دقيقة، تعب تيو. كان قد تنقل في كلّ أرجاء المستودع، ما جعله متسخاً تماماً. أضجعته في عربته الصغيرة، ولم أكتفِ بذلك -أنا الأب غير الصالح- بل شغَّلتُ له على شاشة هاتفي المشعورة رسوماً متحركة كي تساعده على النوم.

قد أضطرّ إلى قضاء الليل في هذا المكان، لكن لن أسمح

لنفسي أن أغادره خاوي الوفاض. هناك عمل كثير ينتظرني، فالأوراق التي عليّ أن أطّلع عليها كثيرة جداً: فواتير، كشوفات تتعلق بحسابها البنكي، وأخرى برواتبها. . . لحسن الحظ أن جويس كانت منظّمة، فعمدت إلى ترتيب كلّ أوراقها في ملفات من الورق المقوّى.

وبينما كان ابني غارقاً في النوم، جلست القرفصاء وشرعت أتصفّح الأوراق. لا شيء يثير الانتباه. كانت جويس مكلفةً بالأرشيف في إحدى المدارس الإعدادية في المنطقة. وكانت أمها تأجّر لها منزلها بثمن زهيد. كانت جويس قليلة الإنفاق، ولم يكن لديها مصدر آخر للعيش غير عملها. أثارت انتباهي وسط هذا الركام من الأوراق سلسلة من المقالات صدرت في جريدة **نيويورك هيرالد**، والتي قامت جويس بتقطيعها والاحتفاظ بها في ملف بلاستيكي. تصفّحتُ العناوين: «تراكم ديون الطبقة الوسطى»، «الفوارق الطبقية تحطّم أرقاماً قياسية في أميركا»، «الحق في الإجهاض ما زال مطلباً بَعيد المنال»، «نصف أعضاء الكونغرس مليونيرات»، «وول ستريت ضد مين ستريت». ما الذي يربط بين هذه المقالات إذا استثنينا طابعها «التقدمي»؟ بعد أن قرأتها بسرعة، لم أعثُر على أيّ رابط بينها.

وقفت كي أتمطّى. يصعب على المرء أن لا ييأس في مثل هذه الحالة. ربما يكون مارك قد عثرَ على شيء ما من خلال تحرياته هناك؟ حاولت الاتصال به إلّا أنّ الاتصال من هذا المكان متعذّر.

عدت إلى تصفّح ملفات جويس. كتيب إرشادات لتركيب خزانة من عند ايكيا، كتيبات خاصة بطرق الاستعمال وأوراق كفالات: فرن كهربائي، هاتف نقال، آلة غسيل، آلة تحضير القهوة. . .

توقّف. عدتُ إلى الوراء. كان قد أثار انتباهي إيصال شراء هاتف نقال يحمل تاريخ 30 مايو 2005. يومان فقط بعد اختطاف كلير!

وقفت من جديد وأنا في قمّة الانفعال. في تلك الملفات المتعلقة بقضية جويس التي سلّمتني إياها غلادس، كنت قد قرأتُ أنّ الشرطة قامت بجردٍ للمكالمات الهاتفية المتعلقة بالهاتف الثابت والهاتف المحمول «الرسمي» لجويس. لكن يبدو أنّ هذه الأخيرة كانت تملك هاتفاً محمولاً آخر، رقماً من دون اشتراك، وببطاقة مدفوعة مسبقاً، يصعب تقفّي أثره. الغريب في الأمر والمحيّر ليس أنه كان لدى جويس هاتف آخر، وإنما أنها اشترته بعد ساعات فقط من اختطاف كلير. خطرت لي عدة فرضيات، ولكنني حاولت أن أحتفظ بهدوئي وبرودة أعصابي. عدت إلى العمل متحمّساً. صحيح أنّ المشاكل لا تأتي فرادى، لكن يبدو أن الحظوظ هي الأخرى لا تأتي فرادى.

الملابس.

لعبت إحدى بدلات أبي دوراً حاسماً في حياتي حين كنت مراهقاً. كانت أمي تخاف أن يخونها أبي، فلجأت إلى طريقة مبتكرة لمراقبته (أتحدث هنا عن عصر ما قبل التاريخ طبعاً، حين لم يكن هناك لا إنترنت، ولا فيسبوك، ولا تطبيقات خاصة بالتجسّس، ولا مواقع للّقاءات الغرامية). وكان أبي في غاية الحذر، لكن مرة واحدة من التهوّر كانت كافية. وتكفي دائماً مرة واحدة فقط. نسي والدي في جيب بدلته فاتورة فندق، فعثرَت عليها أمي لمّا أخذت البدلة إلى الكوي. وبما أنّ أمي لا تتحمل أن تعيش في الكذب، هجرَت زوجها، وتخلَّت عن المنزل الدافئ والحياة الهانئة التي كنّا ننعم بها في أنتيب. وعادت إلى باريس - أو بالأحرى إلى ضاحية باريس. أما

أنا، فذهبتُ معها إلى هناك. تركتُ الأصدقاء مرغماً، والدعة التي كنت أنعم بها في إعدادية روستان، وإمكانية الذهاب إلى البحر كلّ يوم، والتنزه في الغابة أو بجانب الأسوار. ذهبت معها إلى إيسون حيث الإسمنت واللون الرمادي يلاحقك أينما وليت وجهك. كان جزء مني يحترمها لأخذها هذا الخيار؛ لكن الجزء الآخر يكرهها.

طبقت طريقة أمي على ملابس جويس فأخذتُ أفتّش كلّ جيوبها. عثرتُ على تذكرة مترو، وقلم، وفكة، وتذاكر مشتريات مختلفة، وإيصالات تخفيض، وختْم، وعلبة أسبرين، وبطاقة تعريف...

بطاقة تعريف لا تحمل إلّا اسماً ورقم هاتف. تفحّصتها بدقة:

فلورانس غالو

5278 - 132 (212)

هذا الاسم ليس غريباً عليّ. أنا متأكد أني رأيته في مكان ما، أو حدَّثني عنه أحد مؤخراً. كنت في غاية التعب. تنمّلت أعضائي، وآلمَ الغبار عيني، لكن قلبي كان يخفق بقوة. إنه إحساسٌ جميل ذاك الذي يراودك حين تدرك أنك وضعتَ يدكَ على شيء مهم، وأنك ستنتهي بأن تكتشف ما هو. فهمت الآن لماذا يعشق كاراديك مهنته.

صار الطقس بارداً. غطّيت ابني بسترتي وغادرتُ المكان بعد أن وضعت تحت عربته ما أستطيع من ملفات كي أدرسها في الفندق. مكثتُ في فناء المستودع لحظة -تحت نظرات الطالب ذي البثور العدائية- كي أطلب سيارة أجرة بواسطة تطبيق على هاتفي. في انتظار وصول السيارة، حاولت الاتصال بمارك من جديد، لكن لم يرد عليَّ أحدٌ. فحاولت أن اتصل بالمدعوة فلورانس غالو: «لا

يوجد أي مشترك في الرقم الذي تطلبونه». ثم توصّلت برسالة نصية تخبرني أنّ السيارة وصلت. غادرت المبنى، وتوجّهت نحو السيارة. كان السائق لطيفاً، ساعدني في طيّ عربة ابني ووضعها هي والملفات في صندوق السيارة.

جلستُ في مقعد السيارة الخلفي حاملاً تيو بين ذراعي، محاذراً ألّا أوقظه. مقاعد جلدية، موسيقى كلاسيكية، قنينة ماء معدني. مضت السيارة تقطع الطريق وسط الظلام. سبانش هارلم. أبر إيست سايد. سنترال بارك. أغلقت عيني بدوري. كنت أحسّ بتنفّس ابني الغالي في عنقي. وفي اللحظة التي بدأ النوم يداعب أجفاني، عبَرت مخيلتي صورة، فأمرتُ السائق فجأة:

- توقّف! توقف من فضلك!

شغل الإشارة وركن السيارة إلى جانب الطريق، ثم شغل أضواء الإنذار.

- هل يمكنك أن تفتح صندوق السيارة؟

نزلت من السيارة وأنا أتلوى. فتح ابني عينيه قلقاً.

- أين فيفي؟

- إنه هنا، أجبتُ وأنا أناوله الكلب الوبري. ضُمّه إلى صدرك.

بحثتُ في صندوق السيارة، وأخرجتُ منها بيدي الفارغة الملف البلاستيكي الذي يحتوي على المقالات الصحفية. عرفت الآن مَن هي فلورانس غالو: إنها الصحافية التي كتبت كلّ مقالات **نيويورك هيرالد** التي احتفظت بها جويس. نظرت إلى تاريخ نشر المقالات: لقد كتبت كلها ما بين 14 و20 يونيو 2005، أي خلال الأسبوع الذي تلا قدوم جويس إلى فرنسا. تذكرت الصور التي شاهدتها في أثناء نشرات الأخبار، والتي تظهر فيها منهارة تماماً. خطرت لي

فرضية جديدة: ماذا إذا لم تكن قضية كلير كارلايل إلّا امتداداً مأسوياً لقضية جويس كارلايل؟ ماذا إذا لم يكن مصدر مأساة آل كارلايل اختطاف كلير، وإنما حدثٌ آخر أقدَم من الاختطاف، ومتعلّق بأمها نفسها؟ على كلّ حال، هناك شيء أنا متأكد منه تماماً، وهو أنّ تحقيقاتي وتحرّياتي تنصبّ على قضية متشعِّبة متشابكة الخيوط.

صعدتُ إلى السيارة من جديد أنا وابني. لقد توصّلت إلى عدة حقائق هذه الليلة. أولها أنّ جويس اشترت هاتفاً لا يمكن تعقّبه يومين فقط بعد اختطاف كلير. وثانيها أن جويس، بعد الأسبوع الذي تلا عودتها من جيروند، اتصلت بصحافية متخصِّصة في التحقيقات الصحفية كي تُسِرّ لها بشيء ما.

بعد بضعة أيام، ماتت جويس.

تحركت السيارة. سَرَت في جسدي قشعريرة.

لم يكن لديّ أيّ دليل على ذلك، إلّا أني أصبحت متأكّداً من أن جويس كارلايل تعرّضت للقتل.

3.

يشعر كاراديك، كلما كان في طريق سيّار، بالرغبة في النوم، تماماً كما يحدث حين يشاهد فيلماً فاشلاً. لذلك فضَّل أن يعود إلى باريس سالكاً طرقاً جانبية. توقف في محطة استراحة في فيتري-لو-فرنسوا، فقد كانت الإشارة قد نبّهته إلى وشك نفاد الوقود منذ بضع كيلومترات. كانت المحطة ستغلق، لكن العامل الذي كان منهمكاً في إيقاف الآلات المزودة بالبنزين وافقَ على أن يملأ خزان سيارته. ناوله مارك ورقة نقدية، وقال:

- أضِفْ شيئاً من زيت المحرك، واترك الصفيحة في صندوق السيارة.

اشترى آخر سندويش تبقى في الدكان. خبز شمالي محشو بقطع سلمون ملأى بالسموم من دون شك. خرج كي يأكله في الهواء الطلق وهو يتصفّح هاتفه. رأى أنه توصل برسالة نصية من مليكة فرشيشي، المساعدة الطبية المتخصّصة في العلاج النفسي في ملجأ سانت-بارب. رسالة مفاجئة ومقتضبة:

إذا شئتَ أن تدعوني إلى العشاء...
فلدي وقت في نهاية الأسبوع. م. ف.

وعلى الفور، تذكّر رائحة جسد الفتاة: رائحة مدوخة هي مزيج من فاكهة اليوسفي، والإجاص، والزنبق. شعاع صغير في ليل روحه.

اضطرب لما رأى نفسه لا يزال منفتحاً لفرص الحياة، لكنه فضل أن يحتفظ بالجواب، واتصل برافائيل. المجيب الآلي. بعث برسالة نصية: «لدي جديد. هام جداً. اتصل بي إذا عثرتَ على شيء من جهتك».

قهوة، سيجارة، مزاح مع العامل بينما المطر لا يزال يهطل.

صعد مارك إلى الرينج روفر، أدخل المفتاح وألقى نظرة على لوحة القيادة. شغل المحرك ومضى، توقف عند مخرج المحطة، واستغلّ لحظة الوقوف كي يشعل سيجارة أخرى. هنا، وفي اللحظة التي كان يستعيد فيها رسالة مليكة، رأى سيارة تمرّ بسرعة.

اللعنة، اللعنة!

السيارة التي مرّت أمامه مسرعة سيارة سوداء من نوع

BMW X6. عرفها كارادِيك من نوافذها المظللة والواقي من الصدمات، وكان مستعداً أن يراهن بحياته على أنها السيارة التي اختطفت كلير!

عبر الطريق كي يتمكَّن من سلوكها في الاتجاه المعاكس، وطارد السيارة رباعية الدفع. لا يمكن أن يكون مرورها من هنا صدفة. ماذا تفعل سيارة فخمة في هذا المكان النائي؟ استطاعَ أن يلحق بها، ولكنه لم يقترب منها، علَّه يحصل على معلومات أخرى، وحرصاً منه ألّا يراه مَن في السيارة.

شغل التهوية، ومسح الزجاج الأمامي بكُمّه. كان المطر يهطل غزيراً مصحوباً بهبوب رياح.

بد منعطف خطير، انعطفت السيارة من دون إشارة ومضت في طريق قروي لا يحمل أيّ لوحة إرشادية. تبعَها كارادِيك من دون تردد.

كان كلما تقدم، ازدادت حالة الأرض سوءاً. كانت الرؤية متعذرة على بعد عشرة أمتار أمامه، وكان الممر ضيقاً، محاطاً بالأعشاب الشوكية والصخور. ورغم أن السيارة رباعية الدفع كانت تفتح الطريق أمامه، إلّا أن مارك كان يمضي وراءها بصعوبة. ولم ينتبه إلى أنه وقع في فخّ إلّا حين أدرك أنه لم يعد بإمكانه أن يستدير ويعود من حيث أتى.

توقفت سيارة الـ X6 فجأة.

ترجَّلَ منها خيال يرتدي معطفاً داكناً ويحمل بندقية، وتقدَّم نحو كارادِيك. تعرَّف مارك على وجهه من خلال أضواء السيارة. **اللعنة!**

حبس أنفاسه. امتزجت في مخيلته ملامح أربع نساء: إليز، ابنته، مليكة، وكلير.

وقف الخيال أمامه، ووضع البندقية على كتفه، ثم صوب.

لا، لا، ما أغبى ما يحدث. لا يمكن أن يموت الآن.

لا، ليس الآن وقد أصبح قاب قوسين أو أدنى من بلوغ الهدف.

ليس الآن، وقد أوشك على حلّ لغز قضية كلير كارلايل.

دوت الطلقة، فرجّت السيارة، وانفجر زجاج الرينج روفر الأمامي.

13

في عيون الآخرين

المصيبة [. . .] وَحْل أسود بارد، جُرْح مؤلم يرغمنا على أن نختار بين أن نذعن له أو أن نتخطّاه.

بوريس سيرولينك

مكتبة
t.me/soramnqraa

.1

اسمي كلير كارلايل.

أبلغ من العمر خمسة عشر أو ستة عشر عاماً. يتوقف ذلك على عدد الأيام التي قضيتها في هذا السجن. هل قضيت فيه مئتي يوم؟ ثلاثمئة؟ ستمئة؟ يستحيل أن أعرف عددها بالضبط.

الزنزانة التي أنا مسجونة فيها لا تسمح لي بأن أرى ضوء النهار. ليس مسموحاً لي أن أتوفّر على ساعة، ولا على جريدة، ولا على تلفزيون. أعيش معظم الوقت تحت تأثير الحبوب المضادة للقلق. قبل قليل فقط، قبل أن يذهب -أعتقد أنه كان يستعدّ للخروج لأنه كان يرتدي معطفاً ووشاحاً. . .- أتى كي يحقنني في ذراعي. قبل اليوم، كان يناولني حبوباً، لكنه اكتشف أني لا أبتلعها إلّا مرة على اثنتين.

آلمتني الحقنة لأنه كان متوتراً ومضطرباً. كان يتصبب عرقاً، ويشتم، ويرمش بلا توقف. كان وجهه مجدوراً، وعيناه جاحظتين. صرخت من الألم، فكانت النتيجة أن صفعني وضربني على صدري على الفور. غضب كثيراً، فنعتني بـ«العاهرة الصغيرة القذرة»، ثم استلّ الحقنة من ذراعي وغادر الغرفة صافقاً الباب خلفه. وبما أنه لم يقيدني، تكوَّمتُ على نفسي تحت لحافي الوسخ في أحد أركان زنزانتي.

البرد قارس. عظامي تؤلمني، أنفي يسيل، ورأسي يوجعني. رغم أنّ الجدران عازلة للصوت، خُيّل لي أني أسمع صوت المطر، لكن هذا مستحيل، فربما لا يهطل المطر إلّا في دماغي. أنا الآن مضطجعة على الأرض، وأنتظر أن يأخذني النوم، لكن الرغبة في النوم لا تأتي بسهولة. لعلّ السبب تلك الأغنية التي تتردّد في رأسي، أغنية حرية لأريتا فرانكلين. حاولت أن أسكتها، لكن عبثاً. هناك شيء غير معتاد، لا أعرف ما هو بالضبط، واستغرق الأمر مني دهراً لأدرك ما هو: لقد نسيَ أن يقفل الباب!

نهضتُ كالملسوعة. منذ دخلت هذا السجن، لم ينسَ أن يقفل الباب إلّا مرتين. في المرة الأولى، لم أستفِدْ من ذلك شيئاً، وهذا لأنني كنت مقيّدة من جهة، ومن جهة أخرى لأنه انتبه للأمر على الفور، فتداركَ الأمر. في المرة الثانية، تمكّنت من الخروج إلى الرواق، ومن صعود سلم من الإسمنت يؤدي إلى باب لا يفتح إلّا برقم سري. عدتُ أدراجي لأنه كان لا يزال في المنزل فخفتُ أن يسمعني. أمّا هذه المرة، فهو يستعدّ للخروج!

فتحت الباب، وسرت في الرواق، وصعدت السلم مسرعة. وضعت أذني على الباب. لا حركة، لا شك أنه خرج. نظرتُ إلى

اللوحة وهي تبرق في الظلام، كأنها تدعوني إلى أن أنقر الرقم السري. أخذ قلبي يخفق بقوّة. يجب أن أتوصّل إلى معرفة الرقم السري! وأنا أنظر إلى حجم اللوحة الصغيرة المربعة، وإلى الأرقام التي تظهر عليها حين أنقرها، استنتجت أن الرقم السري لا يتجاوز أربعة أرقام. مثل رقم فتح هاتف محمول. شرعتُ أنقر أرقاماً اعتباطية: 0000#، 6666#، 9999#... ثم قلت لنفسي إنّ أربعة أرقام تناسب عدد أرقام تاريخ معين. وتذكرت ما قاله لي ذات يوم: «يوم لقائنا كان أجمل يوم في حياتي». شعرت حينئذٍ بالرغبة في التقيؤ. ما يسميه يوم لقائنا هو يوم اختطافي، أي 28 مايو 2005. نقرت على الفور 0528#، وإن كنت لا أؤمن بصحة ما اعتقدته، ثم تذكّرت أنّ التواريخ في أوروبا تُكتب بتقديم الأيام على الشهور، فنقرت: 2805#.

خاب ظني.

لا غرابة في ذلك. إنّ أجمل يوم في حياة مريض نفسي من هذا العيار لا يمكن أن يكون إلّا يوماً يتمحور حول ذاته فقط. يوم يخصّه دون غيره. وماذا لو كان قد فعل ما يفعله الأطفال الصغار عادة، فاختار تاريخ ميلاده؟ تذكّرت. في إحدى الليالي، بعد بضع أسابيع من اختطافي، دخل إلى غرفتي يحمل حلوى بالشكولاتة والقشدة، ناشفة ومحروقة، مقزّزة. وأرغمني على أن آكل منها حتى تقيأت، ثم فتح أزرار بنطاله، وطالبني بـ«هدية عيد ميلاده». حين جثوت على ركبتَي، رأيت التاريخ على ساعته اليدوية. 13 يوليو. ثم تقيّأت من جديد.

نقرت الأرقام الأربعة: 1307 وأكدتها بـ #. انفتح الباب. أحسستُ أن قلبي سيتوقف. لا أصدِّق ما حدث. مشيتُ داخل غرفة

معتمة، ولم أغامر بالضغط على زر المصباح. كلّ المصاريع وكل النوافذ مغلقة. ليس هناك إلّا صوت المطر وهو ينقر السقف والزجاج. لم أحاول أن أصرخ. لا أعرف أين أنا. لا شك أنه منزل منعزل (سمح لي في مناسبات نادرة جداً بأن أخرج للحظات إلى ساحة خضراء خلف المنزل)، ولكن في أي منطقة في فرنسا؟ وقرب أية مدينة؟

في الوقت الذي كنت أتعرف فيه على المنزل، سمعتُ صوت محرِّك. الغريب أني هادئة الآن، وإن كنت أعي جيداً أنّ هذه الفرصة لن تتكرّر أبداً. الأدوية التي ابتلعتها تجعلني أشعر بالوهن، ولكنني لست على وشك الانهيار. الآن، على الأقل. الأدرنالين والخوف يبطلان مفعول الحبوب المضادة للقلق. رأيت شيئاً. أول شيء رأيته وأنا أدخل الغرفة: مصباح ثقيل من البرونز. أزلت غطاء المصباح، ونزعت الخيط الكهربائي من المنشب، ووقفت خلف الباب في اللحظة التي كنت أسمع خطواته تتقدم نحو الغرفة. حواسي يقظة. خمنت أنه يجري، ولكنني سمعت صوت المحرك أيضاً. لماذا؟ لأنه أصيب بالهلع، لأنه أدرك أنه نسي أن يقفل الباب. وأنا أعرف أنه خواف. قلق. جبان.

انفتح الباب. لم أتزحزح. لم أعُد أشعر بالخوف. لقد انتظرتُ هذه اللحظة منذ زمن طويل. أعرف جيداً أنّه لن تتاح لي إلّا فرصة واحدة. ضربة واحدة. **إمّا الحياة وإمّا الموت**. يداي لزجتان، لكنني أمسك بالمصباح فوق كتفَي بإحكام. وبكلّ قوة هويتُ به على رأسه حين رفعه. بالعرض البطيء، رأيت أول الأمر وجهه يتشنّج جرّاء الصدمة، وقاعدة المصباح الحادة تقطع أنفه، ثم ملامحه تتغيّر وهو يصرخ من الألم. ترنّح، فقَدَ توازنه، وسقط على الأرض. تركت

سلاحي يسقط على الأرض وقد عاد يزن طناً من جديد، وقفزت من فوق جسده.

2.

خرجت من المنزل.

ليل. مطر. ريبة. خوف.

أخذت أجري ولا ألوي على شيء. حافية القدمين كنت -طوال ذلك الوقت الذي قضيته هناك، لم يكلف نفسه عناء منحي حذاء-، أرتدي فقط بنطالاً رياضياً ضيقاً وقميصاً بالياً طويل الكُمّين.

الأرض. الوحل. شبح البيك أب وهي واقفة متراقصة الأضواء. ارتكبت خطأ الالتفات إلى الوراء. كيفر يتبعني. أصابني الرعب. فتحت باب السيارة، أغلقته خلفي، ومضى دهر قبل أن أنجح في العثور على زرّ إغلاق الأبواب المركزي. ستارٌ من المطر يغطي زجاج السيارة الأمامي. صوت ضربة. كيفر يضرب الزجاج بكفّه، متشنّج الوجه من شدّة الكراهية، زائغ العينين. حاولت التغلّب على الضغط الذي يمارسه عليّ حضوره. نظرت إلى لوحة القيادة، إلى ناقل الحركة. لم يسبق لي أن قدتُ سيارة من قبل. ولكني عرفت أنها سيارة أوتوماتيكية. وقد سبق لي أن رأيت في نيويورك نساء منتعلات أحذية جيمي شو عالية الكعوب، وصابغات أظافرهن الطويلة، يقدن سيارات من نوع بورش كايين. وأنا لست أقلّ منهن ذكاءً...

صرخت من هول الصدمة. لقد كُسِر زجاج السيارة الأمامي. أصابني الهلع. كان كيفر قد جلب قضيباً حديدياً. رفعه فوق رأسه كي يهوي به على الزجاج من جديد. اقتربتُ نحو المقود وضغطت

دواسة السرعة. تحرّكت البيك أب. شغلت ماسحات الزجاج. أنا الآن في طريق غابوي. لا شيء حولي سوى الظلام. أحراش مخيفة، سماء سوداء، وشبح الأشجار المفزعة. أسير بحذر. لا ينبغي أن تتوقف بي السيارة في مثل هذا المكان. بعد مئة متر، تحولت الطريق المليئة بالوحل إلى طريق أوسع قليلاً. أأنعطف يميناً أم يساراً؟ مضيت في الطريق التي هي عبارة عن منحدر، وزدتُ السرعة. بعد أن نجحت في أن أتخطى بضع منعطفات بسلام، استعدت الثقة بنفسي. أشعلت ضوء السيارة الداخلي، فرأيت حقيبة صفراء فوق المقعد بجانبي. **حقيبتي الصفراء!** تلك التي كنت أحملها يوم اختطافي. ليس لدي وقت كي أتساءل عن سبب وجودها هنا، فقد سمعت صوت محرك سيارة خلفي. عدلت وضع المرآة فرأيت كيفر يلاحقني على دراجته النارية. زدت في السرعة، محاولة أن أبتعد عنه أكثر، لكنه كان يقترب رغم ذلك. الطريق زلقة. زدتُ في السرعة من جديد. هذه المرة، زاغت السيارة عن الطريق واصطدمت بصخرة. حاولت أن أعيدها إلى الخلف، لكن البيك أب كانت قد تعثرت في الوحل.

الرعب يسري في عروقي. تناولت الحقيبة ونزلت من السيارة. قدماي تغرقان في الوحل. الدراجة النارية على بعد أمتار قليلة مني، وستلحق بي. لا يمكن أن أستمر في المشي في الطريق الرئيس. انسللت إلى وسط الغابة. وأخذت أجري، وأجري. أغصان الأشجار تصفع وجهي، الأشواك تدمي جلدي، الأحجار تجرح قدمَي، إلّا أن ذلك لم يزدني إلّا إصراراً. أجري. في هذه اللحظات، أنا حرّة وعلى قيد الحياة، وليس في هذا العالم ما هو أحسن من ذلك. أجري. أجري والمطر يبلّلني، أجري في الغابة

التي تحميني وتبتلعني. أجري في الغابة التي تتعبني وتستنزفني، ولكنني طريدة مجروحة ترفض الاستسلام للمطاردين وراءها.

وفجأة انجرفت التربة من تحتي، فسقطت إلى أسفل عدة أمتار وأنا أضم الحقيبة إلى صدري. وجدت نفسي في طريق من إسفلت لا ضوء فيه، وقبل أن ألتقط أنفاسي، سمعت صوت الدراجة النارية. لقد عثر عليّ من جديد. استدرت كي أهرب في الاتجاه المعاكس. منعطف. وفجأة رأيت ضوءاً قوياً، وسمعت صوت فرامل صاخباً. تصادُم.

عتمة قاتمة.

توقفت عن الجري.

3.

صوت عجلات تحتك بالأرض.

صوت محرك يخفت.

فتحت عينَي.

الليل لا يزال مخيماً؛ ولا شيء يخفِّف من ظلامه الحالك سوى هالات صفراء تنبعث من بعض المصابيح. أنا الآن مضطجعة في أحد أركان موقف للسيارات، في الهواء الطلق. ظهري مرضوض، رأسي يؤلمني ألماً مدوخاً، ووِركاي يؤلماني أيضاً. الدم يسيل من رأسي. والحقيبة الصفراء بجانبي.

ماذا أفعل في هذا المكان؟ كيف وصلت إليه؟

الدموع تسيل على خدَّي. هل أحلم؟ هل أنا ميتة؟ اتكأت على ذراعَي كي أنهض. لا، الموت لا يشبه ما أعيشه الآن.

تناولت «حقيبتي» وفتحتها كي أرى ما بداخلها. اعتقدت أني

أهذي عندما رأيت في داخلها رزماً من الأوراق النقدية. آلاف اليوروهات، بل عشرات الآلاف على الأرجح. ذهني مضطرب إلى درجة أني لم أسأل نفسي لماذا كان ذلك المريض يحمل مبلغاً كهذا في سيارته البيك-أب. في أحد جيوب الحقيبة الجانبية، عثرت على دفتر أزرق سميك وعلى بطاقة هاتف، وفي هذه اللحظة بدت لي قيمة هذه الأخيرة أكبر من قيمة كلّ هذا المال. سرتُ بضع خطوات. أدركت أني وسط مجمّع سكني على شكل حرف U، مكون من بنايتين. الأولى قديمة شيئاً ما، والثانية حديثة البناء.

سمعت صوت محرك سيارة، ورأيت سيارة إسعاف قادمة نحو موقف السيارات. أشعر بالخوف. أتوقع، في كل لحظة، أن أرى كيفر أمامي. يجب أن أغادر هذا المكان. ولكن، إلى أين أذهب؟ تسللت بين السيارات، فرأيت لوحة مكتوب عليها: «مستشفى سافيرن». مَن أتى بي إلى هنا؟ كم مضى من الوقت على فقداني للوعي؟

فكرت في الدخول إلى بهو المستشفى، لكنني تخليت عن الفكرة. يجب أن أتّصل بأمي. فأنا لا أثق في أحد سواها. ستعرف كيف توجّه خطواتي.

غادرت ساحة المستشفى، وسرتُ في طريق ذي اتجاهين تحفّ به المنازل الصغيرة. هناك لوحة تشير إلى أن وسط المدينة قريب. أمضي في طريقي. توقف المطر عن الهطول، وكاد الطقس يكون دافئاً. ما زلت لا أعلم الساعة واليوم الذي نحن فيه. وأنا أمرّ بجانب أحد المنازل، رأيت أن الشرفة ملأى بالأحذية المثقلة بالوحل والمعاطف المبللة التي تركها أصحابها في الخارج كي تجف. قفزت فوق السياج واستحوذت على معطف وحذاء رياضي

هما على الأرجح لربة المنزل. **على مقاسي تقريباً**، قلت في نفسي وأنا أضع تحت ممسحة الأحذية ورقتين من فئة خمسين يورو أخرجتها من الحقيبة.

أمضي في طريقي. أشعر بدوار. ما زلت لا أصدق أني حرة طليقة. أعتقد أني سأصحو عمّا قريب. أمضي في طريقي. أسير كما يسير المسرنمون. أحسستُ بالأدوية تثقل رِجلَي، وتشوش دماغي. أمضي في طريقي. وصلت إلى ساحة محطة القطار في سافيرن. ساعة المحطة تشير إلى الواحدة وخمس وخمسين دقيقة صباحاً. ثم وجدت لوحة مكتوب عليها: «ستراسبورغ 54 كلم». أنا في شرق فرنسا إذاً. لا يوحي لي ذلك بشيء، فلو قيل لي إني في لوزان أو بريست لما كان ردّ فعلي مختلفاً. كلّ شيء يبدو لي بعيداً عن عالم الواقع.

الساحة خالية إلّا من مشردَين نائمَين أمام واجهتَي دكانَين. هناك هاتف عمومي في مدخل المحطة. دخلت إلى الكشك، لكنني لم أغلق الباب خلفي. رائحة البول تزكم المكان. شرعت يداي ترتجفان حين أردتُ إدخال بطاقة الهاتف. تأكّدت أنها لا تزال صالحة، ثم حاولت أن أقرأ على اللوحة البلاستيكية التعليمات المتعلقة بإجراء مكالمات إلى الخارج. قرأت، لكنني لم أفهم شيئاً لأن طريقة الاستعمال كانت مغطاة بكتابات غبية، مثل: «هذه حقيقة فرنسا»، «نيلي فتاة منحرفة»، «سننتصر»، «فلتختر آن-ماري من التواريخ ما يناسبها» و«أنا شاعر».

بعد خمس دقائق وعدة محاولات، نجحت في الاتصال. سمعت ست رنات تطن ببطء كبير، قبل أن ترفع أمي السماعة. الآن فقط بدأتُ أشعر أني حرة طليقة:

- ماما، هذه أنا، كلير! لقد هربت يا ماما! هربت!

لكن المرأة التي ردَّت عليّ ليست أمي. إنها سيدة قالت لي بكل هدوء إنّ أمي ماتت منذ عامين.

أحسست أول الأمر أنّ الخبر لم يصل إليّ، وأنّ عقلي يرفضه. سمعت طنيناً في أذنَي، وأحسستُ بهما تؤلمانني، كما لو أنّ شخصاً ما يغرز المسامير في طبلتيهما. شممت رائحة البول مجدداً، فجثوت على ركبتَي كي أتقيأ، لكنني لم أقوَ على ذلك حتى. وغبت عن الوعي من جديد.

4.

كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحاً حين استعدتُ وعيي. دخلت إلى محطة القطار في حالة تيه، وعثرت على مقعد في القطار المتوجّه إلى باريس.

تهالكتُ على مقعدي، ووضعتُ خدي على النافذة، ونمتُ من جديد إلى أن أيقظني المراقب. وبما أني لم أكُن قد اشتريت تذكرة، فقد أديتُ ثمنها والغرامة معاً. أخذ المراقب المال منّي دون تعليق. أعتقد أنه، هو الآخر، لم يكن صاحياً كلّ الصحو. ثم عدتُ إلى النوم على الفور. نوم مليئ بالأحلام المضطربة. كلّ ما أتذكّره هو أن القطار توقف في مكانٍ خالٍ بعد مدينة رانس ما يزيد على الساعة ونصف الساعة. أخذ الناس في العربات يشتكون متذمرين. ذكّرتني احتجاجاتهم بما قرأته في كشك الهاتف: «يا لها من بلاد بائسة!»، «لا أحد كلف نفسه عناء أن يشرح لنا ما يحدث»، «ها هم يضربون عن العمل مرة أخرى»، «لكم أتمنى أن تخضع الشركة للخصخصة»...

ثم انتهى الأمر بالقطار إلى أن تحرّك من جديد، ولم نصل إلى باريس إلّا على الساعة العاشرة ونصف صباحاً، بسبب ذلك التأخر.

والآن؟...

في أثناء النصف الثاني من الطريق نحو باريس، لم أتوقف عن التفكير في كانديس شامبرلان.

كانت كانديس فتاة في غاية الطيبة والجمال، تسكن بجوار منزلنا في هارلم. كانت أكبر مني سناً، إلّا أننا كنا نتجاذب أطراف الحديث في أثناء عودتنا من المدرسة الإعدادية. كانت تلميذة مجدَّة، تسعى إلى أن تجد لنفسها مكانة تبعدها عن هارلم. كانت تعيرني الكتب، وتنصحني نصائح وجيهة، وتحذِّرني من أن أقع ضحية الأوهام.

ورغم ذلك، ذهبَتْ في يوم من الأيام مع جماعة من الأولاد يقطنون في عمارات بومر، وهي عمارات خاصة بذوي الدخل المحدود تقع بعد الشارع 150. لا أعلم لماذا وكيف وضعت نفسها في ذلك المأزق مع أنها في العادة فتاة متحفّظة حذرة. كلّ ما أعلمه هو أن أولئك الأولاد احتفظوا بها سجينة في أحد الأماكن المخصصة لحاويات النفايات في قبو إحدى العمارات. كلّ ما أعلمه هو أنهم تناوبوا على اغتصابها أياماً عديدة، وأن الشرطة لم تعثر عليها وتحرّرها إلّا بعد أسبوعين.

بعد أن قضت بضعة أيام في المستشفى، عادت كانديس إلى منزل والديها في الشارع 134، قرب الكنيسة الأنجليكانية. ومنذ ذلك اليوم، تكالبت وسائل الإعلام على المنزل، وأخذ الصحافيون، والمراسلون، والمصورون، يطوقون منزل آل شامبرلان ليلاً نهاراً.

كل صباح، وأنا ذاهبة إلى المدرسة، كنت أرى أولئك الصحفايين والمصورين يقومون بالتقاط صور للمنزل وأرجائه كي تصاحب التعاليق التي تبثّها القنوات التي ينتمون إليها.

طلب والد كانديس من الصحافيين عدة مرات أن يحترموا معاناة ابنته وأن يذهبوا لحال سبيلهم، لكن لم يستمع إليه أحد. كانت كانديس فتاة سوداء، وكان أحد مغتصبيها فتى أبيض. وكانت الطوائف والسياسيون يحاولون تسييس تلك المأساة التي رأيت شخصياً سببَها الهمجية، لا العنصرية.

كنت في الحادي عشر أو الثاني عشر من عمري آنذاك، فصدمتني تلك الواقعة صدمة كبيرة. ماذا كان يفعل كلّ أولئك الراشدين أمام ذلك المنزل؟ إنهم أشخاص متعلمون، فماذا ينتظرون مجتمعين هكذا أمام المنزل؟ ماذا يتوقعون من نبش ماض أليم عطن؟ أتراهم يتمنون أن ينجحوا في الحصول على شهادة جار، أو جارة، أو صديق طفولة، فيحرّفونها، ويُخرجونها عن سياقها، ويقلبونها على عدّة أوجُه، متلذذين بهذه الزيوت الوسخة التي يصبونها على النار المتقدة. «إنها الحرية في نشر الخبر» أجابتني إحدى المراسلات حين سألتها ذات مساء وأنا عائدة من المدرسة. أيّ خبر؟ فهذه فتاة عاشت شيئاً لا يجرؤ المرء على أن يسميه باسمه حتى، وهذه أسرتها تعاني الجحيم معها، فهل ينبغي أن نزيد الطين بلة، وأن نضاعف الجراح بهذا التلصّص؟ أحقّاً ينبغي أن تُذاع هذه الصور التي لا هدف منها إلّا تغذية الأحاديث الفارغة في المقاهي وبيع الإشهارات السخيفة على محطات التلفزيون؟

وكان أن حدث ما يجب أن يحدث. ذات صباح، عثرت السيدة شامبرلان على جثة ابنتها في حوض حمام مليء بماء أحمر.

كانت كانديس قد قطعت عروق معصميها خلال الليل. وحسب علمي، لم تترك صديقتي رسالة تشرح فيها ما أقدَمَت عليه، ولكنني اعتقدتُ دائماً أنّها انهارت تماماً لمّا أدركت أنها لن تتمتع أبداً بحياة عادية، وأنها ستبقى إلى الأبد في عيون الآخرين تلك الفتاة التي اغتُصِبَت في مكان مخصص لحاويات النفايات في قبو إحدى عمارات بومر.

تألّم الأب، داريوس شامبرلان، ألماً شديداً، فتناول بندقيته وخرج إلى شرفة المنزل. وبهدوء تام، صوَّبَ نحو الجمع، وتريَّث قبل أن يطلق النار عدة مرات على المتجمهرين أمام المنزل، فأصاب الصحافية التي أعطتني درساً حول: «الحرية في نشر الخبر» إصابة خطيرة، وقتل مصوراً كان أباً لطفلين.

منذ ذلك اليوم، لم أعُد أؤمن بالأوهام. في منزل ذلك المريض كيفر، كان هناك كتب. كانت تلك التسليةَ الوحيدةَ التي سمح لي بها، فوضعها فوق رفوف في زنزانتي. كتب قديمة في الفلسفة وعلم النفس ورثها عن أمه. خلال سنتين، وباستثناء قليل من الكتابة على دفاتر كان كيفر يصادرها حين تمتلئ، لم يكن لديّ شيء آخر أسلّي به نفسي غير القراءة. قرأت وأعدتُ قراءة بعض الكتب عدة مرات إلى درجة أني حفظت بعض فقراتها عن ظهر قلب. «ليس الإنسان مخلوقاً طيباً، متعطّشاً للحب»، كتب فرويد في كتابه: **قلق في الحضارة**. نعم، الإنسان عدو نفسه. يخوض حرباً مستمرة ضدّ نفسه. وفي أعماقه، إنه كائن مسكون بالعنف، والعدوانية، والقتل، والرغبة في الهيمنة على الآخرين من بني جنسه، وفي استعبادهم وإهانتهم.

5.

محطّة الشرق في باريس. السلالم المتحركة معطلة. وجدت صعوبة، وأنا أصعد الأدراج، في مقاومة الحشد الذي كان يدوس على أقدامي ويجرني معه كالموج. وفي اللحظة التي أحسستُ أني على وشك الانهيار، ولجت مقهى صغير في المحطة. وبما أنه كان مزدحماً بالزبائن، اضطررت إلى الجلوس عند المنضدة. بطني يقرقر. شربت كأساً من مشروب الشوكلاتة وأكلت هلاليتين. سالت الدموع على خدَّي، لكني حاولتُ أن أحبسها حتى لا أثير انتباه النادل، فملابسي مثيرة للانتباه بما يكفي.

والآن؟

لا أريد أن ينتهي بي الأمر كما انتهى بكانديس، ولكنني أدرك أيضاً أن حياتي لن تكون أبداً حياة عادية. في عيون الآخرين، سأظلّ دائماً تلك الفتاة التي اختُطفت واحتُجزت واغتُصبت على يد مريض نفسي على مدى أكثر من عامين. سأحمل هذه السمة إلى الأبد. سأكون دائماً كحيوان سيرك، وسيكون عليّ أن أجيب على أسئلة كثيرة: ماذا كان يفعل بكِ ذلك الوحش؟ كم مرة؟ كيف؟ الشرطة سترغب في أن تعرف. القاضي سيرغب في أن يعرف. الصحافيون سيرغبون في أن يعرفوا. وسأجيب، إلّا أنّ كلّ جواب سيستدعي سؤالاً آخر. وهكذا دواليك. دائماً أكثر. سأطالَب بأن أحكي كلّ شيء. كلّ شيء.

قد أحبّ يوماً. قد ألتقي برجل يحبّني، يضحكني، ويحترم استقلاليتي كما يحترم حاجتي إلى الحماية. يعجبني التفكير في هذا الأمر. يعجبني أن أتخيل لقاءنا، كما في الأفلام. سيحدث ذلك في اللحظة التي أيأس من حدوثه. هكذا أتصوّر الأمر، على الأقل.

وسيعلم الحقيقة يوماً، لا محالة. سيعلم أني الفتاة التي اختطفها كيفر. سمتي الأبدية التي تلغي كلّ السمات الأخرى. قد يستمر في حبي رغم ذلك، لكنه لن يحبّني كما أحبَّني من قبل. سيحبني بمزيد من العطف والشفقة. لكني لا أريد تلك الشفقة. ولا أريد أن أكون تلك الفتاة في عيون الآخرين.

أرتعش. أحسّ بالبرد. لم أعُد أشعر بأنّ هربي انتصار وتحرّر. أنا قوية. أستطيع أن أنهض من أي سقوط. لقد تحمّلت سنتين من العذاب الجهنمي. لا أريد أن أصير حيواناً خائفاً من جديد. بعد أن كنت فريسة مريض، لن أقبل أبداً بأن أستبدل جحيماً بجحيم آخر.

عيناي تنغلقان. متعبة أنا. إنها نتيجة ما عانيته جسدياً ونفسياً خلال الساعات الأخيرة. أجلس على الكرسي العالي، وأجاهد أن لا أسقط. أرى صورة أمي من جديد، فتنهمر الدموع من جديد. لا علم لي بظروف موتها، ولكنني أدرك أنني سبب موتها، بطريقة ما.

امتدّ الوقت. اختلطت عليّ الأمور. تبدو بعض الأمور واضحة في ذهني، بينما تبدو أمور أخرى في غاية الغموض.

وفجأة، شاهدت، على شاشة التلفزيون المعلق في أحد أركان المقهى، صوراً بدت لي سريالية. لا شكّ أني أهذي. فركت عينَي، وأصخت السمع لأنصت إلى مقدّم نشرة الأخبار:

«اكتشاف مروع في الألزاس هذا الصباح، في أحد المنازل الذي اشتعلت فيه النيران صباح اليوم والواقع في غابة «الحجر الصغير» قرب مدينة سافيرن.

«هرعت سيارة الإطفاء إلى عين المكان، بعد أن اتّصل بها أحد الدركيين، ونجح رجال الإطفاء في إخماد ألسنة النيران التي كانت تهدّد بالانتشار في المنطقة المجاورة. وسيحدد التحقيق أسباب

الحريق، لأنّ رجال الإطفاء عثروا، بعد إطفاء الحريق، على أربعة جثث في المنزل الذي يملكه هاينز كيفر، وهو مهندس ألماني...».

شعرت بقلبي يتمزّق، ووجدت صعوبة في التنفس.

عليّ أن أهرب.

وضعت ورقة نقدية على المنضدة، ونهضتُ عن الكرسي دون أن أنتظر الفكة. تناولت حقيبتي وغادرت المقهى.

كلير كارلايل لم يعُد لها وجود.

من الآن فصاعداً، أنا شخص آخر.

صباح اليوم الثالث

قضية جويس كارلايل

سقوط

مَن يخشَ الماء، فليبقَ على الشاطئ.

بيير دو ماربوف

.1

كان الليل قصيراً.

نمت نوماً متقطّعاً، قلقاً، مضطرباً، لم يستمرّ أبعد من الساعة السادسة صباحاً. لمّا استيقظت، استحممتُ فانتعشت قليلاً. كنت قد أغلقت الباب الجرار الذي يفصل الغرفة -التي كان ابني لا يزال نائماً فيها- عن صالون صغير ذي نافذة تشرف على مياه نهر هدسون الداكنة. في هذا الصالون، حضَّرت لنفسي قهوة إسبريسو قبل أن أشغّل حاسوبي وألقي نظرة على هاتفي. كان كاراديك قد حاول الاتصال بي، ثم أرسل لي رسالة نصية. حاولت أن أتصل به، لكني لم أظفر إلّا بمجيبه الآلي. **اللعنة.** لماذا لم يردّ مارك؟ كنت مغتاظاً لا قلقاً، فأنا أعلم أنه قادر على أن ينسى شاحن هاتفه في باريس وأن يذهب ليحقق في شرق فرنسا.

شربت ما تبقّى من قهوتي في جرعة واحدة مع حبة دولبران.

كانت أذناي تطنان، كما لو أنّ عشرات الأسئلة التي أرقتني في أثناء نومي عادت تطرق جدران رأسي.

جلست أمام الحاسوب آملاً أن تساعدني الإنترنت في ما أودّ القيام به من أبحاث. غوغل. البحث الأول: «ماي سو-يون»، الشرطية التي كُلِّفت بالتحقيق في قضية موت جويس. في بضع نقرات، علمت أنّها لم تعُد شرطية، وأنها تركت عملها بداية سنة 2010، وأنها تعمل الآن ناطقةً رسمية باسم «مشروع الشفافية»، وهي منظمة عتيدة غير ربحية، معروفة ببرنامجها القانوني الهادف إلى مساندة ضحايا الأخطاء القانونية.

وجدتُ بسهولة على موقع المنظمة عنوانَ بريدها الإلكتروني، فأرسلتُ لها بريداً قصد الحصول على موعد. ولكي أساعد ذاكرتها، لخَّصت لها في أسطر معدودات قضية جويس كارلايل التي حققت فيها قبل تسع سنوات. لم أتوقّع رداً سريعاً -بل كان من المحتمل أن لا تردّ عليّ على الإطلاق- لكن كان عليّ أن أبدأ من هذه النقطة.

البحث الثاني: **نيويورك هيرالد**، الجريدة التي كانت فلورانس غالو تعمل لصالحها، تلك الصحافية التي اتصلت بها جويس أياماً قليلة بعد اختطاف كلير. ومفاجأة ثانية: لقد توقّفت جريدة **نيويورك هيرالد** عن الصدور سنة 2009. ذهبت ضحية أزمة الصحافة التي شهدتها الولايات المتحدة. كانت الصحيفة قد عاشت سنوات ذهبية خلال السبعينيات، لكنها أخذت تُراكم الديون بعد ذلك. ورغم محاولة إعادة هيكلتها، لم تستطِعْ الصمود أمام الصعوبات التي عرفتها سوق الإعلانات والأزمة المالية التي سادت في الولايات المتحدة.

لكن موقع الصحيفة كان لا يزال في الخدمة، ويسمح بالبحث في

أرشيفات الصحيفة، ولكنه لم يكن يعرض أيّ مقالات جديدة. كان ألان بردجس، رئيس التحرير السابق، قد أسَّس، مع عدد من الصحافيين، موقعاً للأخبار على الإنترنت اسمه **#شمس الشتاء**، وهو موقع يتمّ تمويله بواسطة رسوم الاشتراك، متخصِّص في التحريات السياسية. حين فكرت في الأمر، تذكرت أنه سبق لي أن سمعت عن ألان بردجس وعن موقعه الصحفي، فعلى غرار قضية سنودن، عمدت **#شمس الشتاء** إلى نشر وثائق متعلقة بالمراقبة الإلكترونية التي تمارسها وكالة الأمن القومي الأميركية على نطاق واسع.

بحثت عن اسم «فلورانس غالو» في موقع **نيويورك هيرالد** لأطّلع على التحريات التي قامت بها بعد تلك التي احتفظت بها جويس.

النتيجة جعلتني أتسمّر في مكاني.

لقد ماتت الصحافية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

.2

شيء لا يصدق...

اضطربت. قرأت في أرشيف **الهيرالد** بلاغاً على شكل نصٍّ قصير كانت الجريدة قد نشرته في عددها الصادر بتاريخ 27 يونيو 2005:

> نعلن ببالغ الأسى لقرائنا نبأ وفاة صديقتنا وزميلتنا فلورانس غالو، على إثر حادثة تعرّضت لها خلال ممارسة رياضة القفز من المرتفعات.
>
> كانت فلورانس تبلغ من العمر تسعاً وعشرين سنة، وكانت تعيش مِنْ، وَمِن أجل مهنتها. لن ننسى أبداً ما عُرفت به فلورانس من

حماس، ومرح، وإخلاص في العمل، ومن حدس وعزيمة، وهي ميزات جعلت منها امرأة وصحافية استثنائية.
إن فريقنا الصحافي ليتألم لهذا الفقدان، ويتوجّه بتعازيه إلى عائلة الفقيدة وإلى كلّ مَن كان يعزّها.

كان الخبر مرفقاً بصورة مدهشة تبدو فيها فلورانس غالو في كامل صحتها وشبابها. شقراء، مرتدية بنطالاً جلدياً قصيراً، وجالسة على دراجة نارية، نسخة لبريجيت باردو الستينيات، في الفترة التي ركبت فيها دراجات هارلي ديفيدسون، وانتعلت أحذية روجي فيفييه.
كنتُ مصدوماً. في حين أني اعتقدتُ أني عثرت أخيراً على مَن تستطيع أن تُساعدني بشكلٍ حاسم، ها أنا ذا أتلقى خبر موتها.
حضَّرتُ لنفسي قهوة أخرى والتساؤلات تتدافع في ذهني. جلستُ أمام شاشة الحاسوب، وفتحت عدة نوافذ في الوقت نفسه لأقوم بأبحاث متوازية. كنت أعلم أن ما أبحث عنه موجود هنا على مرمى نقرة.
المرحلة الأولى. جمعتُ ما يكفي من معلومات كي أرسم الخطوط العريضة من سيرة حياة الصحافية. إنها سويسرية، ومن أسرة كانت تعمل في حقل الصحافة. فقد كان والدها مراسلاً رياضياً لصحيفة **الصباح**، وأمّها مقدّمة لأحد البرامج الثقافية على محطة RTS. تلقت تعليمها الثانوي في جنيف، ولمّا بلغت التاسعة عشر من عمرها قامت بتدريبات في عدة صحف، من بينها صحيفة **24 ساعة**، وهي جريدة يومية تصدر بكانتون فود في سويسرا. وبموازاة ذلك، كانت تتابع دراستها في مركز تكوين الصحافيين. وفي سنة 2002، عملت في قناة بلومبورغ التلفزيونية في لندن، وبعد سنة من العمل هناك، توجَّهت إلى نيويورك حيث قامت بكتابة عدة مقالات لصحيفة

فرنسا-أمريكا، وهي الصحيفة الناطقة بالفرنسية في الولايات المتحدة الأميركية، ثم التحقت بجريدة **نيويورك هيرالد** سنة 2004.

النافذة الثانية. صور غوغل. كلّ صور فلورانس المتوفرة على الإنترنت تُظهر فتاة جميلة، رياضية، في صحة جيدة، نشيطة، باسمة طوال الوقت. فتاة جميلة غير متعالية، غير متكبرة، توحي بالثقة. فتاة تشبه تلك المقالات التي كانت تكتبها. قمت بتحميل العشرات من تلك المقالات: سيرٌ غيرية، دراسات وتحقيقات حول الحياة السياسية، موضوعات اجتماعية، مشاكل اجتماعية. مقالات بعيدة عن التضخيم، دقيقة كلماتها. أسلوبها سلس ومتوازن. متسامح، لكن من دون مجاملة. من دون هوادة، لكن من دون وقاحة. مقالاتها ترسم صورة لنيويورك متعددة الأوجه، مركَّبة، متغيِّرة باستمرار. وصورة للمجتمع الأميركي الذي رغم ما قد يلاقيه من تيهٍ وآلام، فهو يتميّز بطاقة متجدِّدة ونظرة مصوّبة نحو المستقبل. ولعلّ أهم ما يستشفّ من هذه المقالات هو أنّ فلورانس ميّالة إلى التعاطف مع الآخرين، فكانت تتعاطف مع الأشخاص الذين تكتب عنهم، كما قد يتعاطف بعض الروائيين مع شخصيات رواياتهم.

حاولت أن أتبيّن، من خلال قراءة هذه المقالات، الرابط الذي جمعها بجويس. كيف تعرفتا على بعضهما يا ترى؟ هل فلورانس هي مَن بادر بالاتصال بجويس أم العكس؟ قادني حدسي إلى الاحتمال الثاني. فبعد أن اختُطِفت ابنتها، وبعد أن تبين لها أن فرص العثور عليها على قيد الحياة تتضاءل يوماً عن يوم، قرَّرت جويس أن تلجأ إلى الصحافة. لكن، ما الذي كانت تهدف إليه؟ لا أعلم شيئاً عن ذلك، ولكنني أراهن أنها قد فعلت ذلك لتطلب المساعدة من صحافية كانت تُقدّر مقالاتها.

صفحة أخرى على الإنترنت. والآن إلى الخبر الذي أثار انتباهي منذ البداية والذي أجَّلت البحث فيه رغم ذلك، أي تاريخ وفاة فلورانس الذي كان من القرب إلى تاريخ وفاة جويس بحيث أنني وجدت صعوبة في أن أرى في ذلك مجرد صدفة. شرعتُ أبحث عن معلومات إضافية حول الوفاة وأنا خائف ممّا سأكتشفه، فلم يعُد الأمر يتعلق بالتحري حول اختفاء أو اختطاف المرأة التي أحب فحسب، بل ربما أصبح متعلقاً بالكشف عن حقيقة سلسلة من الجرائم لم يعاقَب عليها أحد: جويس، فلورانس، وقد يكون هناك آخرون. . .

عثرت في أعماق الإنترنت على مقالة مفصلة حول وفاة فلورانس غالو نشرتها جريدة تصدر في فرجينيا اسمها **لافاييت تريبيون**:

صفحة الحوادث

عُثر على فتاة ميتة صباح أمس الأحد 26 يونيو في حديقة جسر سيلفر ريفر (غرب فرجينيا).

بحسب إدارة الحديقة، يبدو أن الضحية – فلورانس غالو، صحافية من مدينة نيويورك– قفزت قفزة مميتة من إحدى المرتفعات خلال ممارستها للقفز من المرتفعات، وهي ممارسة تقتضي أن يقفز الممارس بواسطة مظلّة من نقطة ثابتة لا من طائرة.

وقد عَثَر متنزهون على جثة الرياضية على حافة النهر، وبلّغوا السلطات المختصة. كانت فلورانس غالو تعرف تلك المنطقة جيداً، كما أنها كانت ممارسة مخضرمة للقفز من المرتفعات. فقد سبق لها أن نفّذت عدة قفزات من الجسر الحديدي، لا سيما في أثناء استعراضات القفز من المرتفعات التي أقيمت بمناسبة الاحتفال بـ«يوم الجسر».

ويبدو أن القفزة التي نفذتها هذه المرة قد تمّت من دون شاهد عيان ومن دون احترام قواعد هذه الممارسة. أسند التحقيق في القضية إلى شرطة فاييت. وحتى الآن لا يزال مرجّحاً أن تكون الوفاة قد حصلت بسبب حادثة، إذ يبدو، من خلال الملاحظات الأولى، أنّ مظلة الآنسة فلورانس لم تنفتح لسبب لم يتمّ الكشف عنه بعد.

شاهدت بعض صور جسر سيلفر ريفر الشهير في أوساط رياضة القفز من المرتفعات. يقع الجسر في الأبالاش وهو هيكل من حديد مشيد على علوّ أكثر من ثلاثمئة متر فوق النهر. شعرت بالقشعريرة حين تخيّلت المظليين وهم يقفزون من ذلك العلو الشاهق.

على امتداد سنوات طويلة، ظلّ الجسر إحدى مفاخر المنطقة، إلى أن منعت السلطات حركة المركبات في تسعينيات القرن العشرين، وذلك بعد عدة إنذارات أمنية. ورغم ذلك، لا يزال الجسر يحظى بالصيانة، ولا يزال مفتوحاً في وجه المتنزهين وزوار حديقة سيلفر ريفر، ولا يزال القفز من فوق قاعدته مسموحاً به، لكن بشروط واحتياطات يجب احترامها، وهو ما لم تلتزم به فلورانس غالو على ما يبدو.

بحثت في أرشيف الجريدة عن نتائج التحقيق، لكنني لم أعثُر على شيء. صفحة جديدة، على موقع #**شمس الشتاء** هذه المرة. لاحظت أنه من الممكن إرسال بريد إلكتروني إلى رئيس التحرير ألان بريدجس. لم أكُن أتوقع من ذلك شيئاً معيناً، لكنني جرّبت حظي هنا أيضاً، فطلبتُ منه أن يحدِّد لي موعداً كي يحدثني عن الذكريات التي يحتفظ بها عن فلورانس غالو.

في اللحظة التي أرسلت فيها رسالتي، رنّ هاتفي. ألكسندر.

الساعة الآن تشير إلى التاسعة والنصف صباحاً بتوقيت نيويورك، أي الثالثة والنصف بتوقيت فرنسا.

- تحياتي يا أليكس.

- تحياتي يا ابن عمتي. أستغلّ فترة استراحتي كي أكلّمك من جديد.

- أشكرك. هل لديك أخبار سارة؟

سمعته يتنهد.

- للأسف لا. لقد وقع ما كنا نخشاه. في آخر ليلة البارحة، كشفت التحاليل عن إصابة كلوتيلد بلونديل بورم دموي.

- اللعنة...

- أُجرِيَتْ لها عملية مستعجلة، وتبين أنّ تدفق الدم كان عميقاً ومجهول المصدر. ورغم أن العملية مرت في ظروف حسنة، إلّا أن صديقتك تعاني من نقص في الأوكسيجين في الدم، فهي لا تزال في غيبوبة حتى الآن.

- هل يمكنك أن تواصل المراقبة؟

- اعتمدْ عليّ.

ما أن انتهيت من المكالمة حتى اكتشفت أني توصَّلت ببريدين إلكترونيين في الوقت نفسه تقريباً. بدا وكأن ماي سو-يون وألان بريدجس اتفقا، عكس ما توقعته، على أن يعبِّرا عن استعدادهما لمقابلتي متى شئت. حددت لهما موعداً في اليوم نفسه وأنا أتساءل عن سبب سرعة ردّهما ومدى نزاهته. فمن البديهي أن لا دافع لأي من هاتين الشخصيتين العامتين لمساعدتي، وأن المبرر الوحيد لذلك هو أنهما يسعيان إلى أن يحصلا مني على ما لدي من معلومات حول هذه القضية...

التاسعة والنصف صباحاً. واضح أن ابني استيقظ من النوم. سمعت من خلف الباب الجرار ثرثرته المرحة السعيدة. كان تيو يبرطم بكلمات أغنية Get Back لفرقة البيتلز، أغنيته المفضلة منذ أسبوعين. فتحت الباب كي أسرق منه بعض البسمات في الوقت الذي كنت أتصل بمكتب الاستقبال كي أحجز مربية. واصل تيو غناءه منتقلاً إلى أغنية Papaoutai. خلال نصف الساعة التالية لم أهتم إلّا به، فحممته بصابون مارساي، وألبسته الحفاضة، ثم بدلة أطفال تعبق برائحة الخزامى.

- بسكويت! بسكويت!

كان تيو قد وقف وأرشدته معدته الجائعة إلى علبة بسكويت أوريو موضوعة في سلة قرب بار المشروبات.

- لا، لا، لم يحن موعد البسكويت بعد. الآن موعد الرضاعة. هيا بنا، سنتناولها في الأسفل.

- هيا بنا! كرر تيو.

تناولت حقيبة تضمّ كلّ حاجياتنا، وقبل أن أغلق الباب، أخذت أتأكد أن كلّ الأشياء التي يجب أن لا أنساها موجودة في الحقيبة فعلاً: **الكلب فيفي، موجود. الرضاعة، موجودة. المريلة، موجودة. قصة تشوبي، موجودة. السيارة الصغيرة، موجودة. الحفاضات، موجودة. مناديل مبللة، موجودة. مناديل ورقية، موجودة. أقلام ملونة، موجودة. كتاب التلوين، موجود.**

بعد أن اطمأننت على وجود كلّ شيء، خرجت إلى الرواق. وما أن دخلنا المصعد حتى صاح تيو: «بابا، مصاصة». تباً، لقد نسيت تلك المصاصة اللعينة مرة أخرى.

- لماذا لم تطلبها من قبل؟

تظاهر بأنه مغتاظ، وأخذ يبكي بدموع التماسيح كي ألين. رفضتُ من جهتي أن أترك الأمر يمر مرور الكرام:

- توقف عن التمثيل أيها الممثل الصغير!

عدنا إلى الغرفة. خمس دقائق كي نعثر على المصاصة (تحت السرير، مغطاة بالغبار)، غسلت المصاصة، شممت رائحة مشبوهة، تأكدت من المصدر، غيرت الحفاضة من جديد، قال إنه جائع، شعرتُ بالذنب، مفاوضات من جديد. مضيعة لوقت أنا بغنى عنها. المصعد من جديد. استغللت مرآته كي أصفّف شعري. شعري ثم شعره. ابتسمت له، وابتسم لي. وعادت المياه إلى مجاريها.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة حين وصلنا إلى بهو الفندق. في اللحظة نفسها، وفي الجهة الأخرى من البهو، انفتحت بوابة الفندق الثقيلة، ودخل رجل مهيب الطلة. أشرق وجه تيو، وأخذ يصيح ويشير بإصبعه:

- ماك! ماك!

التفتت وقطبت حاجبَي. لم أصدّق ما رأت عيناي، ولكنني شعرتُ بالارتياح. لقد جاء مارك كارادیك لينضمّ إليّ في نيويورك.

3.

- كان المطر غزيراً، وكنت وحدي في السيارة وسط الأحراش، وفي ممرٍّ ضيق. ترجل من السيارة خيال داكن يحمل بندقية، وتقدم نحوي تحت المطر.

كنا قد جلسنا، أنا ومارك، حول إحدى طاولات الفناء منذ نصف ساعة، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث. تبادلنا كلّ المعلومات التي توصلنا إليها. كانت تلك المعلومات تتقاطع مرة

أخرى، ويُغني بعضها بعضاً بشكلٍ غير متوقع، وتسلّط على ماضي كلير وأمها أضواء إضافية مأسوية.

- صوَّب الرجل سلاحه نحوي، استأنف مارك. وفي أضواء السيارة تمكنت من رؤيته جيداً. جسد غريب، قصير ومدكوك. شعر بلون الصدأ ولحية كثة. كان على بعد ثلاثة أمتار مني، واضعاً أصبعه على الزناد.

وبينما كنت أصغي له بتركيز، توقف كاراديك ليمسح فم تيو. كان ابني يبدو، وهو جالس على كرسيه العالي يلتهم شطيرة ريكوتا، كأنه مهتم بحديثنا.

- أطلق النار فتحطم زجاج سيارتي الأمامي، واصل مارك قائلاً. أحسستُ بأزيز الرصاصة وهي تمر على بعد ملمترات قليلة من صدغي.

- وبعد؟

كنت متسمراً في مقعدي، مذهولاً من الأبعاد التي اتخذتها تحقيقاتنا.

رفع كاراديك كتفيه وهو يشرب جرعة من قهوته الكابوتشينو.

- لم أترك له فرصة أن يطلق النار ثانية. أرغمني الخوف على أن أرتمي تحت المقود. كان صندوق السيارة الداخلي قد انفتح جراء طلقة الرصاص وتدحرج مسدسي على الأرضية. تناولته وأطلقت النار على الفور. إما أنا وإما هو. كان الحظ حليفي هذه المرة.

بينما كنت أشعر بالقشعريرة تسري في سائر جسدي، لم يبد على مارك أنه متأثر بمغامرته. ومع ذلك، فأنا أعرفه بما يكفي كي أدرك أن وراء مظهره الذي يوحي بالهدوء وضبط النفس، يختبئ رجل حساس معذب، يعي تمام الوعي هشاشة الوجود.

- تشوبي! تشوبي!

أخذ تيو الذي كان وجهه ملطخاً بالريكوتا يطالب بقصته: **تشوبي وحماقاته.**

بحثت عنها في الحقيبة، وناولته إياها. ما اعترف به مارك بعد ذلك أشعرني بالذهول.

- لم يكن ذلك الشخص غريباً عليّ، واصل قائلاً. إنه شرطي. سبق لي أن التقيتُ به منذ زمن طويل. حينذاك كان يعمل في شعبة حماية القاصرين حيث كانوا يسمونه «الحطاب»، أما اسمه الحقيقي فهو ستيفان لاكوست.

شعرت بالاختناق. لم أستطِعْ أن أصدق أنّ كاراديك قتل رجلاً. أصابني الرعب جراء ما تسببت فيه، والمثير للغرابة أن كلّ ذلك بدأ بشجار بسيط، شجار أنا السبب فيه، لأنني أغار على من أحبّ، ولأنني كنت أشك في ماضي المرأة التي كنت سأتزوجها.

أعادني مارك إلى الواقع:

- فتشت السيارة والرجل، لكنني لم أعثر على شيء. لا أثر لكلير. ولا لأي دليل. لا شك أنّ لاكوست كان حذراً، فهو لم يكن يحمل هاتفه حتى.

- اللعنة! ستعلم الشرطة بالحقيقة، وسيُكشف أمرك يا مارك.

هز مارك رأسه نافياً.

- لا، لا أعتقد. لن يعثروا على الرصاصة التي أطلقت، ثم إني وضعت جثة لاكوست خلف المقود، وحرقت السيارة بمن فيها. أنا متأكد أنها سيارة مسروقة. ولن تعثر الشرطة إلّا على جثة متفحمة، ولكي يتعرفوا على صاحبها سيكون عليهم أن يجروا تحليلاً لأسنانه، وسيتطلب ذلك منهم وقتاً طويلاً.

- وماذا عن سيارتك أنت؟

- أنت على حق. إنها الحلقة الأضعف. لم يكن ممكناً أن أستعملها طويلاً وقد كسر زجاجها الأمامي، لذلك قدتها بحذر مسافة عشر كيلومترات فقط، إلى أن وصلت إلى شالون-أن-شامبان. وهناك سرقت سيارة على الطريقة القديمة، أي بحك الأسلاك الكهربائية ببعضها. إنها سيارة سوبر 5 خربة، موديل 1994. هل كنت تعلم أن مثل هذه السيارات ما زالت تُستعمَل؟ لا شك أن ثمنها لا يتجاوز مئتي يورو في **أرغوس**[1]...

- ولكنهم سيعثرون على الرينج روفر خاصتك.

- لا تقلق. لقد طلبت من صديق لي صاحب محلّ لتصليح السيارات أن يأتي كي يأخذها، ولا شك أن سيارتي العجوز تخضع الآن لعملية تجميل في باريس.

أغمضت عيني كي أركز. كان عليّ أن أعيد ربط بعض الخيوط.

- في رأيك، ما علاقة ذلك الشرطي ستيفان لاكوست باختفاء كلير؟

أخرج مارك دفتره الصغير من جيبه، وأخذ يتصفحه.

- أعترف أني لا أعرف شيئاً عن ذلك. حين كنتُ في المطار، أجريت عدة اتصالات كي أتعرف على مسار لاكوست: بدأ العمل في شعبة التحري والتدخل القضائي في أورليان، ومنها انتقل إلى العمل في شعبة حماية القاصرين، ثم إلى الشرطة القضائية في فرساي. لوحظ أنه كان يعمل دائماً حيثما ينتقل النقيب ريشار

(1) *Argus*: مجلة متخصصة في بيع وشراء السيارات المستعملة - المترجم.

أنجلي. وبحسب أحد زملائي القدامى، حاول أنجلي أن يأخذ لاكوست معه للعمل في صفوف شعبة التحري والتدخل القضائي في باريس، لكن لاكوست رسب في اختبارات الدخول.

شعرت بالتوتر.

- مهلاً! إنني أعرف هذا الاسم: ريشار أنجلي! لقد سمعت به في الآونة الأخيرة.

حاولت أن أتذكر، لكن ذاكرتي لم تطعني.

- بأية مناسبة؟

- لا أذكر بالضبط. ولكنني سأتذكر لا محالة. وأنت، ألا يوحي لك هذا الاسم بشيء؟

- لا، لم يسبق لي أن التقيته. لكن يبدو أنه صعد السلّم الهرمي بسرعة خارقة. أصبح مشهوداً له بالكفاءة وممدوحاً من طرف رؤسائه، قبل حتى أن يتجاوز الأربعين. لا شك أنه شرطي كفؤ، وإلّا ما كان ليصبح نقيب شعبة مكافحة الجرائم، لا سيما وأنه...

قفزت من على مقعدي فجأة، وانتزعت القصّة من بين يدي ابني متحمساً.

فوجئ تيو فانفجر باكياً، واحتمى بحضن مارك. أخذتُ أتصفح الكتاب بهياج إلى أن عثرت على ما كنت قد دوَّنت فيه حين كنا في سيارة الأجرة متوجّهين إلى المطار.

- عرفت مَن هو ريشار أنجلي! قلت وأنا أطلع كاراديك على الكتاب. إنه حبيب مارلين دولاتور. الشرطي الشاب التابع لشعبة مكافحة الجرائم في بوردو الذي اشتغل على ملف قضية كلير كارلايل سنة 2005.

استوعب كاراديك المعلومة، ثم قال مفترضاً:

- وماذا إذا كان هو؟

- هو؟!

- ماذا إذا كان هو ذلك المحقق الذي لجأت جويس إلى خدماته سراً؟ هل هناك أفضل من شرطي فرنسي يعمل على القضية كي تصل إلى كل المعلومات وتقوم بتحريات إضافية؟

ليس هذا بسيناريو تافه. حاولت أن أتصور جويس وهي تستأجر هذا الشرطي الواعد بسرية تامة. ولكن مَن توسط لها كي تصل إليه؟ وما دام التحقيق في القضية لم يسفر عن شيء آنذاك، لماذا عادَ أنجلي وملازمه الأول ستيفان لاكوست إلى الواجهة الآن؟

- مرحباً يا تيو، كيف حالك أيها الفتي الرائع؟[1]

رفعتُ رأسي، فرأيت ماربيك المربية المكلفة بابني واقفة أمامنا في الفناء. كانت براقة كعادتها، ترتدي فستاناً لصيقاً من الدانتيلا، يحسب من يراها أنها أتت لتوها من إحدى عروض الأزياء.

فسرعان ما عاد تيو إلى مرحه، وأخذ يبتسم ويتودَّد للفتاة الألمانية الجميلة.

نظرتُ إلى ساعتي ونهضت. لقد حان وقت موعدي مع ألان بريدجس.

---

(1) بالإنجليزية في النص الأصلي.

15

قضية جويس كارلايل

أحبوني الآن أكثر، فأنا حزينة.
جورج ساند

.1

يحتل مقر موقع **#شمس الشتاء** طابقاً بكامله في بناية فلاتيرون، بناية نيويورك الشهيرة بشكلها المثلث الذي يشبه شكل المكواة. بدت البناية، وقد غمرت واجهتَها المزينة بزخارف عمودية أشعةُ شمس نهاية الصباح، شبيهة بمعبد إغريقي.

بدت مكاتب **#شمس الشتاء** من الداخل وكأنها أُنفق عليها الكثير من الأموال وحظيت على خدمات مهندس ديكور عصري. أزيلت الحواجز مفسِحَة المجال لفضاء عمل شاسع يتوسّطه أماكن مخصَّصة للاجتماعات التشاورية. أمّا الأرضية، فتميل إلى اللون الأبيض، وتمتد بين الطاولات الخشبية، والكراسي العالية، والكنبات، وكراسي «إيمس» الملونة.

وسط الغرفة الشاسعة كان هناك شخص خلف منضدة، يحضّر قهوة الكابوتشينو. وفي أحد الأركان، كانت مجموعة من الموظفين

متحلقة حول طاولة كرة الطاولة وطاولة لعبة كرة القدم. موظفون معدل سنّهم لا يتجاوز الخامسة والعشرين، ويبدو بعضهم كتلاميذ مقبلين على اجتياز اختبارات البكالوريا. أمّا مظهرهم، فكان مختلفاً متبايناً، يتراوح بين البوهيميين الملتحين ونسخ من زوكربيرغ[1] بالنسبة إلى الذكور، وبالنسبة إلى الإناث، يتراوح بين فتيات اقتنين فساتينهن من إحدى محلات وليامسبورغ لبيع الملابس المستعملة، وأخريات أنيقات جداً، تذكرنا أناقتهن بصور عارضات الأزياء على الإنترنت.

كان معظمهم منهمكاً في النقر على لوحات حواسيبهم الموضوعة فوق ركبهم، ممسكين بهواتفهم النقالة في أياديهم، وهم يأكلون رقائق الكرنب والبذور المبرعمة من صحون كبيرة موضوعة فوق الطاولات. إنه منظر يدهشني كلما رأيته، لأنه يذكرني إلى أي درجة يستطيع الواقع أن يتجاوز الخيال أحياناً.

- أعتذر عن التأخير. فأنا في سباق مع الوقت منذ ثلاثة أيام!

استقبلنا ألان بريدجس متحدثاً بلغة فرنسية تكاد تكون مثالية.

حييته بدوري، وقدَّمتُ له كاراديك قائلاً إنه شرطي متقاعد من خيرة رجال الشرطة يساعدني في تحقيقي.

- أحب فرنسا كثيراً، أكّد لنا وهو يصافحنا. حين كنت في سنّ العشرين، درست سنة في آكس-أون-بروفانس. كان ذلك منذ دهر. تصوّرا، كان جيسكار دستان قد انتُخب رئيساً لفرنسا لتوّه!

كان رئيس تحرير #**شمس الشتاء** في الستين من عمره تقريباً، يرتدي قميصاً أبيض، وبنطالاً من الكتان الفاتح، وسترة خفيفة من

(1) Mark Zuckerberg: مؤسس موقع فيسبوك - المترجم.

التويد، وحذاء رياضياً من الجلد. كانت قامته الطويلة، وصوته الدافئ، والكاريزما التي لا يمكن تجاهلها، تجعله شبيهاً بسميّه الممثل جيف بريدجس. وهو شيء مسلّ فعلاً، لأنني كنت قد قرأت على الإنترنت أن اسمه الحقيقي هو ألان كوفالكوفسكي، وأنه استعار اسم بريدجس في سنّ السابعة عشر لمّا كان ينشر مقالاته في صحيفة الجامعة.

- اتبعاني، اقترح علينا وهو يقودنا إلى الفضاء المغلق الوحيد في الطابق.

منذ جئت إلى نيويورك أول مرة ومررت أمام بناية فلاتيرون، وأنا أتساءل عن شكل ناطحة السحاب العجيبة هذه من الداخل. لم يخِبْ ظني. كان مكتب ألان بريدجس الكبير مثلث الشكل، يطلّ على منظر رائع، فهو يشرف على برودواي والجادة الخامسة وماديسون سكوير غاردن.

دعانا بريدجس إلى الجلوس:

- سأنتهي من إجراء مكالمة مستعجلة، ثم أتفرّغ لكما. الأحداث تسارعت مؤخراً بسبب مؤتمر تعيين ممثل الحزب الجمهوري في الانتخابات الرئاسية القادمة.

كان من المفترض أن ينعقد المؤتمر في مينيابوليس، لكن تمّ تغيير مكان انعقاده إلى نيويورك في آخر لحظة بسبب خطر الإعصار الذي كان يهدِّد ولاية مينيسوتا. كان هذا المؤتمر قد افتتح منذ يومين في ماديسون سكوير غاردن، وكان من المقرَّر أن ينتهي مساء اليوم بخطابٍ لتاد كوبلاند الذي اختير ممثلاً للحزب.

على ثلاث شاشات تلفزيونية ضخمة معلقة على الحائط تذيع أخباراً من ثلاث قنوات مختلفة، كان بإمكاننا مشاهدة صور أهم

وجوه الحزب الجمهوري: جيب بوش، كارلي فيورينا، تيد كروز، كريس كريستي، وتاد كوبلاند.

استرقتُ نظرة إلى مكتب بريدجس -وهو عبارة عن بابٍ عتيق من خشب صلب موضوع فوق حاملَيْن من تلك التي تستعمل في ورشات البناء- فرأيت نسخة مطبوعة من سيرتي على ويكيبيديا، والتي يبدو أنه أضاف عليها الملاحظات والحواشي.

وبينما كان بريدجس منشغلاً بمحاولة الحصول على مقابلة مع المرشح الجمهوري، سمحت لنفسي بأن أتمشى قليلاً في المكتب.

استلهم بريدجس تأثيث مكتبه من البوذية والطاوية، ما جعله مميزاً. فهو مكتب عارٍ، متواضع، يُعيد استعمال مواد قديمة يظهر عليها تأثير عامل الزمن: واضح أن مبادئ الوابي-سابي[1] قادت خطى مَن صممه.

على رفٍّ عتيق، كان بريدجس قد وضع إطاراً صغيراً يحمل صورته مع فلورانس غالو يداً في يد في حديقة باتري. إنها الصورة الوحيدة في الغرفة. وفجأة، أدركت حقيقة صارخة: لقد كان بريدجس وفلورانس عاشقين، ولعلّ ذلك هو السبب الذي دفعه إلى أن يستقبلني. كانت صورة فلورانس تشهد على أنها حبّه الذي انتُزع منه، وعلى أنها تلك الغائبة التي ربما لا يزال يفكّر فيها كلّ يوم.

إنها من نوع الصور المؤثرة التي تذكِّرني كم كرهت آلات التصوير لزمن طويل، تلك الآلات عديمة الرحمة التي تشحن القلب بالحنين. صورها الكاذبة تجمد في اللحظة الراهنة عفويةً سرعان ما

(1) Wabi-sabi: تعبير ياباني يشير إلى مفهوم خاص لمعنى الجمال، مستلهم من الديانة البوذية والطاوية - المترجم.

تتبخر، بل الأسوأ من ذلك: إنها كتلك البندقيات مزدوجة الطلقات، غالباً ما تصيب هدفها بعد مرور سنوات طويلة، إلّا أنها تصيب القلب دائماً. وذلك لأنّ عدداً من الناس لا يهمّهم شيء بقدر ما يهمهم الماضي، والبراءة المفقودة، ولحظات الحب الدفينة. لا شيء يحرِّك أشجاننا بقدر ما تحرّكها ذكريات الفرص الضائعة ورائحة السعادة التي تركناها تفلت من بين أيادينا.

لهذا السبب أحببتُ أن أصير أباً، فإنجاب طفل هو ترياق لهذا الحنين، ولتلك النضارة الذابلة. أن يكون لديك طفل يجبرك على أن تتخلّص من ماضيك الثقيل المضني، و هو الشرط الوحيد كي تتطلّع إلى الغد. أن يكون لديك طفل يعني أنّ مستقبله يصبح أهم من ماضيك. أن يكون لديك طفل يعني أن تكون واثقاً من أنّ الماضي لن ينتصر على المستقبل أبداً.

2.

- ها أنا ذا قد تفرَّغت لكما، قال لنا بريدجس وهو ينهي المكالمة. قرأت رسالتك الإلكترونية بكلّ اهتمام يا سيد بارتليمي، لكنني لم أفهم سبب اهتمامك بفلورانس غالو.

لكي أربح الوقت، قررتُ أن أتطرّق للموضوع مباشرة.

- ألم يخطر لك يوماً أنّ حادثة فلورانس قد تكون سيناريو محبوكاً؟

وفي اللحظة التي أخذت الدهشة ترتسم على وجه الصحافي، أضاف كاراديك موضحاً:

- ألم يخطر لكَ يوماً أنها تعرَّضت للقتل؟

نفى بريدجس ذلك مندهشاً.

- لم يخطر ذلك على بالي ولو للحظة، أكَّد بحسم. حسب علمي، لقد أكّد التحقيق أنّ موتها أتى على إثر حادثة. كانت فلورانس تلجأ إلى القفز من فوق ذلك الجسر كلما شعرت بالحاجة إلى رفع معنوياتها، ورغبت في الترويح عن نفسها. لقد عثروا على سيارتها في الحديقة، على بعد أمتار من الجسر.

- وماذا عن مظلّتها التي لم تنفتح؟ أنُحمِّل الخطأ في ذلك لسوء الحظ؟

- توقفا عن هذا الهراء. صحيح أني لست متخصصاً في القفز من المرتفعات، لكن هذا النوع من الحوادث يقع في هذه الرياضات. ثم، إذا أرادَ شخص ما أن يقتل أحداً، فهناك وسائل أخرى غير رميه من على جسر في منطقة نائية في فيرجينيا، أليس كذلك؟

- ومَن كان حاقداً عليها؟

- إلى درجة القتل؟ لا أحد بحسب علمي.

- هل تذكر الموضوع الذي كانت تشتغل عليه فلورانس قبل وفاتها؟

- لا، لكن لا أظن أنها كانت تشتغل على موضوع ساخن.

- ألم تكن تسعى دائماً إلى تحقيق سبق صحافي؟

- ليس على وجه التحديد. لنقُل إنّ السبق الصحافي كان يأتي إليها، لأنها كانت تملك القدرة على الإقناع والاستيعاب. كانت فلورانس شخصاً نادراً. فتاة متميزة حقاً. ذكية، مستقلة، متعاطفة مع الآخرين، خلوقة. كانت تتميز بأناقة نادرة في هذه المهنة: شيء لا نجده إلّا عند الصحافيين القدامى.

التزم الصمت لحظة، ثم استرق نظرة إلى الصورة قبالته. أخذت عيناه تشعّان. ولما أدرك أننا لمسنا اضطرابه، فضل أن لا يُخفي عواطفه.

- سأكون صريحاً معكما، رغم أنّ ما سأقوله ليس بسرّ. كنا نتواعد حينذاك. كنّا حبيبين.

تنهَّد وانحنى. بدا وكأنه كبر عشر سنوات في بضع ثوانٍ.

- كانت فترةً صعبةً بالنسبة لي، استأنف قائلاً. كان لدينا، أنا وزوجتي كاري، طفلاً عمره أربع سنوات وكانت حاملاً في شهرها الثامن. فلتنعتاني بالوغد أو بما تشاءان، ولكن ذلك ما حدث. نعم، أحببتُ فلورانس، وكنت أزمع على ترك زوجتي الحامل من أجلها، لأنها كانت المرأة التي انتظرتها دائماً. المرأة المناسبة التي دخلت حياتي أخيراً، ليس في الوقت المناسب للأسف...

وأنا أستمع إلى بريدجس، تعاطفتُ معه على الفور. بعد لحظة انهيار قصيرة، عادت عينا الصحافي تلمعان من جديد، وكأن ذكرى فلورانس لا تزال ثاوية في قلبه إلى درجة أنّ حديثاً قصيراً عنها كان كافياً كي يوقظها.

- لماذا أنت مهتم بفلورانس يا سيد بارتليمي؟ سألني من جديد.

وفي اللحظة التي كنت سأجيب، رشقني كاراديك بنظرة منبِّهة جعلتني أحجم. لم يكن مخطئاً في ذلك، فبريدجس صحافي يعمل معه جيش من المحققين، ويكفي لكلمة زائدة أن تكشف عن سرّ كلير. تريّثتُ إذاً، وفكّرت طويلاً قبل أن أردّ:

- لدينا أسباب تدعونا إلى الاعتقاد أنّ موت فلورانس لم يكُن بسبب حادثة.

تنهد بريدجس.

- أيها السيّدان، لا داعي للاستمرار في هذه اللعبة. تقتضي مهنتنا أن تحصل على المعلومة مقابل معلومة تكشف عنها. وقد كشفت لكما عن المعلومات التي في حوزتي، وحان الوقت لتكشفا عن معلوماتكما. فماذا في جعبتكما؟

- يمكن أن أخبرك بالتحقيق الذي كانت تقوم به فلورانس عند وفاتها.

لاإرادياً، غرس رئيس التحرير أظافره في لحمه من شدّة ضغطه على قبضتَيه. كانت هذه المعلومة تهمه، ووجد صعوبة في إخفاء ذلك. أحس مارك أن موازين القوى يمكن أن تميل لصالحنا.

- نحن يا ألان في نفس الفريق، الفريق الذي يبحث عن الحقيقة.

- اللعنة، عن أي حقيقة تتحدثان؟

- سأحدثك عنها فيما بعد، لكن قبل ذلك، اسمح لي أن أطرح سؤالاً أخيراً. قلت قبل قليل إن فلورانس كانت تلجأ إلى القفز بالمظلة حين تكون معنوياتها منخفضة.

- صحيح.

- ما الذي جعلك تعتقد أنها كانت محبطة نهاية ذلك الأسبوع؟

تنهد ثانية. هذه المرة، لم تكن الذكريات صعبة فحسب، بل كانت مؤلمة.

- قبل عشية وفاة فلورانس -أي يوم الجمعة- اكتشفت زوجتي علاقتنا. فأتت إلى مقرّ الصحيفة في بداية بعد الظهر، وهي حامل في شهرها الأخير، وكانت تستشيط غضباً. أخذت تصرخ في وجهي أمام كلّ العاملين. قالت إني أذللتها، وأنها ستنتحر هنا، أمام عيني.

ولما رأت فلورانس، انقضَّت عليها، وخربت مكتبها. رمَت بكلّ ما عليه على الأرض، وضربت بحاسوبها عرض الحائط. أقدمت على ذلك بعنف بلغ من القوة أنها أحسَّت بوعكة، فكان علينا أن نأخذها إلى المستشفى حيث وضعت مولودها قبل أوانه.

أذهلتني هذه الحكاية. كلّ حياة لا بدّ أن تمر يوماً بهذا النوع من الهزات، تلك اللحظة التي تصبح فيها العواطف أعواد ثقاب مشتعلة وسط غابة من القش، وتهدّد بإضرام نار قادرة على التهام كلّ ما بنيناه، وعلى دفعنا نحو الهاوية. أو نحو ميلاد جديد.

- متى كانت آخر مرة تحدَّثت مع فلورانس؟

كان مارك مركّزاً، مرتاحاً تماماً في استجوابه لبريدجس، وكأنه فهم معدنه.

- في الغد، فقد تركت لي رسالة قصيرة على مجيبي الآلي لم أعلَم بوجودها إلّا عند حلول المساء.

- وماذا جاء في تلك الرسالة؟

فكر رئيس التحرير لحظة.

- «بعثتُ لك برسالة إلكترونية قبل قليل يا ألان. قُمْ بنسخ الملف المرفق. لن تصدِّق ما ستسمعه أذناك. اتصل بي. أحبك».

نظر إليّ مارك. لا شك أننا توصّلنا إلى معلومة ما. واصل بريدجس:

- كنت بعد ظهيرة ذلك السبت، كما سبق أن قلت لكما، في المستشفى حيث وضعت زوجتي مولودها. هل يمكنكما أن تتصورا الحالة التي كنّا فيها حينذاك؟ ورغم ذلك، ألقيت نظرة على بريدي الوارد، لكنني لم أجد رسالة فلورانس. لا في بريدي الشخصي، ولا في بريدي المهني. ولا شيء أيضاً ضمن الرسائل غير المرغوب

فيها. رسالتها نفسها كانت غامضة: لم أعلم إن كانت متعلّقة بعلاقتنا أم بالعمل.

- لكن تلك الرسالة شغلت بالك، أليس كذلك؟

- طبعاً. حين حلّ المساء، تسللت خارج المستشفى وذهبت إلى شقة فلورانس في لوور إيست سايد، لكنها لم تكن هناك. ألقيت نظرة على الطريق المسدود حيث تركن سيارتها، لكن سيارتها اللكزس الصغيرة لم تكن في مكانها المعتاد.

نقرت صحافية حمراء الشعر على الباب الزجاجي، ثم دخلت إلى المكتب.

- تاد كوبلاند وافق على المقابلة! صاحَت وهي تُري بريدجس شاشة الحاسوب الذي تحمله بين يديها. لقد حصلنا على مقابلته الأولى حصرياً: ستقابله بمفردك غداً صباحاً، في ملعب لكرة السلة قرب حديقة كولومبوس. إنه شيء جيد، ولكن ألا تخشى أن يُعتقَد أننا نُحابيه؟

- سوف أطرح عليه الأسئلة المناسبة يا كروس، اعتمدي عليّ، أجابها رئيس التحرير.

اتنظر بريدجس أن تغادر المكتب، قبل أن يعود إلى الغوص في ماضيه.

- كان خبر وفاة فلورانس بمثابة تسونامي بالنسبة إلي. انتهى بي الأمر إلى أن طلقت زوجتي التي لجأت إلى القضاء لتجرِّدني من كلّ ما أملك، وتحرمني من الحقّ في ملاقاة طفلَي إلّا في المناسبات. أمّا عملي في الصحيفة، فتحوّل إلى جحيم، فلم أعُد صحافياً، بل مسؤولاً عن فصل الموظفين في الصحيفة، تمهيداً لإفلاسها سنة 2009. كانت تلك الفترة إحدى أتعس فترات حياتي.

تشبث كاراديك بالفكرة التي تراوده:

- ألم تبحث عن بريد فلورانس الإلكتروني بوسائل أخرى؟

- لم أفكر في تلك الرسالة لفترة. ثم ألقيتُ نظرة على بريد فلورانس المهني، لكنني لم أعثر على شيء. في تلك الفترة، تعرض نظامنا المعلماتي لاختراق شامل. فحتى بريدي الشخصي لم يسلم. عمّت الصحيفةَ فوضى عارمة.

- ألم يدفعك ذلك الاختراق إلى الشك والتساؤل؟

- بصراحة لا، فصحيفتنا كانت معتادة على التهديدات والاختراقات آنذاك. كانت **نيويورك هيرالد** صحيفة تقدمية. وكان ذلك في أواخر عهد جورج بوش الابن. وكنا طوال ولايته نهاجم إدارته ونفضح كذبها. فلا عجب أن...

- هل تعتقد حقاً أنّ جهات سياسية ما كانت وراء هذا الاختراق؟

- ليس بالضرورة. فأعداؤنا كانوا كُثراً: الجمعيات المساندة لبيع الأسلحة للعموم، المعارضون للحق في الإجهاض، المعارضون لزواج المثليين، المعارضون للهجرة، الليبرتاريون... نصف الولايات المتحدة الأميركية تقريباً.

- ولم تعثُر على شيء في حاسوب فلورانس؟

- المشكلة أني لم أكن أعلم أي حاسوب استعملَتْ بعد أن حطمت زوجتي حاسوبها.

- عادة، على أيّ بريد كانت تراسلك فلورانس؟

- نظراً إلى العلاقة التي كانت تربطنا، تعوّدت أن تراسلني على عنوان بريدي الشخصي، وهو لا يزال قيد الخدمة.

أخرج من جيب سترته بطاقة تعريف، وكتب بالقلم

إلى جانب عناوين المراسلة الخاصة بالعمل عنواناً آخر: alan.kowalkowski@att.net.

- بريدجس ليس هو اسمي الحقيقي، ولكن كان صداه أفضل حين شرعت أكتب. ثم إنه اسم أحبّته الفتيات...

شردت نظرته كأنما عاد بذاكرته إلى أيام شبابه الضائع، ثم ما لبث أن عاد إلى الواقع.

- طيب، حان دوركما الآن! على أيّ موضوع كانت تشتغل فلورانس عند وفاتها؟

بادرت بالإجابة هذه المرة:

- أيام قليلة قبل موتها، التقت فلورانس بامرأة اسمها جويس كارلايل.

سجل اسمها على مذكرة أمامه. واصلتُ قائلاً:

- امرأة كانت ابنتها قد اختطفها أحد المنحرفين جنسياً في فرنسا. ألا يذكِّرك هذا بشيء؟

هز رأسه نافياً وقد ارتسمت على وجهه علامات الخيبة.

- لا، لا يذكرني بشيء. لكنني لا أرى العلاقة التي يمكن أن تكون لهذا الحادث الكريه بـ...

- موت جويس كارلايل وقع ساعات قليلة قبل موت فلورانس، قلت مُقاطعاً.

بدت على وجهه علامة الاهتمام.

- كيف ماتت؟

- رسمياً، من جرعة هيروين زائدة، لكنني أعتقد أنها ماتت مقتولة.

- وما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟

- سأخبرك حينما أحصل على معلومات أكثر.

عقد بريدجس يديه، وأخذ يفرك جفنيه بإبهاميه.

- سأتحرى عن جويس كارلايل هذه.

قال ذلك ثم نهض وأشار إلى خلية النحل خلف زجاج مكتبه.

- هؤلاء الفتيان يبدون غير مبالين بالعمل، لكنهم من خيرة من ينبشون في القضايا الشائكة. فإذا كان هناك شيء ليُعثر عليه بشأن هذه المرأة، فسيعثرون عليه لا محالة.

أخرجت من جيبي حلقة المفاتيح التي أعطتني إياها غلادس.

- إذا كان لديك شيء من الوقت، فاذهب وألقِ نظرة.

- ماذا تفتح؟ سأل وهو يتناول حلقة المفاتيح.

- مستودعاً جمَعَت فيه أختا جويس أمتعتها.

- سنذهب إلى هناك، قال واعداً.

وهو يرافقنا إلى المصعد، راودني إحساس بأني تركت أمراً غير منجز، وهو الإحساس نفسه الذي يراودني أحياناً حين أنتهي من كتابة أحد فصول رواياتي. الفصل الجيد لا بدّ أن يحتوي على مقدّمة وصلب موضوع وخاتمة. أما الآن، فبدا لي أنه فاتني موضوعي. فاتني ما هو أساسي. ما الذي كان عليّ أن أدركه؟ ما هو السؤال الذي لم أطرحه؟

صافحنا بريدجس-كوفالكوفسكي مودعاً، وفي اللحظة التي كان باب المصعد على وشك الانغلاق، أمسكت به بقوة، وسألت ألان:

- أين كانت تسكن فلورانس؟

التفت إليّ رئيس التحرير وقال:

- سبق أن قلت لكما إنها كانت تسكن في لوور إيست سايد.

- وما هو عنوان سكنها؟

- شقة صغيرة تقع في تقاطع شارعَي باوري وبوند.

نظرت إلى كاراديك نظرة محمومة. إنه المكان الذي أجريَت منه المكالمة التي بلَّغَت عن تعرض جويس لاعتداء!

3.

بعد أن غادرنا فلاتيرون، مشينا جنوباً على أرصفة برودواي وساحة الجامعة المشمسة، إلى أن وصلنا إلى قرية غرينتش. كانت مانهاتن تعجّ بالحركة، لأن المؤتمر الجمهوري استقطب عدداً هائلاً من الناس: صحافيين، مراسلين، ناشطين، مناصرين. وفي منطقة ماديسون سكوير غاردن، كانت عدة شوارع قد أغلقت في وجه المرور أو خصصت للباصات المكلفة بنقل المشاركين من فنادقهم إلى المكان الذي ينعقد فيه المؤتمر.

إلّا أن نيويورك، تاريخياً، كانت أبعد ما تكون عن معقل للحزب الجمهوري. ففي خريف 2004، كنت في مانهاتن من أجل التعرف على معالمَ سيردُ ذكرها في روايتي، وما زلت أذكر الجو الكريه الذي كان يخيم على المدينة آنذاك لأن أنصار جورج بوش الابن كانوا قد اختاروا المدينة مسرحاً لانعقاد مؤتمرهم، متمنين أن يعيد ذلك إحياء الانفعالات التي تلت هجمات 11 سبتمبر الإرهابية. في تلك الفترة، كان سكان مدينة نيويورك يكرهون الجمهوريين. فقام مئات الآلاف منهم، بقيادة مايكل مور على الخصوص، بمظاهرة ضد بوش كي يحتجوا على سياسة الكذب وعلى الحرب غير المشروعة التي يقودها ضد العراق. بدت مانهاتن يومها وكأنها في حالة حصار، إذ تحوّلت الاحتجاجات إلى مواجهات نتج عنها عدد

كبير من الاعتقالات. وشهد العالم صور الجمهوريين وهم محاصرون في ماديسون سكوير غاردن حيث يقوم آلاف من رجال الشرطة بحمايتهم. لم يمنع ذلك أن يُعاد انتخاب جورج بوش، إلّا أن الحزب الجمهوري العتيق لم يخرج من تلك التجربة سالماً.

ومرت اثنتا عشرة سنة تغيّرت فيها أشياء كثيرة. وها نحن نرى، بعد ظهيرة هذا السبت، ورغم الإنزال الأمني الكثيف، أن الأجواء هادئة مرحة. ولعلّ مردّ ذلك إلى أن الجمهوريين، هذه المرة، اختاروا مرشّحاً شاباً معتدلاً يبدو وكأنه خرج لتوه من مسلسل تلفزيوني لشوندا رايمز. لقد كان تاد كوبلاند، حاكم ولاية بنسلفانيا، متساوياً مع هيلاري كلينتون بحسب استطلاعات الرأي.

كان كوبلاند من مناصري الحق في الإجهاض، والحفاظ على البيئة، ومؤيداً لسياسة مراقبة بيع الأسلحة، ومدافعاً عن حقوق المثليين، ما جعل عدداً من مناصريه حائرين، بل مغتاظين. ورغم ذلك، نجح خلال مواجهة ساخنة في الانتخابات الأولية داخل الحزب، في أن يخلق المفاجأة حين تمكن من هزم دونالد ترامب وتيد كروز، المحافظَين المتطرفَين للحزب الجمهوري.

وها نحن نرى الآن كيف أن موازين القوى تميل إلى «باراك أوباما الأبيض» كما لقّبته الصحافة، الذي بدأ حياته، كما الرئيس الأميركي الحالي، مساعداً اجتماعياً قبل أن يصبح أستاذاً جامعياً في القانون الدستوري بجامعة فيلادلفيا. كوبلاند رجل في الخمسين من عمره، من وسط شعبي، عرف كيف يستميل عدداً من مناصري مرشحة الحزب الديمقراطي، وهي أكبر منه سناً، وتنتمي إلى أسرة سياسية عريقة.

ألقيتُ نظرة على ساعة يدي. ما زلنا بعيدين جداً عن موعد

لقائنا التالي. لاحظت، منذ لحظات، أنّ مارك متعبٌ، فاقترحت عليه:

- ما رأيك في صحن من المحار؟

- فكرة جيدة، أجاب مارك. بدأت أشعر بالتعب قليلاً. نتيجة اختلاف التوقيت...

- ... بل نتيجة الصدمة الناتجة عن تصفيتك للاكوست.

نظر إليّ دون أن ترمش عيناه.

- لا تنتظر مني أن أبكي على ذلك الوغد.

رفعت رأسي كي أتبين المكان.

- اتبعني!

كنت أعرف مطعماً صغيراً في الحي، متخصّصاً في طهي المحار، في تقاطع شارعَي كورنيليا وبليكر. كان قد أخذني إليه عدة مرات صديقي الكاتب آرثر كوستيلو، وهو كاتب من مدينة نيويورك ينشر كُتبَه في فرنسا الناشرُ الذي ينشر كتبي.

مشى كاراديك إلى جانبي، فمضينا إلى شارع ضيق تحفّ به عمارات من آجر أحمر، وأشجار مختلفة الألوان.

- **مرحباً بكما أيها الرفيقان، اجلسا حيث يحلو لكما!**[1]

كلما أتيت إلى أويستر بار إلّا وشعرت بالراحة لأنه خالٍ من السياح.

- مكان لطيف، قال مارك وهو يجلس على أحد الكراسي العالية حول المنضدة.

- كنت متأكداً أنه سيعجبك.

(1) بالإنجليزية في النص الأصلي.

في أويستر بار، تشعر وكأنّ الزمن توقف عند سنوات الستينيات من القرن العشرين. إنه أحد مطاعم الميناء في نيو إنجلاند حيث النادلة تخاطبك بـ«**يا عزيزي**» وتقدم لك المزّة مع مشروبك، وحيث المذياع يذيع أغنيات لريتشي فالنس، وجوني ماتيس، وتشوبي تشيكر، وحيث صاحب الحانة يضع قلم رصاص خلف أذنه، وحيث للفراولة طعم الفراولة، وحيث الناس يجهلون وجود الإنترنت وكيم كارداشيان.

طلبنا طبقَي محار وقنينة من نبيذ سانسير الأبيض. كانت لحظات صعبة، لكن في اللحظة التي رفعنا كأسينا، شعرت بالامتنان. منذ عرفته، حرص كاراديك على أن يكون إلى جانبي وإلى جانب ابني كلما احتجت إليه، وها هو ذا اليوم لم يتردّد اليوم أن يركب الطائرة كي يلحق بي في نيويورك. لقد كاد يُقتل بسببي، ووجد نفسه في موقف أجبره على أن يقتل رجلاً.

يجب أن أعترف بأنه لم يكن لدي في هذه الحياة سوى كلير ومارك. فأنا لا يجمعني أيّ شيء بأختي، وأمي التي تسكن في إسبانيا لم ترَ حفيدها إلّا مرتين منذ ولادته، أما أبي، فما زال يعيش في جنوب فرنسا، ولكنه بدأ حياة جديدة مع فتاة عمرها خمس وعشرون سنة. رسمياً، لم أكن على خلاف مع أي واحد منهم، لكن لقاءاتنا كانت نادرة متباعدة، إن لم تكن منعدمة. أسرة تعيسة.

- أشكرك لأنك أتيت يا مارك. أنا آسف حقاً لأنني ورّطتك في هذه القضية.

التقت نظراتنا. غمزة، تواطؤ، حياء.

- لا تقلق، سننقذ كلير كارلايل ممّا هي فيه.

- تقول ذلك لتُطمئنني فقط.

- لا، أنا مقتنع بذلك. تحقيقاتنا تتقدّم. نحن فريق جيد.

- حقاً؟

- نعم، فأنت محقّق لا يُستهان به.

لقد جدّد لقاؤنا مع ألان بريدجس طاقتنا. حصلنا على معلومات جديدة، لكنني كنت لا أزال أشعر وكأنني أمام كبة خيط كبيرة جداً متشابكة الخيوط، وأن عليّ أن أفكّها.

وضع مارك نظارته وأخرج من جيبه خريطة للمدينة كان قد أخذها من بهو الفندق.

- حسناً، دلّني الآن على الأماكن التي جرت فيها الأحداث يوم موت جويس.

عينت له الأماكن، فوضع علامة على منزل جويس في هارلم، وعلى منزل فلورانس في لوور إيست سايد، الذي يقع على بعد خمسة عشر كيلومتراً جنوباً.

- هَا، ما هو السيناريو الذي تقترحه؟ سألني وهو يصبّ لنفسه كأساً أخرى من النبيذ.

أخذت أفكر بصوت عالٍ.

- «لن تصدق ما ستسمعه أذناك». هذا ما قالته فلورانس لألان بريدجس بعد أن أرسلت له البريد الذي ادّعى أنه لم يتوصّل به.

- همم.

- لم تقل له: «لن تصدق ذلك أبداً»، أو «لن تصدق ما ستراه عيناك»، بل قالت: «لن تصدق ما ستسمعه أذناك»، وواضح إذاً أنها بعثت له بملفّ صوتي.

- أتفق معك، ولكن أي ملف؟

- مكالمة سجّلتها لتوّها بهاتفها.

مطّ مارك شفتيه معبّراً عن عدم اقتناعه، ولكنني لم أتأثّر بشكّه.

- سألتني عن سيناريو، فإليك سيناريو محتمل: أعتقد أن فلورانس لم تسجّل جويس دون علمها.

- وما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟

- أولاً، لأن هذا ليس من طبعها، ثم إنني أؤمن منذ البداية أن جويس هي مَن ذهب إلى فلورانس كي تحكي لها قصّتها.

- إذاً، فأنت تعتقد أنهما اتفقتا على تسجيل صوت شخص آخر؟

- نعم، شخص كانت جويس قد حدّدت له موعداً في منزلها. إليك ما أتصوّره: أغرت جويس ضحيتها كي تستدرجها إلى الكلام، واتّصلت بفلورانس بهاتفها الجديد ذي الشريحة مسبقة الدفع. وعلى الطرف الآخر من الخطّ، أخذت فلورانس تستمع وتسجّل ما يدور بينهما من حوار. وفجأة...

- ... تحول الحديث إلى شجار، واصل مارك متبنياً نظريتي في ما حدث. ربما انتبه ذلك الشخص بأنّ حديثه يُسجل، فأغضبه ذلك وراح يضرب جويس التي أخذت تصرخ.

- هنا، خافت فلورانس، فنزلت إلى كشك الهاتف تحت منزلها لتُبلّغ عن تعرّض جويس لاعتداء. وهو ما ذُكِر في الوثائق التي سلمتني إياها غلادس.

وفي اللحظة التي أحضرت لنا النادلة طبقَي المحار، أخرجتُ النسخ من حقيبتي وناولتها لمارك. احتاج إلى نظارته من جديد كي يقرأ التقرير عن المكالمة التي تلقّتها الشرطة على الرقم 911.

التاريخ: السبت 25 يونيو 2005. الساعة: الثالثة بعد الزوال.

«أتصل بكم كي أبلغ عن اعتداء عنيف في الرقم 6 شارع بيلبري، في منزل جويس كارلايل. أسرعوا، إنها تُقتل!».

حتى الآن تبدو الأمور منطقية، إلّا أن الشرطة وصلت إلى عين المكان بعد ست دقائق من تلقي المكالمة، وأنهم لم يلاحظوا شيئاً يدعو إلى الشكّ. ألقيتُ نظرة على التقرير من فوق كتف مارك وأحطت بدائرةٍ الفقرةَ التي تشير إلى أنّ الشرطيين تمكّنا من إلقاء نظرة من الخارج على كلّ ما بداخل المنزل، بما في ذلك الحمّام، وأنهما لم يلاحظا أيّ أثر لاقتحام، أو لعراك، أو لدم.

- لكن عُثر على جثة جويس في المنزل... همس مارك.

- نعم، حدث ذلك في الغد. عثرت عليها أختها أنجيلا قرب حوض المغسلة، وقد أكّدت لي بنفسها أنّ الدم كان في كلّ مكان من الحمام.

- شيء محير، أكَّد مارك. وهذا يقوّض كلّ تخميناتنا السابقة.

تنهّدت وكززت على أسناني، ثم بلغت من الغضب أن هويت بيدي على المنضدة.

16

قضية غير محلولة

لا شيء نملكه إلّا الوقت.

سينيكا

1.

مثل هذه الحركات لا مكان لها في أويستر بار، فأخذ بعض الرواد يرشقونني بنظرات مستهجنة. فحاولت أن أتحكّم في ما أشعر به من سخط.

- لا شكّ أنّ الشرطيّين باول وغوميز كذبا!

- لا أعتقد ذلك، قال مارك وهو يدهن قطعة من خبز الذرة بقليلٍ من الزبدة.

- لماذا؟

هزّ كتفيه.

- ولماذا سيكذبان؟ ما هدفهما من ذلك؟

- ربما لم يذهبا إلى عين المكان. في تلك الفترة، كانت الشرطة تتلقى الكثير من الاتصالات الكاذبة التي...

رفع يده كي يقاطعني.

- حملت رسالة فلورانس ما يكفي من مصداقية كي تؤخذ على محمل الجد. التعليمات المتعلقة بالتدخل في حالات الاعتداء ملزمة، ولا أحد يجرؤ على تجاهل طلب مساعدة من هذا النوع. وحتى إذا فرضنا أنهما لم يتفقدا المكان كما يجب، فإنهما كانا سيقولان إنّ الستائر كانت مسدلة، فذلك أقل خطراً بالنسبة إليهما ممّا صرّحا به.

أخذت أفكّر في هذه الحجج قبل أن أسأله:

- ما هو تفسيرك إذاً؟

- للأسف، ليس لديّ أي تفسير، أجاب الشرطي وهو يأكل خبزه.

ثم أخذ مارك يأكل المحار وهو يواصل قراءة تقرير الشرطة التي مدّتني به غلادس. كان مستواه في اللغة الإنجليزية لا بأس به، إلّا أنه كان يلجأ إليّ في كثير من الأحيان كي أشرح له بعض المصطلحات التقنية والتعابير الغامضة.

عاد، في مناسبتين، إلى جزئية لم أنتبه لها، أو بالأحرى لم أعتقد أنها مجدية. أكّد إسحاق لانديس، وهو مسؤول عن محلٍّ لبيع الكحول يقع في الرقم E2 بالشارع 132، أنه باع قنينة فودكا لجويس كارلايل يوم السبت 25 يونيو، على الساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقة بعد الزوال. قلت:

- نحن نعلم علم اليقين إذاً أن جويس كانت في الحي حينذاك، وأنها كانت لا تزال على قيد الحياة في تلك الساعة، ولكن ماذا نعلم بالإضافة إلى ذلك؟

بحركة من يده، أشار إليّ مارك أن أعيّن له مكان محلّ بيع

الكحول على الخريطة. كان يقع على بُعد حوالي سبعمئة متر من منزل والدة كلير في الرقم 6 شارع بيلبري.

- أجد صعوبة في تصوّر الأمكنة، اعترف قائلاً. أتعلم أني لم أضَع قدمي في هارلم قط؟

- حقاً؟ متى كانت آخر مرة جئت فيها إلى نيويورك؟

صفّر، ثم قال:

- أتيت إليها رفقة إليز وطفلتنا الصغيرة في عطلة عيد الفصح سنة 2001، شهوراً قليلة قبل الهجوم الإرهابي.

ناولته هاتفي الذي خزّنت فيه كلّ صور حي هارلم التي قمت بالتقاطها أمس حين ذهبت للقاء إيثيل فراداي والأختين كارلايل. أخذ ينظر إليها بإمعان ويطرح عدة أسئلة:

- أين يقع هذا؟

سألني وهو يُشير إلى لوحة فوق حانوت صغير مكتوب عليها «تخفيضات في الكحول والمشروبات - منذ 1971».

- في تقاطع شارعَي لينوكس وبيلبري.

- قرب منزل جويس إذاً، أليس كذلك؟

- نعم، على بعد عشرين متراً فقط.

لمعت عينا مارك. كان متأكداً أنه توصل إلى شيء ما، وإن كنت لا أدرك ما هو. وضع يده على ساعدي، وقال:

- إذا كانت جويس ترغب في شيء من النبيذ، فلماذا ستقطع مسافة كيلومتر تقريباً على قدميها كي تشتري قنينتها، في حين أنّ حانوتاً لبيع الكحول يقع أمام باب منزلها؟

- ربما كان الحانوت مغلقاً، قلت مجازفاً.

رفع عينيه إلى السماء وقال:

- أيغلق دكان لبيع الكحول بابه يوم السبت عصراً؟ لا بدّ أنك تمزح! نحن في الولايات المتحدة الأميركية يا أخي، لسنا في فرنسا. هم لم ينتظروا صدور قانون ماكرون كي يفتحوا حوانيتهم خلال نهاية الأسبوع!

- ممم.

لم أكُن قد اقتنعت بعد، لكن كاراديك تشبّث بفكرته.

وأنا أنظر إلى الخريطة على المنضدة أمامي، تذكرت أن أنجيلا كارلايل كانت قد أسرّت لي أنها ذهبت رفقة أختها خلال نهاية ذلك الأسبوع إلى فيلادلفيا لزيارة والدتهما. لم يكُن في منزلهما أحد إذاً. أعلنت متحمساً:

- وجدتها!

شرحت له فكرتي وهو ينظر إليّ مندهشاً: لسبب لا أعلمه حتى الآن، فضّلَتْ جويس أن تستقبل زائرها **في منزل أختيها** بدلاً من منزلها، لكنها لم ترَ ضرورة في أن تخبر فلورانس بذلك. وهذا يشرح كلّ شيء: الفودكا التي اشترتها من حانوت اعتقدنا أنه بعيد، والشرطيان اللذان لم يعثرا في منزلها على ما يدعو إلى الشك. فقد قامت فلورانس، بكل بساطة، بإعطائهم عنواناً خاطئاً من دون قصد!

بلغ بي الحماس أن قمت بحركة مفاجئة أسقطت على إثرها الكأس على المنضدة.

- يا لي من أخرق!

تهشّم الكأس واندلق النبيذ على ملابسي راسماً بقعة دائرية وسط قميصي.

بلّلت منديلاً ومسحته إلّا أنّ رائحة النبيذ أبَت أن تزول.

- سأعود حالاً، قلت وأنا أنزل من على الكرسي العالي.

عبرت الصالة متوجّهاً نحو المرحاض، وبما أنه كان مشغولاً، وقفت أمام الباب أنتظر. في تلك اللحظة، رنّ هاتفي. إنها ماريك. كلّمتني مضطربة لأنّ تيو سقط فأدمي قليلاً.

- أفضّل أن أتصل بك في مثل هذه الحالات! قالت وهي ترمي الكرة في ملعبي.

سمعته يبكي، فطلبت أن أكلّمه، وما هي إلّا ثوانٍ حتى فهمت أنّ إصابته طفيفة.

- يا لك من ممثّل صغير!

لقد لجأ طفلي المكيافيلي إلى هذه الحيلة كي ترثي مربّيته لحاله وتغمره بالقبل. هذا كلّ ما في الأمر. نسي الألم حين كلمتُه. وبينما كان تيو يحكي لي بالتفصيل عمّا أكل، أخذت أنظر إلى كاراديك من بعيد. ينبغي أن أعترف أن مارك يتميز بالقدرة على أن ينال ثقة الناس. في هذه اللحظة، كان يتحدث مع الشاب الجالس إلى جوارنا وكأنه صديقه منذ زمن طويل. إنه طالب يدرس الفنون في أحد المعاهد، يلبس نظارات سميكة، لم يتوقف عن الرسم على دفتره طوال الوقت. أنعمت النظر. رأيت مارك يطلب منه أن يعيره هاتفه. كان قد أخبرني أنّ هاتفه النوكيا لا يعمل في الولايات المتحدة. لم يكُن مارك يتصل بأحد، بل كان يتصفح الإنترنت. **عمّ كان يبحث يا ترى؟**

انفتح الباب فدخلت المرحاض. حاولت أن أصلح الضرر باستعمال الصابون والماء الدافئ والهواء الساخن المنبعث من مجفّف الشعر. حين خرجت، كانت تفوح مني رائحة الصابون، ولم أعُد أشبه سكران تفوح منه رائحة النبيذ على الأقل.

لم أجد مارك جالساً إلى المنضدة.

- أين ذهب الرجل الذي كان برفقتي؟ سألت الطالب.

- ذهب لتوه، أجاب صاحب النظارات.

- ماذا؟

أشار الشاب إلى واجهات المطعم الزجاجية. ذُهلت.

- ترك لك هذا، قال وهو يلبس سترته.

زرّر سترته، وناولني خريطة مدينة نيويورك التي كتب كاراديك على ظهرها بضع جمل:

راف،

سامحني لأنني ذهبت دون أن أخبرك، ولكن عليّ أن أتأكد من أمرٍ قد يكون تافهاً. وإذا كان الطريق الذي سأسير فيه مسدوداً، يستحسن أن أسلكه وحدي.

واصل التحقيق من جهتك. لقد اهتديتَ إلى طريقة خاصة بك: حقِّق كما تكتب. استمر في مطاردة الشبح، شبح عائلة كارلايل.

أعتقد أنك على حق: كلّ الحقائق في هذا العالم توجد جذورها في أرض الطفولة.

سأوافيك بالأخبار حال توصّلي بها. قبِّل صديقي تيو.

مارك

شيء يكاد لا يُصدق. قبل أن يذهب الطالب إلى حال سبيله، أمسكته من كمّه.

- لماذا طلب استعمال هاتفك؟

أخرج الفتى هاتفه من جيبه، وقال:

- انظر بنفسك.

فتح محرك البحث على الصفحات البيضاء، وهو دليل الهاتف في الولايات المتحدة.

كان مارك قد بحث عن رقم أو عنوان ما، لكن الموقع لم يحتفظ ببحثه في ذاكرته.

أعدتُ الهاتف إلى صاحبه، وبقيت مذهولاً لحظة، تعيساً كطفلٍ يشعر أنه تمّ التخلّي عنه.

لماذا ينتهي الأمر بمَن أحبّهم أن يبتعدوا عني؟

.2

كانت المحقّقة السابقة ماي سو-يون قد حدَّدت لي موعداً في مقر منظمة مشروع الشفافية بجامعة الحقوق في مانهاتن، بحيّ ساحة واشنطن.

كان المكتب الذي طلب مني المساعد أن أنتظر فيه مكتباً جدرانه من زجاج، يشرف على صالة المطالعة في الجامعة. في هذا الوقت من بداية بعد الظهر، كانت المكتبة ملأى عن آخرها، وكان الطلبة الذين استأنفوا دراستهم الأسبوع الماضي منكبّين على كتبهم وحواسيبهم في جوّ من المثابرة والاسترخاء في الآن نفسه.

أمام هذا المشهد المشجّع على الدراسة، عادت بي الذاكرة إلى الجامعة القميئة التي حصلت منها على شهادة الماجستير. تذكرت الزحام في المدرجات، والدروس المضجِرة المنوِّمة، والأساتذة المسيسين اللامبالين، والمباني التي تعود إلى سنوات السبعينيات والتي أصبحت منفِّرة وبالية، وغياب المنافسة. كانت أجواء الجامعة مسكونة بهاجس البطالة والآفاق المسدودة. صحيح أنه لا يمكن

المقارنة بين الوضعين لأنّ الطلبة هنا يؤدون ثمن دراستهم غالياً، ولكنهم يحصلون بالمقابل على دراسة قيّمة. إنها أحد الأشياء التي تثير غضبي كلما فكرتُ في فرنسا: كيف يُعقل أن يرضى المجتمع، منذ عشرات السنين، بنظام تعليمي جامد، لا يحفز الطلبة، نظام تنعدم فيه المساواة رغم خطابات الواجهة التي تدّعي العكس؟

طردتُ هذه الأفكار المحزنة التي كان تخلي كاراديك عني مسؤولاً عنها جزئياً، وانصرفتُ إلى هاتفي كي أطّلع على الوثائق التي قمتُ بتحميلها في أثناء أبحاثي صباحاً.

أُسس مشروع الشفافية في التسعينيات من القرن العشرين على يد إيثان وخوان ديكسون، وهما محاميان مناهضان لعقوبة الإعدام، بغرض مساعدة ضحايا الأخطاء القضائية.

لكي تتمكن المنظمة من القيام بتحرّياتها المضادة الخاصة بها، لجأت إلى عقد شراكات مع عددٍ من جامعات الحقوق في أميركا. وهكذا شرع الطلبة، تحت إشراف محامين محنكين، في فتح ملفات قضايا قديمة، صدر الحكم فيها على أشخاص -هم في الغالب من الطبقات المحرومة- حُطِّمت حياتهم بسبب تحريات ناقصة وأحكام متسرعة تُصدرها محاكم غارقة في القضايا.

على مدى السنين، وبعد أن أصبح تحليل الحمض النووي في المتناول، تبيَّن أنّ عدداً هائلاً من الأخطاء القضائية قد ارتكب، فاكتشف الرأي العام الأميركي أنّ الأحكام الصادرة عن العدالة الأميركية ليست جائرة فحسب، بل هي صادرة عن جهاز قضائي يدين الأبرياء بالجملة. وهكذا وجد المئات، إن لم يكن الآلاف، من المواطنين أنفسهم، وعلى أساس مجرد شهادة يدلي بها شخص ما ضدهم أحياناً، محكومين بالسجن مدى الحياة أو في طابور الإعدام.

تحليل الحمض النووي ليس دواءً لكلّ داء طبعاً، إلّا أنّ عدداً من الذين صدرت في حقّهم أحكام جائرة وجدوا أنفسهم خارج أسوار السجن بفضل منظمات مثل مشروع الشفافية.

- مساء الخير يا سيد بارتليمي.

أغلقت ماي سو-يون الباب خلفها. إنها في الأربعين من عمرها، توحي مشيتها بأنها متشدِّدة، رغم أن لباسها يوحي بعكس ذلك: جينز باهت اللون، سترة من المخمل الأزرق موشّاة بشعار الجامعة، حذاء رياضي بالٍ من طراز أديداس سوبرستار. كان شعرها الأسود البراق أوّل ما يلاحظه مَن يلقاها، وكانت قد عقصته خلف رأسها بطريقة تمنحها مظهراً أرستقراطياً.

- شكراً على استقبالك لي بهذه السرعة.

جلسَت قبالتي ووضعت على المكتب كومة من الملفات كانت تحملها تحت ذراعها، ونسخة من إحدى رواياتي المترجمة إلى اللغة الكورية.

- إنها نسخة أخت زوجي، قالت وهي تناولني الرواية. كتبك ذائعة الصيت في كوريا، وسيسعدها كثيراً أن تكتب لها إهداء. اسمها لي هيو-جونغ.

وبينما كنت أقوم بالمهمة، قالت:

- ما زلت أتذكر جيداً قضية كارلايل لأنها كانت إحدى آخر القضايا التي كُلفت بها قبل أن أترك الشرطة.

- ولماذا غيَّرت عملكِ؟ سألتها وأنا أناولها الرواية.

طرفت جفنَيها بشكلٍ واضح على وجهها الجميل المثقل بالمساحيق.

- غيرت عملي؟ عبارتك صحيحة وخاطئة في الوقت نفسه، فأنا

لا أزال أقوم بالعمل نفسه: ما زلت أتحرى، وأدرس تقارير الشرطة، وأعود إلى أماكن ارتكاب الجرائم، وأعيد الاتّصال بالشهود. . .

- إلّا أنك تَسعين الآن إلى إخراج الناس من السجن بدلَ الزجّ بهم فيه.

- ما أسعى إليه دائماً هو أن تُحقق العدالة.

أحسستُ أنّ ماي سو-يون متوجسة، وأنها توظف جملاً مبتذلة كي تحمي نفسها. قبل أن أتطرّق للموضوع، حاولت أن ألقي عليها سؤالاً آخر حول عملها، لكنها أفهمتني أنّ وقتها ثمين:

- ماذا تريد أن تعرف عن قضية كارلايل؟

ناولتها الملف الذي أعطتني إياه غلادس.

- كيف حصلت على هذا الملف؟ تفاجأت وهي تتصفّحه.

- بأشرف الطرق. إنه ملف حصلت عليه عائلة الضحية بعد الخلل الذي حصل في التحقيق.

- لم يحصل أيّ خلل في التحقيق، قالت وكأنها تدافع عن نفسها.

- أنت على حق، لنقل إذاً إنّه حصل خلل بين معلومات الاتصال الذي تلقته الشرطة على الرقم 911، وتقرير الشرطيين اللذين انتقلا إلى عين المكان.

- نعم، أذكر هذه الحلقة.

اسودّت عيناها. كانت تتصفّح الملف، باحثة عن أوراق غير موجودة فيه على الرجح.

- لم تحصل العائلة إلّا على مقتطفات، قلت موضحاً.

- هذا أمر واضح.

أخذت عشر دقائق كي أعرض عليها ما توصّلت إليه: اقتناء جويس لهاتف ذي شريحة مسبقة الدفع أياماً قليلة قبل موتها، علاقتها بالصحافية فلورانس غالو التي تسكن في المكان الذي أجري منه الاتصال بالشرطة لطلب النجدة. وأنهيت كلامي بأن عرضت عليها فرضيتي، أي أنّ جويس قُتِلت في منزل أختيها قبل أن تنقل جثتها إلى حمام منزلها.

ظلت الشرطية السابقة صامتة طوال عرضي، لكني رأيت كيف تغيّرت تعابير وجهها كلّما تقدمت في الكلام وكشفتُ عن عناصر جديدة.

- إذا كان ما تقوله صحيحاً، فهذا يعني أنّ الملف أُغلِق قبل الأوان، لكننا لم نكُن نتوفر على كلّ هذه المعلومات حينذاك، قالت معترفة لمّا أنهيتُ كلامي.

طرفت عيناها وهي تقول مبرِّرة:

- الطبيب الشرعي نفسه خَلُص إلى أنّ الوفاة كانت نتيجة جرعة زائدة لا غير، رغم ذلك الاتصال المحيّر الذي تلقَّته الشرطة.

امتقع وجهها. طأطأت رأسها من جديد، وأخذَت تنظر إلى الأوراق المفروشة أمامها. قادني حدسي إلى أنْ أسألها:

- هل كان هناك شيء مهم في الملف يا سيدتي؟ شيء ليس موجوداً ضمن الأوراق التي أمامكِ؟

أخذت ماي سو-يون تنظر إلى ما خلف النافذة بعينين شاردتين، ثم سألت:

- لماذا أنت مهتم بهذه القضية التي مرّت عليها أكثر من عشر سنوات؟

- هذا ما لا أستطيع أن أخبرك به.

- لا أستطيع أن أساعدك في هذه الحالة.

تملّكتني نوبة غضب، فاقتربتُ منها إلى أن صار وجهي على بُعد سنتمترات قليلة من وجهها، وقلت بصوت مرتفع:

- ستساعدينني، وستساعدينني حالاً! لأنكِ **أخطأتِ** خطأ فادحاً قبل عشر سنوات ولأنّ خطاباتك المعسولة عن العدالة لا يمكن أن تبقى مجرد كلام!

3.

خافت ماي سو-يون، فتراجعت إلى الوراء، وأخذت تنظر إليّ كما لو أنني شخص مريضٌ نفسياً. لقد سقطت الأقنعة الآن على الأقل. أغمضت عينيها بضع ثوانٍ، وظللتُ عاجزاً عن التنبؤ بما سيحدث بعد ذلك. هل ستخرج خنجراً من حقيبتها اليدوية تجزّ به عنقي؟ قالت عوض ذلك:

- فرضيتك لم تكشف لنا عن هوية قاتل جويس.

- أنا بحاجة إليك لهذا السبب.

- في مَن تشك؟ في إحدى الأختين كارلايل؟

- لا أدري. كلّ ما أريد أن أعرفه الآن هو ما إذا كان في بقية الملف شيء يمكنه أن يفيدنا في التحقيق.

- لا شيء قد يفيدك أمام محكمة، قالت مؤكِّدة.

- لم تجيبي عن سؤالي.

- سأحكي لك قصة يا سيد بارتليمي. باعتباركَ كاتباً، أعتقد أنها ستُثير اهتمامك.

كان في المكتب موزع آليّ للمشروبات. قامت من على الكرسي، وأخرجَت من جيب بنطالها الجينز فكّة، وتناولت قنينة شاي ماتشا باردة.

- قمت بدراسات علمية في الأساس، قالت وقد اتكأت على الآلة الموزعة، لكنني كنت أرغب دائماً في أن أنزل إلى الميدان وأختلط بالناس في حياتهم اليومية الملموسة. بعد أن حصلت على شهادة في علم الأحياء، تقدّمتُ لمباراة الالتحاق بشرطة نيويورك. في البداية، كنت أحبّ عملي وكنت ناجحة فيه، لكن اختلفت الأمور سنة 2004.

شربَت جرعة من الشاي الأخضر وواصلت:

- وقتها، كنت أعمل في المنطقة الإدارية 52، منطقة بدفورد بارك في برونكس. حققت في قضيتين متشابهتين تماماً في أيام متقاربة. رجل يدخل إلى منازل الفتيات ويغتصبهنّ ثم يعذّبهن قبل أن يقتلهن. قضيّتان مروعتان كريهتان، لكن تبدوان سهلتين، لأنّ القاتل ترك عدداً من الآثار الجينية: علكة، أعقاب سجائر، شَعر، أظافر. وزاد القضية سهولة أنّ معلومات القاتل الجينية كانت مخزّنة في قاعدة بيانات مكتب التحقيقات الفيدرالي.

- هل قمتِ باعتقال المجرم إذاً؟

أومأت مؤكّدة.

- نعم، بمجرد حصولنا على نتائج التحاليل الأولى. كان اسمه يوجين جاكسون، وهو شاب أسود طالب في مدرسة للتصميم، مثليّ، خجول، ذكي. كانت الشرطة قد خزّنت معلوماته الجينية بعد أن حوكم بتهمة التعري في مكان عام قبل ثلاث سنوات. رهان سخيف مع أصدقائه تطور إلى أن وجد نفسه أمام المحكمة. هذا ما

أدلى به آنذاك. لم يكن ما قام به قبيحاً جداً، إلّا أنّ المحكمة أحالته على طبيب نفسي. عند استجوابه، أنكر يوجين الاغتصابات وجرائم القتل المنسوبة إليه جملة وتفصيلاً، إلّا أنّ حجج الغياب المقدمة لم تكن واضحة، ثم إن حمضه النووي كان يدينه. كان فتى ضعيفاً. بعد الأسبوع الأول من اعتقاله في سجن رايكرز، اعتدى عليه السجناء بالضرب. وبعد أن نقل إلى مستشفى السجن، انتحر قبل أن يُحاكم حتى.

صمت طويل. تنهَّدت ماي وعادت إلى الجلوس قبالتي. عندما رأيتُ تعابير وجهها الكئيبة، أدركتُ أنّ الآتي سيكون أكثر إيلاماً. تشبه بعض الذكريات مرض السرطان: المعالجة لا تعني الشفاء بالضرورة.

- بعد سنة من ذلك، كنت قد غادرتُ برونكس، لكن وقعت قضايا أخرى من هذا النوع. فتيات يُغتصبن ويُعذبن قبل أن يُقتلن. في كلّ قضية من تلك القضايا، كان المجرم معروفاً لدى الشرطة من خلال آثار حمضه النووي التي يتركها في عين المكان. انتبه المحقق الذي حلّ محلي بأن سهولة تلك القضايا تُثير الشك، وكان على حق. كلّ تلك الفظائع كانت من تدبير شيطان يُدعى أندريه دو فالات.

- لم أسمع به من قبل.

- لقَّبه دارسو الجرائم والصحافيون بـ«لصّ الأحماض النووية». كان ذلك المجرم ممرِّضاً كندياً يعمل في مستشفى يعالَج فيه المنحرفون جنسياً، لا سيما أولئك الذين يحصل على آثار حمضهم النووي كي يتركه في أماكن الجرائم التي يقترفها. كان أندريه دو فالات سفاحاً فريداً من نوعه. لم يكن ضحاياه أولئك الفتيات

المسكينات فحسب، بل الرجال الذين يعمل على تلفيق التهم لهم وتدمير حياتهم أيضاً. وذلك بالضبط ما كان يجذبه ويستثيره.

أذهلني سردها لتلك القصة. إنها قصة جديرة بأن تحوَّل إلى سيناريو فيلم بوليسي مشوق، لكنني لم أدرك العلاقة بينها وبين مقتل جويس.

- لقد انتحر يوجين بسببي، قالت الآسيوية مشتكية متألِّمة. منذ اثنتي عشرة سنة وضميري يؤنّبني على موته، ولا أستطيع أن أتحمّل فكرة وقوعي في الشرك الذي نصبه فالات.

- ماذا قصدتِ من خلال هذه القصة يا ماي؟

- أن الحمض النووي هام جداً وخطير جداً في الوقت نفسه، وأنّه عكس ما يعتقده الناس، فهو ليس دليلاً قاطعاً في حدّ ذاته.

- وما علاقة هذا بجويس؟

- كان في مسرح الجريمة أثر لحمض نووي، اعترفَتِ الشرطية وهي تنظر إليّ.

توقّف الوقت لحظة. ها قد وصلنا أخيراً.

- أثر لحمض نووي غير حمض جويس أو أختيها؟

- نعم.

- لمَن هو إذاً؟

- لا أعلم.

- كيف لا تعلمين؟ ولماذا لم تقومي باستغلاله حينذاك؟

- لأنني كنت قد انتهيتُ لتوي من قضية فالات. كنت في وضع ضعيف بحيث أنّ المحكمة ما كان لها أن توافقني على إدانة المتهم بالاستناد إلى هذا الدليل وحده.

- لماذا؟

كان هناك شيء غامض لا أفهمه. كانت ماي سو-يون تراوغ ولا تقول لي كلّ شيء.

- لكي تفهم، ينبغي أن تقرأ بنفسك ملف القضية كاملاً.

- وكيف أحصل عليه؟

- لن تتمكن من ذلك. وعلى كلّ حال، بعد عشر سنوات، تدمّر كلّ الأدلة.

- قد تدمر الأدلة، لكن الملف يُحتفظ به في أرشيفات شرطة نيويورك، أليس كذلك؟

أومأت بالإيجاب.

- ساعديني على الحصول عليه. قرأت بعض المقالات عن مشروع الشفافية، وأعلم أن لديكم في أوساط الشرطة، بل في أعلى المراتب، مخبرين سريين يمدّونكم بالمعلومات حول بعض الخروقات.

هزّت رأسها نافية.

- كلام لا أساس له من الصحة.

لجأتُ إلى قليل من المراوغة كي أقنعها:

- يساعدكم بعض رجال الشرطة لأنهم يخجلون من انتمائهم إلى مؤسسةٍ لم يعُد المواطنون يثقون فيها. مؤسسة عنيفة ومتطرّفة في تعاملها مع الضعفاء. مؤسسة، لكي تقدّم أرقاماً حول إنجازاتها، تستهدف الطوائف نفسها دائماً. مؤسسة، يداها ملطختان بالدماء، ومع ذلك لا تتعرَّض للعقاب أبداً. مؤسسة...

أوقفتني عند هذا الحد، وقالت:

- طيب! توقف! سأحاول أن أتصل بشخص ليعثر لك على الملف.

- شكراً.

- لا تشكُرني، ولا تفرح قبل الأوان. حين ستفهم السبب الذي جعلني غير قادرة على فعل شيء حينذاك، ستدرك أنك أضعت وقتك، ولن تشعر إلّا بالمرارة جراء ذلك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

فلورانس غالو

وأنت يا قلبي لماذا تخفق؟
كمتربص سوداوي
أراقب الليل والموت.
غيوم أبولينير

.1

السبت 25 يونيو 2005

اسمي فلورانس غالو.

عمري خمس وعشرون سنة، وأعمل في مهنة الصحافة.

بعد ثماني ساعات من الآن، سأموت، ولكنني ما زلت أجهل ذلك.

أما الآن، فأنا جالسة على مقعد المرحاض، أحاول التبول على جهاز اختبار الحمل. نقط قليلة تسقط مني بصعوبة، من شدّة قلقي.

لما انتهيت أخيراً، نهضت ووضعت الجهاز على حافة حوض المغسلة. بعد ثلاث دقائق، سأعرف النتيجة.

خرجت من المرحاض، وأخذت أنتظر بعد أن تناولتُ قنينة ماء من الثلاجة. أذرع الغرفة الصغيرة ذهاباً وإياباً، وأتنفّس بعمق كي

أهدأ. أجلس على حافة النافذة، وأعرض وجهي للشمس. إنه يوم سبت صيفي جميل. المدينة تغطيها سماء زرقاء صافية، وتسري فيها نسائم خفيفة تحمل طاقة إيجابية. أنظر إلى النيويوركيين المنشغلين وهم يهرولون فوق الأرصفة. وأسمع، على الخصوص، صراخ الأطفال وهم يلعبون في الشارع، فأشعر بالفرح كما لو أنني أستمع لموسيقى موزارت.

أرغب في أن أحبل. أرغب في أن أنجب طفلاً، حتى وإن كنت أجهل ردّ فعل ألان. أنا في غاية السعادة. أنا عاشقة. أخيراً! التقيت بالرجل الذي كنت أنتظره. إنني أتمتع بكلّ لحظة نقضيها معاً، وأنا مستعدّة لأن أفعل المستحيل كي تستمر علاقتنا. غير أنّ هذا الفرح يعكّره شعور بالذنب يعذبني. إنني أكره الوضع الذي أنا فيه: عشيقته. عشيقة تحوم عن قصد حول زوج امرأة أخرى. ما كنت لأعتقد أبداً أن أجد نفسي ألعب دوراً في قصة شبيهة بالقصة التي عشتها طفلة. كنت في السادسة من عمري لما غادر أبي المنزل ليرتبط بزميلة له أصغر سناً، وأكثر طراوة من أمي. كرهت تلك المرأة كما أكره اليوم شعوري بأنني أسرق سعادة امرأة أخرى.

رنّ الهاتف، فوضع حداً لهذه الذكريات. إنها رنة مرحة لم أتعرف عليها في الحال. ولعلّ مرد ذلك أنها الرنة التي اخترتها لهاتف جويس كارلايل ذي الشريحة مسبقة الدفع، الهاتف الذي لم أكُن أتوقع أن يرن إلّا بعد ساعة من الآن.

استقبلت المكالمة، إلا أني لم أستطع أن أنطق بكلمة، لأنها صاحت على الفور:

- فلورانس؟ هذه أنا، جويس. لقد غيّر وقت اللقاء!

- ماذا؟ ولكن...

- إنه قادم الآن! لا أستطيع التحدث معك!

ولأنني أحسستُ باضطرابها، حاولتُ أن أهدئ من روعها:

- اتبعي الخطة التي اتفقنا عليها بالحرف يا جويس. ثبّتي الهاتف تحت طاولة غرفة الطعام بشريط لاصق. أسمعتِ؟

- سوف... سوف أحاول.

- لا، يا جويس، لا تحاولي، بل افعلي!

هلع. أنا أيضاً لم أكُن مستعدة. أغلقت النافذة لكي لا تصلني الأصوات من الشارع. وصلت مكبر الصوت بالهاتف. جلست إلى طاولة المطبخ وفتحت الحاسوب الذي استعرته من أخي الأصغر. سافر إدغار إلى نيويورك منذ ثلاثة أسابيع. فبعد ثلاث سنوات من الدراسة في مدرسة فيراندي لتعلّم الطبخ، وظّفه مقهى بولود، وهو الآن يسكن في شقتي في انتظار أن يحصل على أوّل أجر.

حركاتي خرقاء، فأنا لم أطق العمل على الحواسيب قط، لكن كَارِي زوجة ألان، ضربت بحاسوبي عرض الحائط أمس بعد الظهر. فتحت تطبيقاً ووصلت مايكروفون الحاسوب كي أقوم بتسجيل ما سيدور بينهما من حديث.

مرّت دقيقة لم يحدث فيها شيء. اعتقدتُ أن الخط بيننا انقطع، لكنني سمعت صوتاً ذكرِياً حازماً متضايقاً. الدقائق التالية مكهربة. ذهلت ممّا سمعته. وفجأة تغيرت نبرة الحوار. انقلبت المُحاجّة إلى تهديد، وصراخ، ودموع. وفجأة أدركت أن ما لا يمكن إصلاحه على وشك أن يقع. أدركتُ أن حياتها في خطر، أن الموت يهدّدها. أسمع جويس تصرخ صرخة حادة. أسمع جويس تستنجد. أسمع جويس تستنجد بي.

يداي لزجتان. حلقي جاف منقبض.

أتسمر في مكاني لحظة، وكأن رجلاي تحولتا إلى رجلين من قطن. وفجأة أخرج من الشقة. أنزل الأدراج جرياً. أصل إلى الرصيف. أرى الناس. الدم يغلي في عروقي. أرى كشك الهاتف أمام ستاربكس. أعبر ممرّ الراجلين. زحام شديد. يداي ترتجفان وأنا أنقر الرقم 911، ثم أسمع صوتي يقول: «أتصل بكم كي أبلغ عن اعتداء في الرقم 6 شارع بيلبري، في منزل جويس كارلايل. أسرعوا، إنها تُقتل!».

.2

فقدت السيطرة على دقات قلبي. فهو يخفق بشدّة وكأنه يريد أن يخرج من صدري.

المصعد معطل. أستعمل السلم. أصعد إلى شقتي، أضع الهاتف مسبق الدفع على أذني، لكنني لا أسمع أثراً لبشر. أحاول أن أتصل بجويس. لكن لا أحد يرد.

اللعنة، ماذا حدث؟

أرتجف. لا أدري ما أفعل. هل أذهب إلى هناك؟ لا، ليس بعد. وفجأة، أدرك أني لست خائفة على جويس فحسب، بل على نفسي أيضاً. أشعر أن الخطر في كلّ مكان. أعرف هذا الشعور جيداً. إنه الحدس، التنبؤ الذي يميّزني عن غيري من الزملاء في مهنتي. حملت حاسوبي وخرجت إلى شارع باوري. يجب أن لا أبقى لوحدي. يجب أن أستعمل الناس درعاً واقياً.

أدخل إلى مقهى ستاربكس، وأطلب قهوة. أعثر على مكان. أشغل الحاسوب. أضع السماعة على أذني، وأستمع إلى ما سجلته من جديد. خوف. هلع. أحوِّل ما سجلته إلى ملف mp3.

أحتسي قهوة الماكياتو. على الفاتورة التي حملها النادل مع القهوة، أعثر على مفتاح الواي فاي الخاص بالمقهى. الإنترنت. تطبيق البريد الإلكتروني. **اللعنة**. انفتح بريد أخي الإلكتروني طبعاً، وعناوين معارفي غير مسجّلة فيه. واأسفاه. أصابعي تنقر على لوحة مفاتيح الحاسوب بسرعة. حمّلتُ التسجيل كي أجعل منه ملفاً مرفقاً، ونقرت عنوان ألان في عجلة: alan.kowalkowsky @att.net.

وأخيراً، أُرسِلت الرسالة الإلكترونية. أتنفس بعمق، ثم أتّصل بألان على هاتفه النقال. ثلاث رنات. **رُدّ، من فضلك!** المجيب الآلي. أترك له رسالة: «بعثتُ لك برسالة إلكترونية قبل قليل يا ألان. قُم بنسخ الملف المرفَق. لن تصدِّق ما ستسمعه أذناك. اتصل بي. أحبك».

لا أستطيع أن أمكث هنا. سأذهب إلى سيارتي المركونة في الطريق المسدود خلف العمارة التي أسكن فيها، وسأتوجه إلى هارلم لأتبين ما حدث بنفسي. أصعد إلى شقتي كي أجلب المفاتيح. أرى في الرواق من بعيد مراهقة تقف أمام باب شقتي. قصيرة القامة، ترتدي جينزاً غامق اللون، وقميص بمربعات، وحذاء كونفرس وردي اللون، وسترة ليفايس ضيقة كالتي كنت أرتديها أيام المدرسة الثانوية، وتضع على ظهرها حقيبة من قماش. لمّا استدارت، أدركتُ أنها راشدة في مثل سني. وجه ناعم يختفي جماله تحت شعر بني منسدل على الجبين، ونظارات طبية واي فيرر عريضة.

هذه المرأة أنا أعرفها وأحترمها. اسمها زورا زوركين. قرأت كتبها، واستمعت إلى محاضراتها، وحاولت مراراً أن أجري معها حواراً، لكنها كانت ترفض طلبي دائماً. أمّا اليوم، فأنا أعلم عما تريد أن تحدثني.

أو أعتقد، على الأقل، أني أعلم. ولكنني مخطئة. لم تأتِ زوركين كي تتحدّث. إنها تتقدم نحوي الآن بخطى بطيئة، وكلما اقتربت، شعرت أني مشدودة إلى عينيها الشبيهتين بعينَي الأفعى، اللتين لا أستطيع أن أجزم إن كان لونهما أخضر أم بني. ها هي الآن قد صارت على بعد أقل من مترين، وكل ما استطعت أن أهمس به إليها هو:

- أتيتِ بسرعة.

تدس يدها في جيب سترتها، وتُخرج مسدساً كهربائياً صاعقاً تصوّبه نحوي قبل أن تقول:

- أنتِ جميلة حقاً.

إنه موقف من السريالية بحيث أني تسمّرت في مكاني. دماغي عاجز عن أن يدرك أنّ ما يحدث حقيقي. ومع ذلك، ضغطت زورا زوركين على زناد مسدسها فانطلقت منه شحنة كهربائية صاعقة أسقطتني على الأرض، ففقدتُ الوعي على الفور.

3.

لمّا استعدتُ وعيي، كنت لا أزال كالمخدَّرة. أشعر بالحمى، بالغثيان، وأرتجف. فمي دبق، ولساني تضاعَفَ حجمه. أحاول أن أتحرك قليلاً. عمودي الفقري يؤلمني كما لو أنه مهشم.

يداي خلف ظهري، معصماي مصفدان، قدماي مربوطتان إلى بعضهما بأسلاك من البلاستيك. وحول فمي شريط لاصق مستحيل التخلّص منه.

أحاول أن أبلع ريقي رغم الكمّامة. الرعب يستولي عليّ تماماً. أنا الآن في مقعد سيارة خلفي -سيارة من نوع كاديلاك إسكاليد

ذات نوافذ مظللة- سيارة علوّها متران، تطلّ على الطريق من فوق فتجعلك تشعر كأنك تطير فوق الإسفلت. المقعد الخلفي مفصول عن المقاعد الأمامية بحاجز من الزجاج الواقي. لسبب أجهله حتى الآن، وجدت نفسي أرتدي بدلة القفز من المرتفعات. البدلة بكاملها: مع الخوذة والحقيبة وبداخلها المظلّة مطوية.

أرى خلف الزجاج الواقي خيال السائق. إنه رجل ذو هيئة عسكرية، حليق قفا العنق، ذو شعر رمادي قصير. تجلس بجانبه زورا زوركين مركزة نظرها على هاتفها. أوجه للزجاج الواقي ضربات عنيفة برأسي المحمي بالخوذة. تلقي زوركين عليّ نظرة خاطفة كأنها لا تراني، وتعود إلى هاتفها. أمعن النظر، فأرى ساعة السيارة تشير إلى العاشرة ليلاً.

لا أفهم ما يجري. ما معنى هذا؟ كيف تسارعت الأحداث هكذا؟

أرجع إلى الوراء كي أرى المناظر من خلف الزجاج. الليل. طريق معزول. أشجار التنوب على مدّ البصر، تتمايل مع الريح وسط سماء سوداء.

مع مرور الوقت، بدأت أدرك أين نحن. إذا كنا في الطريق منذ ست أو سبع ساعات، فهذا يعني أننا اجتزنا بنسيلفانيا، وماريلاند، وفرجينيا الشرقية. نحن الآن في الأبالاش، قرب جسر سيلفر ريفر.

عاد إليّ الأمل لحظة لما رأيت سيارة أخرى تسير خلفنا. نقرت على الزجاج كي أثير انتباه مَن في السيارة. ولكنني حين أنعمت النظر أدركتُ أن سيارتي اللكزس الحمراء هي التي تتبعنا.

أدركتُ خطّتهم فجأة، فشرعت في البكاء.

4.

كنتُ على صواب: منذ عشرين دقيقة والسيارة رباعية الدفع تصعد على الطريق الوعرة المؤدية إلى حديقة سيلفر ريفر، وخلفها سيارتي. وسرعان ما أركنت السيارتان إلى جانب بعضهما فوق رَعْنٍ خالٍ يطلّ على الوادي ويسمح بالنزول إلى المنحدر المؤدي إلى الجسر العتيق.

ما أن توقف هدير السيارتين حتى تسارعت الأحداث: فتح العسكري -الذي تطلق عليه زورا اسم بلانت- باب السيارة الجانبي وأمسك بي بقوة خارقة، ثم رفعني فوق كتفه وسار بي نحو الجسر. تمشي زورا خلفه، وتراقب ما قد يحدث حولنا. أحاول أن أصرخ، لكن ما أن أفتح فمي حتى يدمي اللاصق شفتي. على كلّ حال، لا فائدة في ذلك. **في الفضاء السحيق، لا أحد يسمع صراخنا**. وما أشبه حديقة نهر سيلفر في هذا الوقت من الليل بالفضاء السحيق.

أرفض إلى آخر لحظة أن أصدق ما لا مفر منه. قد لا يكون غرضهم إلّا أن يخيفوني. لكن، مَن ذا الذي يقطع مسافة ستمئة كيلومتر كي يخيف شخصاً؟

كيف خطرت لهم هذه الفكرة؟ من أين حصلوا على المعلومات؟ عن هذا المكان؟ عن هذه الرياضة؟ سهل جداً. يكفي أن يفتشوا شقتي ليعثروا على المعدات وعلى الصور.

حين بلغنا وسط الجسر، ألقاني بلانت على الأرض. أنهض وأحاول أن أهرب، لكن سرعان ما أسقط.

أنهض من جديد. أسمع خرير مياه النهر الفضي وهي تجري تحتنا على بعد ثلاثمئة متر. الليل جميل، يغمره نور القمر. السماء صافية، البرد جاف، القمر يكاد يصبح بدراً كاملاً، ثقيلاً، هائلاً.

تقف زورا زوركين أمامي فوق الجسر، وتضع يديها في جيب سترتها القطنية. إنها ترتدي قبعة بيسبول تحمل اسم جامعة نيويورك التي درسَتْ فيها.

أرى في نظرتها عزماً لا يكلّ. في هذه اللحظة، لستُ إنساناً بالنسبة إليها، بل مشكلة ينبغي حلّها في أقرب وقتٍ ممكن.

أختنق، أتصبّب عرقاً، أتبوّل في ثيابي. الرعب يتملّكني. الدم يتجمّد في عروقي. ما أعيشه لا يمكن أن يُتصوَّر. إنه يتجاوز الرعب. جسدي متصلب، يكاد يكون مشلولاً. لا أعرف كيف تخلّصت من اللاصق، فأستغلّ ما تبقى لديّ من قوة كي أرتمي عند قدميها. أصرخ. أسجد لها، أتوسل إليها، أستعطفها.

لكنها لا تعبأ بكلّ ذلك.

- هيا بنا، قال بلانت وهو ينحني عليّ ويقطع خيط المظلّة.

ما باليد حيلة. إنه عملاق من عضلات. عملاق يريد أن ينهي المهمة الموكولة إليه.

وفي هذه اللحظة، وقع ما لم يكن في الحسبان. قبل أن تدع الجلاد ينفّذ مهمته، لمعت عينا زورا، وقالت:

- لست أدري إن كنت على علم بالأمر، لكن على أية حال، أعتقد أنك ترغبين في أن تعرفي.

لم أدرك ما تلمح إليه إلّا بعد أن دسّت يدها في جيبها وأخرجت جهاز اختبار الحمل.

- النتيجة إيجابية. أنت حامل يا فلورانس. مبروك.

تسمرت في مكاني مذهولة. لم أعُد أنتمي إلى هذا العالم. لقد انتقلت، منذ هذه اللحظة، إلى عالم آخر.

وبحركة واحدة، مزّق بلانت وثاقي، ثم أمسكني من ساقَي، ورفعني عن الأرض، ورماني من فوق الجسر.

5.

أسقط.

ولا أفكر حتى في أن أصرخ.

الرعب يمنعني من أن أفكر.

ثم طالت اللحظات التي تلت السقوط.

وشيئاً فشيئاً، أصير خفيفة.

يتحوّل الخوف إلى حنين. لا أرى شريط حياتي يتسارع أمام ناظري. أفكر في كلّ الأشياء التي أحببتها: السماء الصافية، ضوء النهار المهدئ، قوة الرياح.

أفكّر في طفلي على الخصوص.

الجنين الذي في بطني، والذي سيموت معي.

ولكي لا أبكي، أقول في نفسي ينبغي أن أختار له اسماً.

الأرض تقترب، صرت أنا والسماء والجبال وأشجار التنوب واحداً. لم أؤمن يوماً بالرب، لكن أشعر، في هذه اللحظة، أنّ الرب موجود في كلّ مكان.

نصف ثانية قبل الارتطام بالأرض، جاءني وحي.

أوحي إليّ أن الجنين الذي في بطني بنت.

سأسميها ريبيكا.

لا أدري إلى أين أنا ذاهبة، ولكنني سأذهب هناك برفقتها.

وهذا الإحساس يخفّف من خوفي.

بعد ظهيرة اليوم الثالث

التنانين في الليل

18

الطريق نحو الغرب

إننا لا نحب أبداً إلّا شبحاً.
بول فاليري

.1

شمس. غبار. إسفلت.

حرارة نهاية الصيف. مقطوعة لعازف الجاز الأميركي جون كولتران في مذياع السيارة.

مارك كاراديك الذي كان قد فتح النافذة، ووضع ذراعه المطوي على الباب، وترك شعره يتطاير مع الريح، يبتلع الكيلومترات.

كانت المناظر الطبيعة المتلاحقة تمر خلف نظارته الشمسية. مزارع للمواشي، مَراعٍ، جرارات، إهراءات قمح. منظر طبيعي يعكس وجه أميركا القروي الذي لا يعبأ بعامل الزمن. أراضٍ فلاحية على مد البصر. أراضٍ رتيبة بلون القمح، والذرة، والصويا، والتبغ.

هذه أول مرة تطأ فيها قدما مارك الغرب الأوسط للولايات المتحدة. تذكّر على الفور دروس الجغرافيا التي كان يراجعها مع ابنته لمّا كانت في المدرسة الإعدادية. تلك الخرائط الملونة بالأقلام التي

ترسم الحدود بين المناطق الفلاحية الأميركية: منطقة زراعة الذرة، منطقة زراعة الفواكه، منطقة زراعة الحبوب، منطقة إنتاج الحليب. . . كانت تلك الواجبات المنزلية المفروضة على تلاميذ لم يتجاوزوا سنّ الرابعة عشر ولم يسبق لهم أن سافروا كثيراً تبدو له مجرّدة وكريهة، ولكن ها هي ذي الآن تتجسد أمام ناظريه حقيقة جذابة.

مدّ كاراديك ذراعه كي يتجنّب التشنّج، ونظر إلى ساعته. كانت تشير إلى ما بعد الخامسة مساء. مرّت أربع ساعات على تخليه على رافائيل في مطعم المحارات. كان قد اتبع حدسه وأسرع إلى الذهاب إلى مطار جون إف كينيدي حيث اقتنى تذكرة سفر إلى أوهايو. بعد أقل من ساعتين من التحليق، هبطت الطائرة في مطار كولومبوس. وهناك استأجر سيارة من نوع دودج. خلال الكيلومترات الأولى، حاول مارك أن يستعمل جهاز تحديد المواقع، لكنه سرعان ما تخلى عنه وتوجّه نحو فورت واين في الشمال الغربي، مكتفياً بعلامات الإرشاد الطرقي.

لم ينَم طوال الليلة الماضية، وقليلاً جداً خلال الليلتين السابقتين. بسبب اختلاف التوقيت وما يتناوله من حبوب مضادة للقلق، كان من المفترض أن ينهار تماماً، لكن حدث العكس تماماً، إذ كان في كامل حيويته ونشاطه. كانت شحنة الأدرنالين التي تسري في جسده تبعث في نفسه الحماس وتجعل حواسه يقظة بشكلٍ إيجابي وسلبي في آنٍ معاً.

اليقظة الإيجابية تتجسد في قدرته على التفكير، إذ كانت الأفكار تنهال عليه من كلّ جانب، تتسابق، تتسارع، وتتصارع في عقله بفوضى منتجة جعلته يأخذ، إلى حدّ الآن، القرارات الصائبة. أمّا اليقظة السلبية فتتجسّد في نوع من الحساسية المفرطة تجاه الذكريات

الأليمة التي تلاحقه، ذكرياته مع زوجته إليز، ومع طفلتهما، وأحداث فظيعة تلازمه في حياته.

كانت الدموع الحَرَّى تفاجئه أحياناً وتسيل على خدَّيه. أما تلك الأشباح التي تحوم حوله فلا مفرّ له منها إلّا بالمسكنات. تذكر هذه الجملة لأراغون: «أن تكون إنساناً معناه أن تستطيع السقوط إلى ما لا نهاية». وها هو ذا يسقط منذ اثني عشر عاماً. في الأيام الأخيرة، عاودته الآلام من جديد. ستنتصر عليه لا محالة، هو يعلم ذلك. سيحلّ اليوم الذي ستطلق عليه كلابها التي ستلتهم كل شيء. لقد أوشك أوان ذلك اليوم، ولكنه لم يحلّ بعد.

تنفس مارك بعمق. أحسّ بنفسه، في هذه اللحظة، في هذا الطريق المعزول، شخصاً بعيد النظر، بل وكان يحسّ أيضاً أنه يمشي فوق الماء. منذ قتل ذلك الشرطي، ذلك الوغد ستيفان لاكوست، وهو يحسّ بنفسه مدفوعاً بشيء لا يفهمه. ففي اللحظة التي مرت الرصاصة على بعد سنتميترات قليلة من رأسه، تبخّر خوفه دفعة واحدة. تذكَّر ما حدث بعد ذلك مستعيداً الشريط بالعرض البطيء. كان قد أمسك بمسدسه، واعتدل في جلسته، وأطلق النار. قتله بنوع من النقاوة والأناقة. كما لو أنه ليس هو مَن أطلق الرصاصة.

بديهي أن يُقدم على ما أقدم عليه.

سيعثر على كلير لأن تلك هي مهمته.

سيعثر على كلير لأنه أمر طبيعي، لا مفر منه.

في تحقيقات الشرطة، الأمر الطبيعي الذي لا مفر منه هو تلك اللحظة المعينة التي لا تعود تبحث فيها عن الحقيقة، بل الحقيقة هي التي تبحث عنك.

كشفت قضية كارلايل، بعد مرور عشر سنوات على بدايتها، عن

تشعّباتها الأخطبوطية غير المتوقّعة. إنها شلال ضخم من قطع الدومينو يمتد إلى ما وراء ضفاف المحيط الأطلسي. وسمع مارك في رأسه صوت قطع الدومينو وهي تتساقط الواحدة تلو الأخرى: كلوتيلد بلونديل، فرانك ميزولييه، ماكسيم بواسو، هاينز كيفر، جويس كارلايل، فلورانس غالو، ألان بريدجس. . .

إنّ موت أو اختفاء طفل لا يؤثر على أسرته فحسب، بل يحرق كلّ شيء، يدمر الناس، يخلط أوراق المسؤوليات، ويجعل كل واحد فريسة لكوابيسه وتقصيراته.

وصل مارك إلى إحدى التفرعات، لكنه لم يكلّف نفسه عناء تخفيف السرعة. انعطف يميناً دون أن ينظر لا إلى إشارة ولا إلى خريطة. لم يكُن متأكّداً من المكان الذي يؤدي إليه ذلك الطريق. لم يكن متأكداً إلّا من شيء واحد: أن القطار قد انطلق. لقد حانت ساعة الحقيقة، وعادت لتحتلّ الواجهة من جديد. عادت بالقوة نفسها التي وظفها البعض من أجل إخفائها. إنها صيرورة حتمية ومدمّرة.

وليس مارك إلّا وسيلة للكشف عن تلك الحقيقة.

2.

بعد لقائي مع ماي سو-يون، عدت إلى الفندق لأطمئن على ابني. كنت قد خضت مباراة حامية الوطيس كي أجبره على أن ينعم براحة القيلولة. لكنني خسرت. انتهت المباراة، كما تنتهي في غالب الأحيان، بجلوسه أمام شاشة الحاسوب ليشاهد فيلماً قديماً للويس دو فنيس. حوالي الثالثة بعد الزوال، نام وهو يشاهد فيلم **المطعم الكبير**، واستسلمت، أنا أيضاً، رغماً عني، لإغراء النوم.

أيقظني صوت هاتفي معلناً عن وصول رسالة نصية. فتحت

عيني، عرقان. كان تيو يغني ويلعب مع فيفي في الجهة الأخرى من السرير راقداً على ظهره، رافعاً قدميه إلى أعلى. نظرت إلى ساعتي، كانت تشير إلى ما بعد السادسة مساء.

- اللعنة، صحت وأنا أقفز من على السرير.

- لعنة، كرر ابني وهو يضحك.

- لا يا تيو، إنها كلمة قبيحة يجب أن لا تقولها.

وبينما كان ابني لا يزال يضحك متردّداً في تكرار تلك الكلمة، نظرت إلى هاتفي. كنت قد توصلت برسالة من ماي سو-يون: لديك موعد بعد 20 دقيقة في محل برلمان لبيع الكنيش[1].

اتصلت من هاتف الغرفة الثابت بماريك من دون الاستعانة بمكتب الاستقبال في الفندق. كانت مربية الأطفال في حانة راؤول بسوهو رفقة صديقاتها. وأنا أطلب سيارة أجرة من هاتفي النقال، طلبتُ منها أن تقبل البقاء مع تيو ما تبقى من المساء. قالت إنها يمكن أن تأتي بعد ربع ساعة، ولكنها استغلت الوضع، على الطريقة الرأسمالية، كي تفرض عليّ أجراً غير معقول وجدتُ نفسي مرغماً على أن أوافق عليه.

وصلت إلى الموعد متأخراً بنصف ساعة. كان محل برلمان لبيع الكنيش عبارة عن حانوت صغير يقع في شارع إيسيكس قرب مقر شرطة لوور إيست سايد.

كان الحانوت فارغاً إلّا من سائحَين يابانيَّين يلتقطان بعض الصور لأنفسهما. خلف المنضدة، كان يقف رجل عجوز يبيع بعض المأكولات اليهودية. في الجزء الخلفي من المحل، كان هناك بعض

---

(1) Knish: فطائر من المطبخ اليهودي - المترجم.

الطاولات البلاستيكية حولها مقاعد من الجلد الصناعي حمراء اللون.

تفاجأت من عدم وجود ماي سو-يون، وجلستُ في المكان الأقرب من المدخل، وطلبتُ قنينة ماء. فوق الطاولة، كان الزبون السابق قد ترك نسخة من **نيويورك تايمز**. كنت متوتراً وغاضباً لأنني استسلمتُ للنوم. أخذت أتصفح الجريدة وأنا أنظر إلى المدخل. كان الجو خانقاً. كانت مروحة عتيقة تدور وسط هواء دافئ مثقل برائحة الثوم، والبقدونس، والبصل المقلي. رجّ هاتفي. هذه المرة، وصلتني رسالة نصية من ألان:

مكتبة
t.me/soramnqraa

تعال حالاً، أ. ب.

ماذا هناك؟ سألته على الفور.

لدي أخبار جديدة عن جويس كارلايل.

ما هي هذه الأخبار يا ألان؟

لن أخبرك بالهاتف.

سآتي حين أستطيع، كتبت إليه واعداً.

في الوقت الذي كنت أنقر على شاشة هاتفي، دفع رجل باب المحل ودخل. رجل في مثل سني، قصير القامة صلب البنية، ذو شعر غُرابي اللون، ولحية خفيفة. كان يبدو متعباً، وكان قد فكّ ربطة عنقه، وشمّر عن ساعديه. ما أن رآني حتى تقدم نحوي بخطى واثقة وجلس قبالتي، ثم قدم نفسه:

- أنا المحقق باريزي. زميل سابق لماي، اشتغلت برفقتها على ملف جويس كارلايل.

- رافائيل بارتليمي.

نشف الشرطي عرقه بمنديل ورقي.

- طلبت مني ماي أن أقابلك. ينبغي أن تعلم أن وقتي ضيق. إننا نعمل بلا توقف منذ ثلاثة أيام بسبب مؤتمر الجمهوريين.

لا شك أنّ باريزي من زبائن المحل المنتظمين، لأن صاحب المحل ما لبث أن حمل إليه طعاماً.

- الكنيش أُخرِج من الفرن للتو يا إغنازيو، أكّد له صاحب المحل وهو يضع أمامه طبقاً من الفطائر المحشوة بالبطاطس، وطبق سلطة الكرنب، وخياراً مخلّلاً.

سألته على الفور:

- هل تمكّنت من العثور على ملف القضية؟

صبّ لنفسه كأساً من الماء وهو يهز رأسه نافياً.

- إنه ملف يعود إلى عشر سنوات خلت. إذا كان لا يزال موجوداً، فهو الآن في أرشيفات مقر شرطة المنطقة الإدارية 52، ما يعني أنه في أحد مستودعات بروكلين أو كوينز. لا أعلم ما وعدتك به ماي، لكن لا يمكن أن نخرج ملفاً قديماً بسهولة كهذا. لا بد من توجيه طلبات لعدّة جهات. إنه إجراء معقد، يتطلب أسابيع عديدة.

خاب أملي.

- قالت لي إن الشرطة العلمية عثرت على أثرٍ جيني في مسرح الجريمة.

قال باريزي مكشّرا:

- يبدو أنها تسرَّعت قليلاً، فمسرح الجريمة كان نظيفاً تماماً. لم يعثروا إلّا على ناموسة.

- ناموسة؟

اعتقدت أنه تكلّم بلغة الشرطة، ولكنه كان يقصد ناموسة بالفعل.

- نعم. . . ناموسة مسحوقة، ملأى بالدم، على أرضية حمام الضحية. وكالعادة، أرادت ماي أن تبرهن على حنكتها. خطر لها أن تكون الناموسة قد لدغت القاتل، وفي هذه الحالة، لا بد أن يكون في جسمها أثر لحمضه النووي. فسعت إلى أن تُجرى عليها التحاليل.

- هل كنت ضدّ ذلك؟

ابتلع باريزي فطيرة، وقال:

- طبعاً، لأنه حتى وإن حالفنا الحظ، فهل سيكون ذلك دليلاً قاطعاً؟ على الإطلاق. لن تعتمد عليه المحكمة. وما دام الأمر كذلك، فما جدوى ذلك التحليل؟ آنذاك، كانت ماي طموحة طموحاً لا يتصوّر، طموحاً سيئاً. لكي تصبح حديث الناس، كانت ترغب في أن تقدم على القيام بشيء لم يسبقها إليه أحد في شرطة نيويورك.

ابتلع باريزي عدّة قطع من الكنيش قبل أن يستأنف:

- ورغم ذلك، اهتم التقنيون بالناموسة، واستطاعوا استخراج عيّنة من الدم نقلت إلى المختبر. وهناك نجحوا في عزل الحمض النووي، وأجروا عليه فحصاً جينياً وحدّدوا تكوينه الجيني.

- وماذا بعد؟

هزّ الشرطي كتفيه.

- الإجراءات المعتادة. تلك التي تشاهدها في المسلسلات التلفزيونية: سجلَ المختبر التكوين الجيني الجديد في قاعدة البيانات، وقارنه مع التكوينات الجينية المخزنة في الحاسوب.

- والنتيجة؟

- لا شيء. لا شيء على الإطلاق، أكد باريزي وهو يناولني ورقة. هذه نسخة من تقرير المختبر. عثرت على بريدهم الإلكتروني

على خادم الحاسوب. وكما ترى، التقرير يقول إنه تكوينٌ جينيٌّ لا يطابق أي تكوين مخزن في قاعدة البيانات.

قضم خيارة مخللة، وقال بفم ملآن:

- على كلّ حال، لقد تأخر المختبر كثيراً في مدّنا بهذه النتائج، فهي لم تصلنا إلّا بعد أن أغلقنا القضية.

نظرت إلى التقرير. ها هو ذا تحليل الحمض النووي بين يدي. يا لها من خيبة أمل! قد يكون القاتل أمام عيني، ولكنني لا أملك أية وسيلة للكشف عن هويته.

- كم كان عدد الأشخاص المخزّن تحليل حمضهم النووي في قاعدة البيانات آنذاك؟

هزّ باريزي كتفيه.

- في قاعدة بيانات الشرطة؟ في أواسط سنوات 2000؟ لا أعرف العدد بالضبط. مليونان تقريباً.

- وما هو عددهم اليوم؟

- أكثر من عشرة ملايين. فهمت قصدك، لكن لا سبيل إلى القيام ببحثٍ جديد.

- لماذا؟

اغتاظ الشرطي، فقال متهماً:

- سأقول لك رأيي بصراحة. نحن رجال الشرطة نعمل بأعداد غير كافية باستمرار. مهمتنا هي أن نحقق في الجرائم والجنايات **حال ارتكابها**، لا بعد عشر سنوات. وكل قضية يتعثر التحقيق فيها هي قضية قذرة. فبالنسبة إليّ، القضايا غير المحلولة هي نوع من الترف، وأنا لا أحترم على الإطلاق الزملاء الذين يعودون إلى النبش في مثل هذه الملفات.

ذُهلت.

- أعرف كثيراً من رجال الشرطة، ولكنني أكاد أكون متأكّداً أن لا أحد منهم يفكر بهذه الطريقة.

تنهّد باريزي ورفع صوته وهو ينطق كلمات نابية:

- هذه القضية تفوح منها رائحة الغائط، فهمت؟ وأنا أنصحك أن تبتعد عنها! أليس لديك ما تفعله غير البكاء على امرأة ميتة كانت مدمنة على المخدرات؟

كنت على وشك أن أفقد أعصابي أنا أيضاً، لكنني أدركتُ أن الشرطي لم يكن يعني ما يقول، وأنه إنما يحاول أن يصرفني عن الاستمرار في البحث والتحري في القضية لأنه يعرف هوية القاتل.

3.

بدأت الشمس تغيب عن أراضي الغرب الأوسط الزراعية. كانت أشعتها الذهبية تغمر حقول الذرة والصويا، وتنعكس من الخلف على إهراءات القمح الضخمة ومزارع الألبان.

كان مارك كارادِيك لا يزال يقود السيارة باتجاه الغرب.

كثيرون من يعتبرون مناظر أوهايو الطبيعية نمطية ومملّة. أمّا هو، فيرى العكس، فها هو الآن يستسلم لأحضان هذه الألوان البراقة، ويتذوّق آلاف الاختلافات في انعكاس الضوء، وكلّ التفاصيل الصغيرة التي تتعاقب أمام ناظريه وهو يمضي في الطريق: آلة حصاد صدئة، قطيع أبقار تجترّ في هدوء، صفّ من مراوح توليد الكهرباء تدور في سماء زعفرانية اللون.

تمرّ اللوحات الإرشادية متلاحقة أمام ناظريه، لوحات تذكره

أسماؤها بأفلام رعاة البقر: واباكونيتا، روكفورد، هونتنغتون، كولدواتر. . . المكان الذي يبحث عنه يقع قبل فورت واين بقليل، على حدود أوهايو وإنديانا. ما هي إلّا بضع كيلومترات ويتأكّد إن كان حدسه عبقرياً أو أنه أضاع وقتاً ثميناً ليس إلّا.

لاحت محطة للوقود في الأفق. ألقى مارك نظرة على العداد. إنه لا يشير إلى قرب نفاد الوقود، لكنه قرّر أن يتخلّص من هذه المهمة الآن.

شغل إشارة الانعطاف. قلّل من السرعة. أثارت السيارة سحابة من الغبار. ركن السيارة أمام آلة ضخّ البنزين الوحيدة في المحطة، غير بعيد عن سيارة من نوع بيك-أب عتيقة كتلك التي نصادفها في روايات جيم هاريسون.

- أتريد أن أملأ خزان الوقود عن آخره يا سيدي؟

ظهر صبي من خلفه. كان يرتدي بدلة عمل زرقاء فضفاضة وقبعة عليها شارة فريق سينسيناتي ريدز. صبي بشوش، لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره، لكن لا يبدو أن تشغيل الأطفال محظور هنا.

- نعم، من فضلك، أجاب مارك وهو يناوله المفاتيح.

دفع مارك باب المطعم المحاذي لـ«دكان العام»، وسار بضع خطوات فوق أرضية مهشّمة مغطاة بالنشارة. أخذت ذرات الغبار المتراقصة وسط أشعة الشمس تختفي أمامه. ألقى الشرطي نظرة شاملة على المطعم. في هذا الوقت من بداية المساء، كان المطعم غارقاً في ما يشبه النوم. خلف المنضدة، يجلس بعض الزبائن يحتسون الجعة، ويزوّدون أوردتهم الدموية بالكوليسترول المتوفّر بكميات هائلة في ما يلتهمونه من همبرغر، وشرائح لحم مشوي،

وأطباق السمك والبطاطس المقلية الملأى بالشحوم. في أحد أركان السقف، كان هناك تلفزيون يبث مباشرة وقائع مؤتمر الجمهوريين، لكن من دون صوت، ولم يكُن أحد يهتم. ومن مذياع موضوع على رفّ، كانت تنبعث أغنية قديمة لفان موريسون.

جلس مارك على مقعد عالٍ وطلب قنينة بدوايزر، وأخذ يشرب منها وهو يقرأ ما سجّله في مذكرته. على الورق، تبدو الفرضية التي اختار أن يرجّحها عديمة الأهمية، لكنه تشبّث بها بكلّ ما يملك من قوة. إذا لم تخنه ذاكرته، فمفهوم الحدس في اللغة اللاتينية مشتق من كلمة تعني: «صورة تعكسها مرآة».

صورة. صور. هذا ما أثار انتباهه: الصور التي خطرت له حين حاول أن يضع نفسه مكان فلورانس غالو. إنه منهج علّمه إياه في بداية مسيرته شرطيٌّ مخضرمٌ، من ممارسي اليوغا، وفن الاسترخاء المُعالِج، والتنويم المغناطيسي. إنه منهج يقتضي أن تتعاطف مع الضحية، وأن تضع نفسك مكانها، وتشعر بنفس ما شعرت به، بل وأن **تصير** تلك الضحية للحظة قصيرة.

كان مارك يشكّ في قدرته على أن يتقمّص بشكلٍ من الأشكال شخصية الضحية، لكنه كان مقتنعاً بأن الاستنتاجات التي نستخلصها بعقلانية تبقى ناقصة ما لم ندعمها بالتحليل النفسي. ومن هذا المنظور، كان الحديث الذي دار بينهما وبين ألان بريدجس -بل ألان كوفالكوفسكي- مجدياً، لأنه أمدّه بالمعطيات التي تمكّنه من «النفاذ إلى عقل» فلورانس.

رافائيل كان على حق. لقد أرسلت فلورانس ملفاً صوتياً لألان بواسطة بريد إلكتروني: حديث كانت قد سجّلته للتو بين جويس كارلايل وقاتلها. أرسلته مباشرة بعد اتصالها بالشرطة كي تبلّغ عن

الاعتداء الذي تعرّضت له والدة كلير. أرسلته تحت ضغط الانفعال وتوتر عصبي كبير. أرسلته من حاسوب ليس حاسوبها بما أن حاسوبها كان قد تعرّض للكسر على يد زوجة ألان في اليوم السابق. حاسوب لم تكن متعوّدة عليه، وبريد إلكتروني لا تتوفر فيه عناوين معارفها.

حين أغمض عينيه، كادَ مارك أن يرى فلورانس: رآها وهي متعجلة، خائفة، عرقانة، رأى أصابعها وهي تسرع في نقر عنوان ألان. كان مارك قد عثر وسط مذكرته على بطاقة تعريف ألان رئيس تحرير **#شمس الشتاء** التي كان هذا الأخير قد أعطاهما إياها بعد أن كتب عليها عنوان بريده الشخصي: alan.kowalkowski@att.net.

إلّا أنّ فلورانس لم تنقر هذا العنوان بالضبط بسبب تعجّلها. هذا ما افترضه مارك: لقد نقرت فلورانس العنوان التالي: alan.kowalkowsky@att.net.

نقرت y عوض i. kowalkowsky عوض kowalkowski. لماذا؟ لأنّ أول ما خطر في ذهنها هو أن الكلمة تُكتب بهذا الشكل. وذلك لأنّ كتابة نهاية الكلمة بهذا الشكل شيء شائع فيما يتعلق بمثل هذه الأسماء. ولأنها كانت تعيش في نيويورك منذ زمن طويل، والأميركيون يميلون إلى كتابة الأسماء من أصل روسي بحرف y في الأخير. فهم يكتبون مثلاً: Tchaikovsky, Dostoyevsky, Stanislavsky، بينما يكتب الناطقون بالفرنسية: Tchaïkovski, Dostoïevski, Stanislavski. غير أنّ Kowalkowski اسم من أصل بولوني على الأرجح، وليس روسياً.

4.

- هل تعرف مَن هو قاتل جويس؟

كان محل برلمان المتخصِّص في فطائر الكنيش غارقاً في الصمت، والرطوبة، ورائحة البصل، والنعناع، والثوم.

- لا، أجاب الشرطي بهدوء.

أعدتُ صياغة سؤالي:

- أيها المحقق باريزي، أنت لم تنتظر أن أطلب منك أن تطّلع على الملف كي تفعل ذلك، أليس كذلك؟

تنهد.

- هذا ما أخرني عن المجيء في الموعد المحدد، قال معترفاً. حكت لي ماي قصتك، وأعترف أنها أربكتني.

أشاح بنظره عني، وترك الصمت يخيم علينا. كنت مضطرباً، متشوقاً أن أعرف الحقيقة أخيراً.

- اعتمدتُ على التحليل الذي قام به المختبر قبل عشر سنوات، قال وهو يلوح أمام عيني بالوثيقة التي تحتوي على التركيب الجيني. لم يكن عليّ إلّا أن ألجَ إلى خادم قاعدة بيانات الشرطة، وأدخل المعلومات المتعلقة بهذا التركيب.

- ونجحت العملية هذه المرة! قلت حازراً.

توصَّلت برسالة نصية أخرى من ألان، إلّا أنني تجاهلتها. أخرج باريزي من جيبه ورقة مطوية.

- هذا هو متّهمنا.

فتحت الورقة، فرأيت صورة رجل ذي وجه عريض مربع، حليق الشعر، يشبه كلب البولدوغ. ذكرني بالممثل إرنست بورغنين في فيلم **الاثنا عشر وغداً**.

- اسمه بلانت ليوبوفيتش، قال باريزي موضحاً. ولد في 13 أبريل 1964 بأستوريا في كوينز. التحق بصفوف الجيش الأميركي سنة 1986 وغادره سنة 2002 دون أن يتجاوز رتبة ملازم أول. شارك في الحرب الأولى ضد العراق، وفي عمليات الجيش الأميركي في الصومال.

- وبعد أن غادر صفوف الجيش؟

- لم أواصل البحث إلى أبعد من ذلك، ولكنه صرّح، حين اعتُقل قبل أربع سنوات، بأنه على رأس شركة خاصة للأمن والحراسة.

- لم يرد اسمه في تحقيقات الشرطة المتعلّقة بقضية جويس كارلايل؟

- لا، لا من قريب ولا من بعيد.

- ولماذا تمّ حفظ تركيب حمضه النووي في قاعدة بيانات الشرطة؟

- حادث تافه. اعتقلته الشرطة في لوس أنجلوس سنة 2012 بتهمة قيادة سيارة في حالة سكر. احتدّ النقاش، فهدّد ليوبوفيتش الشرطي الذي أخضعه للمراقبة. قضى ليلة في المخفر، وخرج منه حراً في الغد.

- هل من مخالفات أخرى؟

- ليس على حد علمي.

وضع باريزي ورقة نقدية على الطاولة، ومسح فمه قبل أن ينهض وهو يحذرني:

- اسمعني جيداً. لا شك أن لديك أسباباً تدفعك إلى النبش في هذه القضية القديمة، ولكنني لا أريد أن أعرفها. أعطيتك هذه

المعلومات لأنني مدين بخدمة لماي، لكن من الآن فصاعداً، هذه القضية لم تعد تعنيني. اعتمِدْ على نفسك ولا تحاول أن تتصل بي مرة أخرى، أفهمت؟

استدار ومضى نحو الباب دون أن ينتظر جوابي. لكنني صحت خلف ظهره:

- ألا يهمك أن تعرف الحقيقة؟

أجابني دون أن يلتفت:

- أعرف الحقيقة. ولو لم تكن أعمى، لأدركت أنها أمام عينيك!

وبينما كان يغادر المطعم، أخذت أفكّر في كلامه. ماذا قصد يا ترى بقوله إن: «الحقيقة أمام عينيك»؟

طأطأت رأسي وأنا أعيد قراءة كلّ المعلومات التي مدّني بها بخصوص بلانت ليوبوفيتش هذا. كنت أستشيط غضباً من تلميح هذا الشرطي المغرور والوقح إلى أنني غبي.

وفجأة وقع نظري على الصحيفة المطوية أمامي. وفهمت.

خصصت **نيويورك تايمز**، على غرار كلّ الصحف الأخرى، صفحتها الأولى لمؤتمر الجمهوريين. على الصورة التي تشغل الحيّز الأكبر من الصفحة الأولى، رأيت تاد كوبلاند، مرشح الحزب، وهو يشق طريقه بين صفوف الجماهير رفقة زوجته. وكان هناك في الخلفية شخص يضع سماعة في أذنه، لا شك أنه حارس كوبلاند الشخصي.

إنه بلانت ليوبوفيتش.

19

فيلم بيوغرافي

ويكيبيديا

[مقتطف]

تاد كوبلاند

من أجل الحصول على مقالات مشابهة انظر كوبلاند (**أسماء متشابهة**). تاديوس ديفيد أو «تاد» كوبلاند، من مواليد 20 مارس 1960 بلانكاستر، في بنسلفانيا. رجل سياسة أميركي، عضو في الحزب الجمهوري. عمدة مدينة فيلادلفيا بين سنتي 2000 و2004، وحاكم ولاية بنسلفانيا منذ يناير 2005.

دراسته وحياته العملية

ينتمي تاد كوبلاند إلى أسرة متواضعة (أبوه صاحب ورشة تصليح سيارات، وأمه مساعدة اجتماعية). حصل على شهادة في المحاماة من جامعة تمبل للحقوق في بنسلفانيا سنة 1985.

بعد أن أنهى دراسته، عمل في مكتب المحاميين الشهيرين وايز & أيفوري. وهناك تعرّف على كارولين أيفوري ابنة دانيال أيفوري الذي أسّس المكتب

إلى جانب وايز، وتزوّجها سنة 1988. بعد زواجه، ترك تاد كوبلاند العمل في مكتب صهره، وأصبح أستاذاً جامعياً في القانون الدستوري بجامعة كورنيل بإيثاكا أولاً، ثم في فيلادلفيا بجامعة بنسلفانيا الشهيرة.

بموازاة نشاطه في الجامعة، أسّس تاد كوبلاند جمعية Take Back Your (TBY)، وهي جمعية غير ربحية تهدف إلى الدفاع عن الأقليات في الحي الشمالي الشرقي بفيلادلفيا. حقّق كوبلاند نتائج مهمة في مجال التربية، والسكن، ومكافحة الإدمان على المخدرات. ونجح في إقناع بلدية المدينة بأن تنظم حملة توعية واسعة تهدف إلى مكافحة الحمل في سنّ مبكرة لدى المراهقات، وإلى حثّ الشباب على التسجيل في اللوائح الانتخابية.

عمدة مدينة فيلادلفيا

انتُخب سنة 1995 عضواً في مجلس بلدية فيلادلفيا ممثِّلاً للشمال الشرقي من المدينة، فأصبح بذلك واحداً من الأقلية الجمهورية التي انتخبت في هذا المجلس ذي الأغلبية الديمقراطية.

بفضل ما يحظى به من شعبية في بعض الأحياء، نجح في أن يربط تحالفات مكّنته، لمفاجأة الجميع، من أن يُنتخب عمدةً لمدينة فيلادلفيا سنة 2000. تميّزت ولايته الأولى بعمله على إعادة التوازن المالي، والتخفيض من الضرائب البلدية، وتحديث تسيير المؤسّسات التعليمية في المدينة.

عقد كوبلاند عدة شراكات بين البلدية والقطاع الخاص من أجل تنفيذ مخطط واسع يهدف إلى إعادة تأهيل مركز المدينة. واستلهم من سياسة «عدم التسامح» التي تمّ تجريبها في نيويورك كي يقوم بإصلاح واسع في صفوف شرطة المدينة، ويتمكّن من مكافحة الجرائم بشكلٍ فعال.

كما كان وراء مشروع الشريط الأخضر الذي أقيم على أنقاض خطّ سككي قديم، ويمتدّ على مسافة خمسة كيلومترات.

محاولة اغتياله

في سنة 2003، وبينما كان يقوم بحملة انتخابية من أجل الحصول على ولاية ثانية، تعرض كوبلاند لمحاولة اغتيال لحظة خروجه من مقرّه. أطلق عليه حميد كومار، وهو شخص مختلّ عقلياً في الثالثة والخمسين من العمر، عدّة رصاصات أصابته اثنتان منها. فأحدثت أولاهما ثقباً في رئته، والثانية في بطنه. حُمل كوبلاند إلى المستشفى في حالة حرجة جداً، واستغرق الأمر عدّة شهور كي يتعافى من جراحه، ممّا حالَ دون انتخابه لولاية ثانية، إلّا أنّ محاولة الاغتيال الفاشلة هذه أكسَبَته دعماً شعبياً واسعاً. كان كوبلاند من أنصار مراقبة بيع الأسلحة، ولم تزِدْه محاولة اغتياله إلّا تشبّثاً بموقفه.

حاكم ولاية بنسلفانيا

في شهر نوفمبر من سنة 2004، تمكّن بفضل شعبيته من أن ينتصر على الحاكم الديمقراطي المنتهية ولايته، ليصبح حاكم ولاية بنسلفانيا. تسلّم مهامه في شهر يناير 2005، وعمل على الفور على إرساء دعائم الاستقرار الضريبي. وعمَدَ إلى الاستغناء عن بعض النفقات واستثمارها في مجال التربية والتعليم، وإصلاح دور العجزة، وإصلاح التأمين الصحي كي يمكّن سكان بنسلفانيا من الاستفادة من إحدى أندَر وأنجَع التغطيات الصحية في الولايات المتحدة الأميركية.

أعيد انتخابه بسهولة في نوفمبر 2008 و2012. فعمل خلال هاتين الولايتين على الحفاظ على صورته وترسيخها كسياسي مُصلح وعملي. كما عملَ على الدفاع عن البيئة، وذلك بتعجيله بالتصويت على مجموعة من النصوص التي تعزِّز الحفاظ على تراث الولاية الطبيعي.

في ديسمبر 2014، صُنِّف في الرتبة السادسة من حيث الشعبية من بين جميع حكام الولايات في أميركا بنسبة 65%.

طموحات رئاسية

رغم شعبيته المحلية، لم ينجح كوبلاند في فرض نفسه كمرشح طبيعي عن الحزب الجمهوري لخوض غمار الانتخابات الرئاسية.

جعله موقفه المناصر للحقّ في الإجهاض، ولزواج المثليين، ولفرض رقابة أكثر صرامة على بيع الأسلحة، يبدو أكثر ميولاً إلى الاعتدال، ممّا حالَ دون نجاحه في الفوز بقيادة الحزب.

أبرَزَت بعض التحليلات السياسية، رغم ذلك، أنّ شعبيته في أوساط الناخبين الذين لا يساندون الجمهوريين عادة –الأمريكيون من أصول لاتينية، النساء، والشباب– من شأنها أن تجعل منه مرشّحاً مناسباً للدور الثاني في أفق الانتخابات الرئاسية القادمة.

حصل كوبلاند، بين عامَي 2014 و2015، في استطلاعات الرأي المتعلقة بالمرشحين المحتملين لخوض غمار الانتخابات الأولية في حزبه، على نسبة لا تتعدى 3% من أصوات الناخبين.

غير أنّ هذه النتائج لم تمنعه من أن يستمرّ في الطموح إلى الترشّح، فقد عمد في الفاتح من شهر سبتمبر 2015 إلى الترشح رسمياً لخوض غمار الانتخابات الرئاسية لسنة 2016.

[...]

حياته الخاصة

تنتمي زوجته كارولين أيفوري إلى أسرة عريقة في بنسلفانيا مناصرة للحزب الديمقراطي. اشتغلت كمحامية، ثم أصبحت المساعِدَة الأولى للمدعي العام الفدرالي عن المقاطعة الشرقية لبنسلفانيا.

تزوّجا في 3 مايو من سنة 1988، وأنجبا طفلاً سمّياه بيتر، وهو طالب في كلية جون هوبكنز للطب، وبنتاً سمّياها ناتاشا، وهي طالبة بالكلية الملكية للفنون بلندن.

20

ألان وصحافيو الاستقصاء

لكل إنسان ثلاث حيوات. حياة عامة، وأخرى خاصة، وثالثة سرية.

غابرييل غارسيا ماركيز

.1

الغرب الأوسط للولايات المتحدة

قبل أن يغادر المطعم ويستأنف طريقه، أدّى مارك ثمن ملء خزان الوقود، وطلب جعة أخرى. على أمواج المذياع، كان بوب ديلان قد حلّ محلّ فان موريسون، وكان يغني **سارة**، إحدى أغنيات مارك المفضّلة. تذكر أنه كان قد اشترى الأسطوانة وعنوانها **رغبة** في أواسط السبعينيات قبل أن يطلّق المغني زوجته سارة التي ألهمته الأغنية. فيها يستحضر ديلان حزمة من الذكريات مرسّخاً بكلماته الشاعرية لحظات محمّلة بالحنين: يستحضر التل، والسماء، والأطفال وهم يلعبون على الشاطئ، وامرأة أحبّها يقارنها بـ«جوهرة مبهرة». وتنتهي الأغنية نهاية حزينة بعد فشل محاولة الصلح. يخلو الشاطئ المهجور تماماً، ولا يبقى فيه إلّا مركب صغير نخرَه الصدأ.

إنها قصّة حياته.

إنها قصة كلّ الحيوات.

- ألا تريد أن تذوق من طبق اليوم؟ قالت النادلة وهي تضع أمام مارك قنينة الجعة.

إنها «فتاة شابة» تكاد تودّع مرحلة الشباب، ينعتها الزبائن بـ«دجنجر». شعرها قصير مصبوغ بالأحمر، وذراعاها موشومان على طريقة راكبي الدراجات النارية الضخمة.

- ماذا تقترحون اليوم؟ سألها شكلياً.

- صدر الدجاج بالأعشاب، وبطاطس مهروسة بالثوم.

- لا، لا أرغب في مثل هذا الأكل. شكراً.

- لهجتك مثيرة، من أين أتيت؟ سألته بفضول.

- باريس.

- لدي صديقة صادف سفَرها لقضاء شهر العسل هناك وقوع الهجمات الإرهابية، قالت. شيء مخيف...

لم ينجرّ مارك إلى هذا الحديث. كان كلما أثير هذا الموضوع بحضرته إلّا ورغب في أن يستشهد بجملة همنغواي: «باريس تستحق دائماً أن تُزار، فدائماً ما تحصل منها على شيء مقابل ما تمنحها».

- وما الذي أتى بك إلى فورت واين في إنديانا؟ واصلت دجنجر حين رأت أنه لم ينجرّ إلى الحديث.

- التحقيق في قضية قديمة. أنا شرطي.

- وفيمَ تحقق؟

- أبحث عن رجل اسمه ألان كوفالكوفسكي. أعتقد أنه يسكن في إحدى المزارع القريبة.

أومأت دجنجر وقالت:

- أنا أعرفه، أعرف ذلك الوغد ألان. تعلّمنا في المدرسة نفسها. ماذا تريد منه؟

- أريد أن أطرح عليه بعض الأسئلة.

- لن تتمكن من ذلك.

- لماذا؟

- لأنه مات منذ عشر سنوات، قالت بهدوء.

تفاجأ مارك. أراد أن يواصل الحديث لكي يحصل على مزيد من المعلومات، ولكن النادلة انشغلت بطلبات الزبائن الآخرين.

اللعنة.

إنّ خبر هذا الموت يعقّد نظريته، لكنه لا يلغيها، فهو ما زال يعتقد أنّ البريد الذي بعثت به فلورانس غالو وصل إلى عنوان بريد إلكتروني موجود فعلاً. وإذا كان لا يعلم الكثير عن الإعلاميات، فهذا لا يعني أنه يفتقد رجاحة العقل. خطر له، وهو في مطعم المحار أن يطلع على دليل الهاتف على الإنترنت، فاندهش ممّا اكتشفه. كان هناك المئات من الأشخاص، على امتداد التراب الأميركي، يحملون اسم Kowalkowski، ولكن أربعة منهم فقط يحملون اسم Kowalkowsky، وأحدهم فقط يحمل اسم ألان، وهو يسكن هنا على حدود ولايتَي أوهايو وإنديانا.

منذ اكتشف ذلك وهو لا ينفكّ يفكّر في شيء واحدٍ: ماذا إذا كان هذا الشخص هو من توصّل برسالة فلورانس فعلاً؟ لقد سبق له هو أيضاً أن مرّ بتجربة مشابهة قبل سنتين. عثر، ذات صباح، في بريده الإلكتروني الخاص، على صور خليعة مرفقة بنص بذيء بعثت

بها شابة اسمها ماري إلى شخص يحمل نفس اسمه تقريباً، شخص اسمه مارك كاراديك (بحرف الـ K في أول اسمه العائلي، بدل حرف الـ C)، يسكن في مدينة تولوز، ومشترك في شركة الاتصالات نفسها التي هو من بين زبائنها.

شرب جرعة من الجعة، فإذا بسؤالٍ جديد يخطر له: إذا كان هذا الألان كوفالكوفسكي قد مات، فكيف نفسِّر أنّ رقم هاتفه ما زال موجوداً في دليل الهاتف؟

أشارَ مارك نحو دجنجر كي تأتي، لكنها فضّلت أن تستمر في الكلام مع شاب يسترق النظر إلى الشقّ الذي بين نهديها. تنهّد مارك وأخرجَ من جيبه ورقة نقدية من فئة عشرين دولاراً وأخذ يلوّح بها نحوها.

- هل تعتقد أنك تستطيع أن تشتريني؟ قالت دجنجر وهي تتناول منه النقود وتضعها في جيبها.

أحسّ مارك بشيء من الدوار، فأغمض عينيه وأخذ يتنفّس بعمق. وفجأة، كره كلّ شيء في هذا المكان: رائحة القلي، والضحالة المحيطة به من كلّ جانب، وقلّة أهمية هؤلاء الناس المتشبثين بمنضدة تبدو وكأنها أُفقهم الوحيد.

- حدّثيني عن ألان، طلب منها. هل كان فلاحاً؟

- نعم، كانت له مزرعة صغيرة يسيِّرها رفقة زوجته هيلين.

- هل تعرفين سبب موته؟

- انتحر. إنه شيء فظيع لا أريد أن أتحدث عنه.

ضيّق مارك عينيه علّه يستطيع أن يقرأ الوشم الذي في أسفل عنق النادلة: «**إننا نعيش مع الندب التي نختارها**». ليس ما تعتقده خاطئاً

تماماً، ولكنه ليس بالسهولة التي تتصوّرها. أخرج من جيبه ورقة نقدية أخرى دسّتها دجنجر فوراً في جيب بنطالها الجينز.

- لم يكن لألان إلّا هواية واحدة في حياته: صيد الأيل، وكان يمارسها كلما سنحت له الفرصة. في غالب الأوقات، كان يطلب من ابنه أن يرافقه، حتى وإن كان هذا الأخير لا يحبّ ذلك. كان اسمه تيم. فتى رائع من النوع الذي يجعلك تندم على أنك لم تنجب أطفالاً.

تاهت نظرة دجنجر لحظة قبل أن تعود إلى قصّتها:

- ذات صباح، قبل عشر سنوات خلت، رفض تيم أن يرافق أباه، لكن ألان أصرّ مرة أخرى على أن يفعل. كان يقول إنّ ابنه سيصبح رجلاً بفضل الصيد. الهراء الشائع الذي لا شك أنك تعرفه جيداً. . .

أومأ مارك موافقاً.

- استمرّ شجارهما في الغابة إلى أن وصلَ نقطة اللاعودة. هذه المرة، لم يستسلم تيم لوالده وواجهه بحقيقته. وبينما كان ابنه في طريقه للعودة إلى المزرعة، استمرّ ألان يتقفى أثر الطريدة التي كان يتعقّبها منذ عدة أسابيع. اعتقد أنه سمع خشخشة الأيل في إحدى الأجمات فأطلق النار عشوائياً. لا شكّ أنك حزرت ما حدث بعد ذلك. . .

تأتأ مارك وقد تملّكه الرعب:

- هل. . . أصاب ابنه؟

- نعم. أصاب السهم قلب الفتى، فمات تيم في الحال تقريباً. كان في الرابعة عشر من عمره. لم يستطِعْ ألان تحمّل ذلك، فأطلق على نفسه رصاصة من بندقيته غداة دفن ابنه.

تنهد مارك بصوتٍ عالٍ.

- يا لها من قصة أليمة! وماذا عن زوجته؟

- هيلين؟ ما زالت تعيش في المزرعة. لقد كانت، حتى قبل المأساة، فتاة غريبة الأطوار، تميل إلى العزلة، مثقفة. لكن بعد ما حدث، جُنّت المسكينة تماماً، فأهملت المزرعة، وصارت تعيش وسط الأوساخ والقذارة، وتشرب النبيذ على مدار الساعة...

- وكيف تكسب قوتها؟

بصقت دجنجر علكتها في سلة القمامة.

- هل تريد الحقيقة؟

- طبعاً.

- تعاطت البغاء بضع سنوات، فكانت الأرملة كوفالوفسكي بالنسبة إلى رجال المنطقة حلاً عملياً ومناسباً.

نظر مارك صوب الباب. طفح الكيل. كان عليه أن يغادر هذا المكان.

- حسب تقديري، واصلت دجنجر، إنها لم تعُد تشتغل كثيراً. فحتى الرجال المكبوتون لا رغبة لهم في معاشرة امرأة ميتة.

.2

نيويورك.

كان ألان بريدجس مغتاظاً.

- لماذا تأخّرت كلّ هذا الوقت يا رافائيل؟ فأنا أنتظرك منذ ساعة!

- آسف. سأشرح لك فيما بعد.

تحوّل مكتب ألان بريدجس في الطابق الأخير من فلاتيرون إلى مقر لإدارة الأزمات: عُلّقت صور قديمة على لوحات من فلّين، وكُتبت تواريخ على سبورة، وأخرجت كتب من صناديق مليئة بها. وعُلقت على الحائط ثلاث شاشات متحركة موصولة بواسطة الواي فاي إلى حاسوبَي صحافيَّين شابَّين من صحافيي جريدة **#شمس الشتاء**. قدَّم لي ألان رسمياً معاونَيه اللذين كنت قد التقيت بهما في الصباح:

- أقدِّم لك كريستوفر هاريس وإريكا كروس. الكلّ هنا ينادونهم كريس & كروس.

كروس فتاة صهباء جميلة، شعرها منسدل فوق كتفيها، أمّا كريس فشاب نحيل، وخجول. كان فريق صحافيي الاستقصاء يبدو قليل العدد، لأنّ أغلب الصحافيين كانوا قد ذهبوا إلى ماديسون سكوير غاردن لتغطية وقائع مؤتمر الجمهوريين.

قال ألان بنبرة جادة:

- شككت في ما حكيتَ لي، ولكنني كنتُ على خطأ.

وأشار إلى الصناديق على الأرض.

- عملنا بنصيحتك، وذهبنا إلى مستودع جويس كارلايل فشدّ انتباهنا شيء غريب جداً.

حمل من على مكتبه كتاباً ناولني إياه، عنوانه **المرشح غير الاعتيادي**، وهو سيرة حياة تاد كوبلاند. ثم شرح قائلاً:

- نُشر هذا الكتاب سنة 1999، في أثناء الحملة الانتخابية الأولى لمنصب عمدة فيلادلفيا، على نفقة الكاتب وبكمية متواضعة جداً لم تتجاوز الخمسمئة نسخة. إنه من نوع تلك الكتب السياسية

التمجيدية عديمة الأهمية التي عادة ما تُباع في مكاتب المرشحين وفي أثناء حملاتهم الانتخابية.

قرأت اسم الكاتب:

- بيبي لومباردي؟

- صحافي ومصوّر سابق لصحيفة **المحقق الفيلادلفي**، وهي صحيفة محلية رديئة. تابع مسار كوبلاند منذ ولوجه غمار السياسة، أي منذ كان مجرد مستشار في المجلس البلدي.

تصفّحت الكتاب، ثم انتقلت إلى ما يضمّه من صور.

- هل عرفتها؟

تعود الصورتان إلى نهاية الثمانينيات (ديسمبر 1988 ومارس 1989 بحسب المشار إليه)، وتظهر فيهما جويس وتاد في مكتب منظمة Take Back Your Philadelphia التي أسّسها كوبلاند قبل أن يبرز على الساحة السياسية. في تلك الفترة، كانت والدة كلير امرأة جذابة، شابة، مشرقة. جسم ممشوق، قسمات ناعمة ومتناسقة، أسنان بيضاء، وعينان خضراوان واسعتان. كان الشَّبَه بينها وبين كلير صارخاً.

كانت الصورتان تعكسان نوعاً من التوافق الجليّ بين جويس وتاد، لكنني لا أثق في الصور.

- قمنا بتحرياتنا، استأنف ألان. عملت جويس لدى TBY حوالي سنة، كمتطوّعة أولاً، وكأجيرة بعد ذلك.

- وماذا تستنتج من ذلك؟

- هل أنت أعمى؟! لا شك أنه كان يُجامعها أو ينوي أن يُجامعها، قالت كروس بنبرة واندفاعة تكاد تكون خالية من الأنوثة. هاتان الصورتان تذكّراني بصور كلينتون ومونيكا لوينسكي.

- ليست إلّا صوراً، أجبت. والصور يمكن أن نقوّلها كيفما نشاء، وأنت خير مَن يعرف ذلك.

- انتظر التتمّة، استأنفت الصهباء. عثرنا على بيبي لومباردي في إحدى دور العجزة في مين. لقد بلغ من السن تسعين سنة، ولكنه لا يزال في كامل قواه العقلية. اتصلتُ به قبل ساعة فحكى لي أن زورا زوركين، مديرة حملة كوبلاند الانتخابية، اشترت منه، عشرة أيام بعد صدور الكتاب، كلّ النسخ وكلّ الصور الفوتوغرافية السالبة.

- تحت أيّة ذريعة؟

قال ألان:

- أنّ المرشح أحبّ الكتاب إلى درجة أنه أبدى عن رغبته في صدور طبعة جديدة تحمل مقدّمة من تأليفه.

- ولم تصدر تلك الطبعة الثانية أبداً، أليس كذلك؟

- بل صدرت! وتلتها عدة طبعات أخرى، إلّا أنّ صورتَي جويس اختفتا من الطبعات التالية.

لعبتُ دور محامي الشيطان، فقلتُ مدافعاً:

- قد يكون لذلك ألف سبب. وقد سبق لك أن قلت أنت نفسك إن هذه الصور مثيرة للشبهات، فلا غرابة أن يسعى سياسي إلى إزالتها من سيرته. لا سيما وأنه متزوج.

- نعم، لكن الأمور لم تقف عند هذا الحدّ، أكّد ألان وهو يلتفت إلى كريس & كروس.

قالت الصهباء شارحة:

- قمنا ببعض التحريات على الإنترنت، خاصة في المواقع المتخصصة ببيع الكتب المستعملة. فلاحظنا أنه كلما ظهرت نسخة

من الطبعة الأولى على موقع أمازون أو إيباي مثلاً، إلّا ويتمّ شراؤها بثمن مرتفع على الفور.

- ومَن يشتريها؟

هزّت كتفيها، وقالت:

- من الصعب أن نعرف بالضبط، لكن أعتقد أنه ليس من الصعب أن نحزر.

تدخَّل كريس الخجول لأول مرة قائلاً:

- هناك شيء آخر. حصلت بعض المكتبات العامة في بنسلفانيا على الكتاب، وقد نجحتُ في الاتصال ببعضها. الكتاب موجود على لوائح الكتب المتوفرة لديها على الإنترنت، لكن لا أثر له على الرفوف، فهو إمّا ضاع، أو لم يرجِعْهُ مَن استعاره أبداً.

طلب ألان من مساعدَيه بإشارة من رأسه أن يُخليا المكان، وانتظر ريثما أصبحنا وحدنا كي يتكلم بصراحة:

- حسنٌ، لنتحدث بلا لفّ أو دوران يا رافائيل. إذا كان كوبلاند قد بذل كل هذه الجهود كي يمسح أثر تينك الصورتين، فذلك ليس لأنه كان على علاقة بجويس فحسب، بل لأنه والد كلير أيضاً. كلّ القرائن تدلّ على ذلك: تاريخ علاقته المفترضة مع جويس، كون كلير فتاة خلاسية. . .

- فكّرت في ذلك طبعاً. فهو احتمال.

- لكن ما يفاجئني حقاً هو تأكيدك على أن فلورانس كانت تُجري تحقيقاً عن جويس وكوبلاند قُبيل وفاتها.

- ولماذا يفاجئك؟

- لأنني وفلورانس كان لنا الموقف نفسه حيال حياة السياسيين الخاصة: لم تكن تهمنا. كنّا نعتبر أنّ الصحافة اليوم تسير نحو

الهلاك بسبب اهتمامها بحياة الآخرين الخاصة. لا يهمني على الإطلاق أن أعرف أن رئيس الولايات المتحدة القادم ربما كانت له علاقة قبل عشرين سنة مع امرأة غير زوجته، فهذا لا يجعله في نظري غير مؤهّل لقيادة البلاد.

- انتظر يا ألان، أعتقد أنّ الأمر ليس كما تظن. أعتقد أنّ جويس نفسها هي مَن كانت ترغب حينذاك في أن تكشف أنّ كوبلاند، حاكم بنسلفانيا الجديد، هو والد ابنتها.

- إذا كانت ترغب في الأضواء، فلماذا انتظرت كلّ ذلك الوقت؟

- لأنّ ابنتها اختُطِفَت، ولأنّ التحقيق كان متعثراً. فهذا ما كنتُ سأفعل لو كنت مكانها، كنت سألجأ إلى وسائل الإعلام بكثافة على أمل أن يُعثر على ابنتي.

خيّم الصمت على الغرفة.

- ماذا تحاول أن تقول يا رافائيل؟

- إن تاد كوبلاند قد قتل عشيقته السابقة على الأرجح، أو أمر بقتلها.

21

فصل الحزن

هذا المساء، ما زالت تلك الرائحة
تفوح من فستاني. . .
فشمّ على جسدي ذكراها الفواحة.
مارسولين ديبورد-فالمور

.1

الغرب الأوسط للولايات المتحدة

وصل كاراديك إلى مزرعة أرملة كوفالكوفسكي قُبيل المغيب.

كان المبنى الأساس عبارة عن منزلٍ من طابقين. مزرعة شبيهة بالمئات التي شاهدها في الطريق من كولومبوس إلى فورت واين. ولعلّ ما لم يرَه مارك في مكان آخر، وما كان يميز هذه المزرعة عن سواها، هو الهُرْي. هُرْي يخزّن فيه القمح ذو واجهة قرمزية وسقف أبيض مقوّس يمتد في عنان السماء.

سار مارك نحو المنزل وهو يحدّق في السقيفة بالية الطلاء التي تمتدّ على طول الواجهة. صعد درجات السلّم الأربع التي تفضي إلى المدخل. بسبب الحرارة على الأرجح، كان الباب مفتوحاً. وكانت

الريح الدافئة تعبث بستار يقي البيت من الناموس. أزاحَ مارك الستار، وأعلنَ عن وجوده مُنادياً:

- سيدة كوفالكوفسكي!

نقر على زجاج النافذة، وانتظر لحظة قبل أن يدخل إلى المنزل.

كان المدخل يشرِف على الصالون مباشرة، وهو عبارة عن غرفة مُهمَلَة تماماً: حيطان متداعية، ورق جدران ممزق، سجاد بالٍ، أثاث مرتق.

فوق كنبة خضراء، كانت تنام امرأة مكوّمة على نفسها، وبجانب الكنبة تربض قنينة نبيذ رخيص.

تنهّد مارك واقترب من هيلين كوفالكوفسكي. لم يستطِعْ أن يتبيّن وجهها بسبب وضعيتها، لكن لا يهم وجهها. هذه المرأة رأى فيها نفسه. امرأة كسرها الحزن الذي بات يعشِّش في أعماقها.

- سيدة كوفالكوفسكي، همس وهو يحرّك كتفها بلطف.

استغرق الأمر عدة دقائق كي تستيقظ. استيقظت تعبة. من دون خوف ولا ذهول. وذلك لأنها كانت في عالم آخر. في أرض لا أحد يستطيع أن يصل إليها.

- آسف على الإزعاج يا سيدتي.

- مَن أنت؟ سألت وهي تحاول أن تنهض. أحذِّرك، لا يوجد في هذا المنزل ما تسرقه، ولا حتى حياتي.

- أنا عكس اللص. أنا شرطي.

- هل جئت لتقبض عليّ؟

- لا، يا سيدتي. ولماذا أقبض عليك؟

ترنّحت هيلين كوفالكوفسكي وسقطت فوق كنبتها. كانت

سكرانة على الأرجح، أو مخدّرة حتى. بالرغم من مظهرها الحالي -جلد على عظم، وجه نحيل، وعينان محاطتان بهالتين سوداوين- كانت قد احتفظت ببعض من جمالها السابق: جسم نحيف، شعر أشقر، عينان فاتحتان.

- سأحضر لك الشاي، وستشعرين بتحسّن. هل أنت موافقة؟ اقترح مارك.

لا جواب. كان مارك مرتبكاً من وجوده وجهاً لوجه مع هذا الشبح. ولكن بما أنه يَحذَر استفاقة الأشباح ولا يريد أن يفاجأ، أخذ يتأكّد من عدم وجود أيّ سلاح في الصالون قبل أن يتوجّه إلى المطبخ.

كان المطبخ عبارة عن غرفة ذات نوافذ وسخة تُشرِف على حقل غَزَته النباتات الطفيلية. وكانت الأواني متراكمة في الحوض. أمّا الثلاجة فكانت خاوية، باستثناء علبة بيض وزجاجات كحول. فوق الطاولة، علب أدوية: فاليوم، حبوب منوّمة، وغيرها. تنهد مارك. إنه على أرض مألوفة، فكان يمضي منذ سنين طويلة على الأرض القاحلة نفسها -جحيم على الأرض- التي يمضي فيها كلّ مَن لم يعد يتحمّل الحياة، ويظلّ رغم ذلك، لأسباب متعددة، متردّداً في أن يغادرها تماماً.

وضع الماء على النار وحضَّر مشروباً ممّا وقعت عليه يداه: ليمون، عسل، قِرفة.

لمّا عاد مارك إلى الصالون، كانت هيلين لا تزال جالسة على الكنبة. ناولها فنجان الليمون الساخن. فتحت فمها ثم غيّرت رأيها. أحسّ أنه عاجز عن أن يفسِّر لهذه المرأة وجودَه عندها. أخذت هيلين تشرب من الفنجان بجرعات صغيرة. كانت نظرتها فارغة،

وظهرها محنياً، وكانت متهالكة، متعبة، كمنزلها تماماً. وتذكر مارك لوحات الرسام إيغون شيلي التي تبدو فيها الوجوه مريضة، صفراء، أقرب من الموت منها إلى الحياة.

شعر مارك بالانقباض في هذا المنزل المظلم، ففتح الستائر، وقام بتهوية الصالون. ثم ألقى نظرة على المكتبة، فرأى كتباً يحبّها ولم يكن يتوقع أن يجدها في مزرعة من قاع أوهايو: بات كونروي، جيمس لي بورك، جون إرفينغ، إديث وارتون، لويز إردريش، بل نسخة من ديوان **كاليجرام** لغيوم أبولنير نشرته المنشورات الجامعية بكالفورنيا!

- إنه شاعري المفضل، قال وهو يفتح الديوان.

على ذكر الشاعر، بدا وجه هيلين كأنه استعاد قليلاً من الحياة. حاول كاراديك، بإنجليزيته المتواضعة، أن يكسب ثقتها ويطمئنها فحكى لها عن أبولنير، عن أشعاره إلى «لُو»، عن الحرب العالمية الأولى، عن جدّه الذي مات في إحدى المعارك، عن الأنفلوانزا الإسبانية، عن زوجته إليز التي كانت متخصّصة في هذه الحقبة من التاريخ، عن لقائهما، وكيف زرعت فيه حب الفن.

لما انتهى من الحديث، كانت الشمس قد غابت، والغرفة قد غرقت في الظلام. وحدثت المعجزة، إذ شرعت هيلين، هي الأخرى، تفضي إليه بندف من قصتها: قصة تلميذة مجتهدة مرغمة على أن تتغيب عن المدرسة كي تساعد أبويها، قصة طالبة واعدة تزوّجت وهي لا تزال صغيرة السن بالشخص الخطأ، قصة زوجة حياتها مرهِقة، أضاءتها ولادة ابنها تيم، سعادتها الوحيدة في الحياة إلى جانب الكتب. ثم حدثته عن الواقعة، وكيف غيَّب الموت ابنها تيم، وسنوات الألم والعذاب التي تلتها.

قبل أن يضع الإنسان رجليه في القبر، هو لم يمُت تماماً، قال مارك في نفسه وهو ينظر إليها. طبعاً، من الأسهل أن نبوح لشخص غريب بما في أعماقنا، لكن هيلين تكلَّمت كما لم تتكلم مع أحد منذ زمن طويل. خيّم الصمت، أخذت هيلين تصفِّف شعرها بأصابعها الطويلة كأنها أميرة استيقظت للتو من نومها. استغلّ كاراديك الفرصة كي يبادر إلى الكلام:

- جئت إلى هنا لغرض التحقيق في قضية.

- أعرف أنك لم تأتِ من باريس من أجل جمال عينيّ، قالت هيلين.

- إنها قصة بسيطة جداً ومعقدة جداً في الآن نفسه، قال كاراديك. قصّة دمَّرت منذ عشر سنوات حياة عدة أشخاص، وربما تُمسكين بمفتاحها بطريقة غير مباشرة.

- احكي لي عنها أكثر، قالت مطالبة.

وحكى لها مارك عن التحقيق الذي يقوم به هو ورافائيل منذ اختفاء كلير. أخذت هيلين تتحوّل شيئاً فشيئاً، فأشرقت عيناها، وانتصبت كتفاها. إنهما يدركان كلاهما أنّ هذا لن يدوم، فما أن تشرق شمس الغد حتى تعود هيلين إلى الغرق في بحر النبيذ الرخيص والحبوب المنومة. لكن هذا المساء، استعاد عقلها شيئاً من الوضوح واليقظة، كفايةً لتكون قادرة على الاستماع إلى قصة «فتاة بروكلين» بكاملها، وتستوعب تشعّباتها، كفايةً لتسأل مارك، بعدما انتهى من سرد القصة:

- قطعتَ إذاً ألف كيلومتر من نيويورك إلى هنا فقط لأنك تبحث عن رسالة بُعثت عن طريق الخطأ إلى بريد زوجي الإلكتروني قبل أحد عشر سنة؟

- تماماً، بعثت الرسالة يوم 25 يونيو 2005 بالضبط، أجاب كاراديك، ولكنني أدرك أنّ الأمر قد يبدو سخيفاً.

بدت هيلين للحظة قصيرة كأنها عادت إلى الخمود، ولكنها سرعان ما تداركت نفسها ورتّبت أفكارها.

- منذ انتقالنا هنا سنة 1990، ونحن نملك خطاً هاتفياً باسم ألان، وهو خط احتفظتُ به بعد موته، وهذا ما يفسِّر تمكّنك من الوصول إلى هنا من خلال دليل الهاتف. أما اشتراك الإنترنت، فهو باسم زوجي أيضاً، ولكننا قمنا به من أجل ابننا، لأنّ ألان لم يكُن يفقه شيئاً في الإنترنت. تيم هو مَن كان يستعمل البريد الإلكتروني والإنترنت.

استعاد مارك الأمل. الحقيقة موجودة هنا: في هذا المنزل. إنه يشعر بذلك، بل يعرف ذلك.

- لو توصّل تيم برسالة غريبة، هل كان سيخبركما بذلك؟

- لا، لأن هذا من شأنه أن يقلقني، وتيم كان يحاول دائماً أن يريحني.

- وهل كان سيُخبر أباه؟

صمت ثقيل.

- عامة، كان تيم يتجنّب الحديث مع أبيه.

- وهذا العنوان، هل ما زال في الخدمة.

هزت هيلين رأسها نافية:

- لم أعُد أتوفر على خدمة الإنترنت منذ وفاة ابني، أي أنّ عنوان هذا البريد لم يعُد في الخدمة منذ حوالي عشر سنوات.

خابَ ظنّ مارك هذه المرة، وتسرّب الشك إلى عقله.

لقد خانه **حدسه**. وعاد إلى التفكير في معنى كلمة حدس: مجرد انعكاس في مرآة. خدعة. وهم. شيء ابتدعه العقل.

أحسَّ للحظة أنه يترنح، لكنه تماسك، وسألها:

- هل احتفظتِ بحاسوب ابنك يا هيلين؟

2.

نيويورك

أخذ ألان يفكر بصمت. كرّرتُ قائلاً:

- بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، تاد كوبلاند هو مَن قتل جويس كارلايل.

- هذا سخيف، قال رئيس التحرير. لا يمكن أن نوجّه تهماً كهذه من دون أدلّة. إنه كلام غير مسؤول! صحيح أنّ كوبلاند ينتمي إلى الحزب الجمهوري، ولكنه أفضل مرشح للرئاسة منذ كينيدي. ولن أسمح لجريدتي أن تصعّب مهمته بسبب قصة غامضة عصيّة على الفهم.

كان كلما تعمَّق نقاشنا إلّا واتّضح إعجاب ألان الغامض بتاد كوبلاند. كان هذا الأخير من جيله، وشعر بنفسه قريباً منه إيديولوجياً. ثم إنها المرة الأولى التي يقف فيها مرشحٌ جمهوريٌّ ينتقد تجاوزات النيولبرالية ويدعو إلى فرض رقابة على بَيع الأسلحة على عتبة الفوز في الانتخابات الرئاسية. لقد نجح حاكم بنسلفانيا في تغيير المشهد السياسي الأميركي، والتفوّق على الجناح الشعبوي للحزب.

والواقع أني، أنا أيضاً، من المعجبين ببلاغة هذا المرشح، لا سيما حين يستشهد بجون ستاينبيك ومارك توين في خطاباته. ولقد

فرحت كثيراً أثناء لقاءات المرشحين للانتخابات الأولية عندما انتصر على ترامب بالضربة القاضية، وهزم بين كارلسون شرّ هزيمة. كان لدى كوبلاند خريطة طريق طَموحة، ويُعرب عن عزمه على تحقيق أشياء مهمّة تروقني: تحديد أهداف سياسية على المدى البعيد، رغبته في أن يكون مرشّح الطبقة الوسطى، إيمانه بأنه لا لا يعقل أن لا يستفيد من نمو الاقتصاد الأميركي إلّا أقلية قليلة من كبار الأثرياء.

قد يكون كوبلاند شخصاً طيباً -أو على الأقل أقل السياسيين سوءاً في هذا البلد- إلّا أنني متأكدٌ من تورّطه في اختطاف كلير، فلجأت إلى حجة أخرى لأقنِع ألان برأيي:

- هل تريدني أن أذهب إلى ما هو أبعد من ذلك؟ إنّ كوبلاند أو حاشيته هم المسؤولون عن موت فلورانس غالو.

- كفى! صاح ألان.

لكي أقنعه، أظهرت له ورقتين مهمتين: المكالمة التي توصّلت بها الشرطة على الرقم 911 والتي أجريت من عنوان فلورانس غالو، وحمض بلانت ليوبوفيتش النووي الذي عُثر عليه في مسرح الجريمة. رمى اجتماع هذين العنصرين الصحافيَّ بين براثن الحيرة. كان ألان كلما أتيت على ذكر فلورانس إلّا وتغيّر مزاجه تماماً، فتصبح تقاسيم وجهه حادة، ونظرته نارية، وتتعمّق التجاعيد على وجهه.

- هل تعرف ليوبوفيتش؟ سألته.

- طبعاً، أجاب منزعجاً. كلّ الصحافيين السياسيين الذين سبَقَ لهم أن حضروا اجتماعات كوبلاند يعرفون مَن هو بلانت ليوبوفيتش: إنه حارسه الشخصي. وهو من بين مساعديه ومقرّبيه منذ زمن طويل. إنه عمّ زورا زوركين.

كانت تلك المرة الثانية التي أسمَع فيها هذا الاسم. وضح لي ألان الأمر قائلاً:

- زورا زوركين هي ظلّ كوبلاند. إنها مديرة حملته الانتخابية ومستشارته الرئيسة. ترافقه في كلّ تنقلاته. عملت في مكتبه عندما كان حاكماً، وعملت قبل ذلك على أن يُنتخَب عمدة لمدينة فيلادلفيا. لن أزعم أنّ كوبلاند مجرّد دمية، ولكن لولا زورا لبقِيَ أستاذاً للحقوق في جامعة بنسلفانيا.

- لماذا لم أنتبه إليها من قبل؟

- لأنها تعمل في الخفاء، ولأنّ أغلبية الناس لا يعرفون العقول المدبّرة. لكن الأمور بدأت تتغير مؤخراً، فقد خصّصت لها صحيفة **نيويورك تايمز** قبل ثلاثة أشهر صفحتها الأولى، وعنوَنَتها بـ«دماغ أميركا الجذاب»، وأعتقد شخصياً أنها لم تبالغ.

- ماذا يميِّزها عن غيرها؟

قطب ألان حاجبيه وقال:

- على امتداد سنوات طويلة، لم ينتبه لها أحد. لكن الأمور تغيرت الآن، فأصبح الجميع يدركون أنّ زوركين لاعبة شطرنج هادئة الأعصاب، تسبق خصومها بعدة نقلات. خلال حملة الانتخابات الأولية، أبانت عن نجاعتها وفعاليتها في الحصول على تمويل للحملة، وخاصة من مدراء جيل الفيسبوك ممّن تابعوا دراستهم الجامعية معها. وبفضل ما حصلت عليه من مال، استطاع كوبلاند أن يستمر ويثابر رغم أن استطلاعات الرأي كانت تكشف عن الدرجة المتدنية التي يحتلها بين المرشحين. ليست زوركين مجرد امرأة بارعة في التكتيك والاستراتيجية فحسب، بل هي متخصِّصة في توجيه

الضربات الموجعة لخصومها، إنها ككلب مسعور، متى أطبقَ أسنانه على أحد فهو لا يتركه أبداً.

هززتُ كتفي قائلاً:

- هكذا هي الأمور في كلّ المجالات، في الاقتصاد، وفي السياسة، وفي الفنون. كلّ رجال السلطة يحتاجون إلى مَن يتكفّل بالأمور القذرة نيابة عنهم.

أومأ ألان موافقاً، ثم ضغط على زرّ الهاتف الداخلي وقال لكريس & كروس:

- هيا يا أبنائي، ابحثا لي عن جدول أعمال كوبلاند ليوم السبت 25 يونيو 2005.

شككت في نجاعة هذه المبادرة، فقلت:

- أليس هذا تاريخ موت جويس؟ ما الذي تأمَل في الحصول عليه بعد عشر سنوات؟

- لا أعرف صراحةً، قال وهو يتنهد، لكن سترى بنفسك ما يستطيع إنجازه كريس & كروس. إنهما يوظّفان خوارزمية «ذكية» تمكّنهما من البحث عن المعلومة في الصحافة، وعلى مواقع الإنترنت، وفي المدونات الشخصية، وعلى وسائل التواصل الاجتماعي. أنت تعرف جيداً أن لا شيء يُمحى مع الإنترنت: لقد خلق الإنسان وحشاً لم يعُد قادراً على السيطرة عليه. على أيّ حال، هذه قصة أخرى...

في الوقت الذي كان ألان يُلقي حكمته، ضغط على جهاز التحكّم عن بُعد كي يلقي نظرة على القنوات الإخبارية التي تنقل وقائع مؤتمر الجمهوريين.

كان الخطباء، في ماديسون سكوير غاردن، يتعاقبون على المنصة كي يمدحوا مرشّحهم. وعلى عدة شاشات عملاقة، كانت شخصيات من مجال الرياضة والفنون يصفّقون نصرة لمرشّحهم، ويهتفون بأصوات متحمّسة بدت لي مثيرة للضحك. لقد صوّت أوّل أمس مندوبو الحزب كي ينتخبوا مرشحهم. وبعد أقل من ساعة من الآن سيلقي تاد كوبلاند خطاب تنصيبه ممثلاً للحزب الجمهوري في الانتخابات الرئاسية الأميركية. وبعد ذلك تنطلق الاحتفالات بإطلاق البالونات وقصاصات الورق الملونة في السماء. . .

- نحن نرسل لك بعض الوثائق الآن يا ألان، أعلن صوت إريكا كروس في الهاتف.

شرعت مجموعة من الوثائق تظهر على الشاشات المعلّقة على الحائط. قال كريس موضحاً:

- منذ سنة 2004، أصبح جدول أعمال حاكم ولاية بنسلفانيا رهن إشارة الجميع على الموقع الرسمي للولاية. يكفي أن تعرف كيف تحصل عليه. وهذه هي مواعيد الحاكم صباح يوم 25 يونيو 2005:

- **ما بين التاسعة وعشر دقائق والتاسعة والنصف صباحاً:** جولة أخيرة من المفاوضات مع النقابات للمصادقة على الإجراءات الهادفة إلى تحسين النقل العمومي.
- **من الحادية عشرة إلى منتصف النهار:** لقاء مع أساتذة ثانوية تشيستر هايتس.

- وهذه نسخ من المقالات الصحفية والمدونات الشخصية التي استطعتُ الحصول عليها فيما يتعلق بهذين اللقاءين، قالت كروس.

ظهرت على الشاشة مجموعة من الصور: صورة كوبلاند مع ممثلي النقابات، ثم صورته مع الأساتذة والتلاميذ.

- زورا وبلانت يقفان بالقرب منه دائماً، لاحظَ ألان وهو يشير بقلمه إلى حارس كوبلاند الشخصي ضخم الجثة، وإلى امرأة نحيلة من الصعب تحديد سنّها، غالباً ما لا يظهر إلّا جزء من جسدها على الصور.

- لا شيء مثيراً للاهتمام، قلت.

- الآتي أهم، أجابني كريس. الموعدان التاليان كانا مسجَّلين على جدول أعمال كوبلاند لفترة ما بعد الزوال:

- **من الثانية عشرة إلى الثانية والنصف بعد الزوال**: وجبة غذاء، ونقاش مع عمال دور العجزة في مونتغومري.

- **الثالثة بعد الزوال**: حفل تدشين مركّب «متروبول» الرياضي في شمال شرق فيلادلفيا.

- لكن كوبلاند ادّعى أنه مريض، أضافت الصحافية، فعوّضته في كلتا الحالتين نائبة الحاكم أنابيل شيفو.

- هذا غير منطقي، اعترف ألان. إنّ شمال شرق فيلادلفيا هو الحي المفضّل لدى كوبلاند، وأنا أعرف المتروبول: إنه مشروع ضخم، شيِّد بعناية. ولكي يعتذر كوبلاند عن حضور حفل تدشين هذا المركب، فلا بدّ أن يكون قد حدث أمر مهم وغير متوقّع.

بدا ألان متحمّساً الآن، فأردف:

- أظن أنّ كوبلاند لم يظهر له أثر في فيلادلفيا طوال النهار.

- بالعكس! صرخ كريس وهو يعرض صورة جديدة. على الساعة السادسة مساء، حضر مباراة في كرة السلة لفريق فيلادلفيا في

ويلس فارغو سنتر، وسط جمهور يُقدَّر بأكثر من عشرين ألف شخص.

اقتربت من الشاشة. كان كوبلاند يرتدي وشاحَ وقبعةَ مشجّعي الفريق. لم يكن على وجهه أيّ علامات تشير إلى أنه قتل امرأة لتوّه، لكن ليس في ذلك ما يدعو إلى الاستغراب. فالجميع يعرف أنّ السياسيين قادرون على أن يُظهروا عكس ما يكنّون.

- هل لديكَ صور أخرى التقطت في أثناء هذه المباراة؟

وظهرت على الفور مجموعة أخرى من الصور على الشاشة.

هذه المرة، لم يظهر على الصور حارس كوبلاند الشخصي ومديرة حملته الانتخابية.

- إريكا، اعثري لي على صور التُقطت في أثناء مباريات أخرى، طلب منها ألان.

- ماذا تقصد؟

- مباريات أجريت في ويلس فَارْغو قبيل هذا التاريخ.

بعد ثلاثين ثانية، استأنفت الصحافية الكلام قائلة:

- عثرت على هذه الصور التي التقطت في مباراة ضدّ سيلتيكس أسبوعاً قبل ذلك، وعلى صور مباراة ضد أورلاندو جرت في شهر أبريل من العام نفسه.

في أثناء هاتين المباريتين تكرّر المشهد نفسه: زورا وهي تجلس في الصف الذي خلف كوبلاند. وفي بعض الصور المكبّرة يظهر بلانت ليوبوفيتش وهو يقف غير بعيدٍ عنه. قلت:

- انظُرْ! زوركين تجلس في المكان نفسه دائماً خلف كوبلاند، إلّا يوم السبت 25 يونيو. إنها ليست صدفة يا ألان!

هذه المرة، لم يجد رئيس التحرير شيئاً يعارضني به.

- ما هو الوقت الذي يستغرقه الطريق بين فيلادلفيا ونيويورك بالسيارة؟ سألته.

- ساعتان على الأقل، إذا أخذنا زحمة السير بعين الاعتبار.

تراجعت إلى الوراء فوق مقعدي، وأغمضت عيني، ثم أخذتُ أفكّر. كنت متأكداً أني فهمت ما وقع يوم 25 يونيو 2005، ولم يكن ينقصني إلّا اختيار الكلمات المناسبة لأقنع ألان أن يساعدني، لأني لمست، لأول مرة، وسيلة لتحديد مكان كلير ولتعود إليّ سالمة غانمة.

- الأمور واضحة يا ألان، قلت وأنا أفتح عيني وأستعدّ لأن أكشف له عن السيناريو الذي توصَّلت إليه. في ذلك السبت، ركب الحاكم رفقة زورا وبلانت السيارة وغادروا فيلادلفيا بعد الزوال مباشرة. كان لدى كوبلاند موعد مع جويس. تحدَّثا إلى بعضهما بحدّة. تحوّل الحديث إلى شجار. خاف كوبلاند فقتلها. ثم اكتشفَ أنّ فلورانس سجَّلَت ما دار بينهما من دون علمه. عاد إلى فيلادلفيا لوحده كي يشاهد مباراة كرة السلة، وكي لا يثير الشكوك. في أثناء ذلك، بقي بلانث وزورا في نيويورك وتكفَّلا بالعمل القذر: نقل جثة جويس، وتغيير معالم مسرح الجريمة بحيث يوحي بأنّ الوفاة نتجت عن جرعة هيروين زائدة. وبعد ذلك، عملا على إسكات فلورانس. اللعنة! كلّ شيء منطقي ومتماسك.

أحسَّ ألان بالإرهاق، فوضع رأسه بين كفّيه. خيِّل إليّ أني ولجتُ عقله، فرأيت ما فيه من فوضى ومن غضب ممزوج بالأسى. ربما كان يفكر في تذلك الأشهر من السعادة التي قضاها إلى جانب فلورانس، في اللحظات التي كان كلّ شيء ممكناً: إنجاب الأطفال، وبناء مستقبل، والإحساس بأنكَ متحكّم في زمام حياتك، لا مجرّد

متفرّج عليها. ربما تصور طريقة الموت المرعبة التي ذهبت ضحيتها المرأة الوحيدة التي أحبّ. ربما كان يفكّر في ما مضى من الوقت منذ وفاتها. وقت أنفقه غارقاً في مستنقع العمل. ربما كان يقول في نفسه إن مارلين مونرو كانت على حقّ حين قالت إنّ النجاح المهني شيء رائع حقاً، لكننا لا يمكننا أن ننام إلى جانبه ونستدفئ به حين نحسّ بالبرد.

- ماذا ستفعل الآن؟ سألني وهو ينظر إليّ كما لو أنه استيقظ من نومٍ عميق.

- هل أنتَ مستعدّ لمساعدتي يا ألان؟

- لا أدري إن كنت مستعداً، ولكنني سأساعدك إكراماً لذكرى فلورانس.

- هل لديك وسيلة للاتصال بزوركين؟

- نعم، لديّ رقم هاتفها، الرقم الذي اتّصلت به كي أتفاوض معها بخصوص المقابلة مع كوبلاند.

وبينما كان منشغلاً بالبحث عن مفكّرة أرقام الهواتف، كتبت رسالة نصية تقول: إنني أعرف ما فعلتموه بفلورانس غالو، وبجويس كارلايل وبابنتها.

- ليست فكرة جيدة أن تبعث بهذه الرسالة يا رافائيل. سيتوصّلون إلى موقع هاتفك بسهولة، وسيتعرّفون عليك في أقل من عشر دقائق.

- هذا ما أسعى إليه بالضبط، أجبته. فأنا أيضاً أجيد لعب الشطرنج.

22

زورا

الحيوانات ذات الدم البارد هي
الحيوانات السامّة الوحيدة.
أرتور شوبنهاور

.1
قبل سبع عشرة سنة
ربيع سنة 1999

اسمي تاد كوبلاند. عمري تسع وثلاثون سنة. أعمل أستاذاً للقانون الدستوري والعلوم السياسية في جامعة بنسلفانيا. أعود صباح هذا السبت من رحلة صيد السمك، لكنها، كالعادة، ليست إلّا ذريعة كي أقضي بضع ساعات من الهدوء بين أحضان الطبيعة.

وأنا أربط المركب إلى العمود الخشبي، جرى أرجوس، كلبي اللابرادور، نحوي وهو يلهث ويحرك ذيله.

- هيا، تعال يا كلبي!

تجاوزني وجرى نحو شاليه كبير عصري البناء، مزيج متناسق من الحجر وخشب الأرز والزجاج. إنه مَلاذي كلّ عطلة نهاية أسبوع.

أدخل المنزل، وأشرع في تحضير القهوة وأنا أستمع إلى المذياع تنبعث منه نغمات ساكسفون ليستر يونغ. ثم أجلس في الشرفة وأتلذّذ بسيجارة وأنا أتصفّح الجرائد وأصحح بعض أوراق امتحان الطلبة. على هاتفي رسالة نصية من زوجتي كارولين التي اضطرت للبقاء في فيلادلفيا والتي ستلتحق بي عند منتصف النهار:

أعوّل عليك في أن تطبخ لي معكرونة بصلصة البيستو التي تجيد طبخها! قبلاتي! ك.

أسمع هدير محرك سيارة، فأرفع رأسي. أضع نظاراتي الشمسية وأضيق عيني. أتعرّف على الفور إلى الخيال النحيل ذي المشية المتعجّلة، وإن كان لا يزال بعيداً. إنها زورا زوركين.

وكيف أنساها وقد كانت من بين طالباتي المتميزات قبل أربع أو خمس سنوات؟ بل كانت أنجب طالبة عرفتها طوال مسيرتي كمعلِّم. حادة الذكاء، صارمة، لديها قدرة لا مثيل لها على تحليل المواضيع تحليلاً عقلانياً فذاً. وتمتلك ثقافة واسعة حول السياسة وتاريخ الولايات المتحدة الأميركية. فتاة محبة لوطنها تدافع عن مواقف أشاطرها إياها وأخرى لا أتّفق معها فيها. ذكية إذاً، لا تميل إلى الدعابة ولا التعاطف، لا أصدقاء لها ولا صديقات.

أذكر أني كنت أشعر دائماً بمتعة في النقاش معها، وهو أمرٌ لا يشعر به باقي زملائي، فمعظمهم كانوا يشعرون بالضيق في حضرتها، بسبب ذكائها البارد الذي يُثير الغضب أحياناً، وبسبب نظرتها التائهة حين تكون غارقة في التفكير. نظرة سرعان ما قد ترمي بشَررٍ قبل أن تفاجئك بفكرة حادة كالسيف.

- صباح الخير أستاذ كوبلاند.

ها هي واقفة أمامي بثيابها المزرية الفضفاضة: جينز بالٍ، وقميص لا شكلَ له، وعلى كتفها حقيبة ظهر تبدو وكأنها احتفظت بها منذ أيام الثانوية.

- صباح الخير زورا، ما سبب تشريفي بزيارتك؟

تبادلنا حديثاً عابراً، ثم حكَت لي عن بدايتها في الحياة العملية. كنت قد سمعت عن مسارها. فأنا على علم بأنها قامت في السنوات الأخيرة، بعد تخرّجها من الجامعة، بإدارة عدّة حملات انتخابية محلّية أدت إلى نتائج مثيرة للانتباه رغم أنّ المرشحين لم يكونوا معروفين على نطاق واسع، ونجحت بذلك في أن تنال شهرة صغيرة كمستشارة سياسية يفضل أن تكون معك بدل أن تكون ضدك.

- أعتقد أنك تستحقين أكثر من ذلك، قلت وأنا أصبّ لها القهوة. إذا كنت ترغبين في أن تحققي نجاحاً كبيراً، فعليكِ أن تجدي مرشّحاً على مستوى ذكائك. أجابت:

- تماماً. وأعتقد أني وجدته.

نظرت إليها وهي تنفخ على القهوة كي تبرد. انعكست أشعة الشمس على وجهها فأبرزت جماله الذي كان شعرها المقصوص كيفما اتفق والمنسدل على جبينها قد محا معالمه. قلت:

- حقاً، وهل أعرفه؟

- إنه أنت يا تاد.

- لم أفهم.

فتحت حقيبتها، وأخرجت منها مشاريع ملصقات، وشعارات، وأوراقاً مطبوعة تحدِّد استراتيجية انتخابية. وهي تضع كلّ ذلك على منضدة عتيقة من الخشب كنت قد جعلت منها طاولة حديقة، أوقفتها قبل أن تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك:

- مهلاً يا زورا، فأنا لم أرغب أبداً في أن أمارس السياسة.
- بل أنت تمارسها منذ سنوات. ألم تؤسّس جمعية؟ ألستَ مستشاراً في المجلس البلدي؟
- أقصد أنّ طموحاتي في هذا المجال ليست كبيرة.
نظرت إليّ بعينيها الكبيرتين.
- وأنا أعتقد أنها عكس ذلك.
- وما هو المنصب الذي ترغبين في أن أترشّح إليه؟
- منصب عمدة فيلادلفيا أولاً، ثم منصب حاكم ولاية بنسلفانيا بعد ذلك.
هززتُ كتفي.
- هذا كلام لا معنى له يا زورا، فلم يسبق لفيلادلفيا أن صوّتت لصالح مرشح جمهوري.
- بل سبق لها أن صوّتت لصالح برنار ساموِيل سنة 1941، ردَّت على الفور.
- طيب، ربما، ولكن حصل ذلك منذ ستين سنة، أمّا اليوم، فمثل هذا الأمر لم يعُد ممكناً.
لم تقتنع بحجّتي.
- لستَ جمهورياً متعصباً يا تاد، ثم إنّ زوجتك من عائلة محترمة تناصر الحزب الديمقراطي. قلت:
- على كلّ حال، سيُعاد انتخاب غارلاند عمدة لفيلادلفيا.
- غارلاند لن يترشح لولاية أخرى، قالت مؤكّدة.
- ماذا تقولين؟
- علمت بذلك، لكن لا تسألني كيف.

2.

- لنفترض أني أرغب في ممارسة السياسة، فلماذا سأراهن عليك أنتِ يا زورا؟

- لم تفهم الأمر يا تاد، أنا مَن أراهن عليك.

كنا نتحدَّث منذ ساعة تقريباً، وكنتُ قد انخرطتُ في اللعبة رغماً عني. كنت أدرك جيداً أني أقدم على ولوج مضمار صعبٍ خطير. كنت أدرك جيداً أنه لا ينبغي أن أقدِم على مغامرة لا سبيل إلى الرجوع عنها. لكنني كنت، في تلك الفترة، أشعر وكأني استنفدتُ كلّ ما يمكنني أن أقوم به في الحياة. كنت أمرّ بفترة من الشك. لم أعُد متأكّداً من أيّ شيء: لا زواجي، ولا مهنتي كأستاذ جامعي، ولا حتى المعنى الذي أريد أن أعطيه لحياتي. وقد عرفت هذه الفتاة كيف تجد الكلمات المناسبة. كانت نظرتها للأمور بعيدة وصحيحة. لا شيء يبدو مستحيلاً بالنسبة إليها، فكان المستقبل يلوح أمامي مشرقاً. أليس هذا ما انتظرته طوال حياتي: أن ألتقي بشخصٍ مميّز يغيّر حياتي، ويُخرجني من رتابة حياة الدَّعَة التي أعيشها والتي تضيق بي؟

حاولت أن لا أستسلم لغواية زورا، لكنها كانت تقوّض كلّ اعتراضاتي.

- أنت تعرفين أنني لست متديّناً والناخبون الأميركيون لا يحبون ذلك.

- لستَ مجبراً على أن تصرِّح بذلك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- وسبق لي أن دخَّنتُ الحشيش.

- كباقي الناس، يا تاد.

- وما زلت أدخّنه أحياناً.

- في هذه الحالة، عليك أن تتوقف عن تدخينه فوراً، وإذا طُرِحَ عليك سؤال في هذا الباب فقُلْ إنك لا تبلع الدخان.

- ولا ثروة لديّ أعتمد عليها في تمويل حملتي الانتخابية.

- هذا من ضمن مهامي، لا مهامك.

- وأخضع لعلاج طبي منذ سنوات طويلة.

- ممّ تعاني؟

- من اضطراب ثنائي القطب.

- ونستون تشرشل، والجنرال باتون، وكالفين كوليدج، وأبراهام لينكولن، وتيودور روزفلت، وريتشارد نيكسون... كانوا يعانون من الاضطراب نفسه.

نجحَتْ في إزاحة اعتراضاتي الواحد تلو الآخر، فلم أعُد أرغب في أن تغادر. رغبتُ في أن تستمرّ في سقي نبتة الأمل التي زرَعَتها في نفسي. رغبتُ في أن تستمرّ في قول إني سأصبح عمدة خامس أكبر مدينة في أميركا. ورغبتُ أيضاً أن أستمرّ في التظاهر بأني أصدّقها.

3.

وفي اللحظة التي أحسَّت أنها تكاد تُقنعني تماماً، غيرت زورا كلامها. وقد عرفتُ فيما بعد أن لا أحد يستطيع أن يُخفي أسراره على زورا زوركين.

- الآن وقد انتهيت من اعتراضاتك الخاطئة، أعتقد أن الوقت قد حان كي نطرح المشاكل الحقيقية، ألا تعتقد ذلك؟

تظاهرتُ أني لم أفهم، فسألتها:

- ماذا تقصدين؟

- أقصد السياسة. لا شك أنه سبق لك أن فكّرت فيها. لقد خُلقتَ لتكون سياسياً. يكفي المرء أن يحضر محاضرة من محاضراتك ليتأكّد من ذلك. تدخلاتك كانت تبهرنا. انتقاداتك كانت صائبة. كلّ الطلبة كانوا يشربون كلامك شرباً. ما زلتُ أذكر حتى الآن سخطك على عدد العمال الفقراء في أميركا، أو عدد الأمريكيين الذين لا يتوفرون على تأمين صحي. ما زلت أذكر خطاباتك حول تبدّد الحلم الأميركي، وحول الإجراءات التي ينبغي اتّخاذها لإعادة إحيائه. السياسة تجري في عروقك يا تاد.

أردتُ أن أعترض على كلامها، لكني لم أعثُر على الكلمات المناسبة.

- اعترِفْ يا تاد أنّ شيئاً معيّناً دفعك إلى التخلي عن السياسة، شيئاً تعتبره مانعاً لا يمكن التغلب عليه.

- يا لكِ من طبيبة نفسية فاشلة!

حدجتني بنظرة متحدية.

- ما هو ذلك السرّ الكبير الذي لا تريد أن تبوح به لأحد يا أستاذ كوبلاند؟

التزمتُ الصمت متّكئاً على الدرابزين، وأخذتُ أنظر إلى سطح البحيرة وهو يعكس أشعة الشمس البراقة.

جمعت زورا أغراضها في حقيبتها.

- أمهلك دقيقة يا تاد، استأنفت وهي تنظر إلى ساعتها. دقيقة واحدة فقط. إذا كنت لا تثق بي، فيُستحسن أن نتوقف عند هذا الحدّ.

تناولَتْ سيجارة من العلبة التي تركتُها فوق الطاولة، وأخذت تنظر إليّ.

شعرتُ لأول مرة بالخطر الذي تمثِّله هذه الفتاة. لم أحبّذ تصرفاتها. لم أحبّذ أن أُجبَر على فعل شيء معين. خلال ثوانٍ معدودات، كنت لا أزال حراً في أن أقول «لا». لكن ما فائدة الحرية إذا لم تمكِّنك من أن تحقِّق أحلامك؟

- حسنٌ، قلت وأنا أجلس إلى جانبها. أنتِ محقّة: هناك شيء في حياتي كفيلٌ بأن يحرمني من ممارسة السياسة.

- كلّي آذان صاغية.

- لا تتوقعي أن تسمعي اعترافات مثيرة، فهي مجرّد قصة تافهة. قبل عشر سنوات، كنت على علاقة مع امرأة، علاقة استمرت بضعة أشهر.

- مَن هي؟

- اسمها جويس كارلايل. كانت متطوِّعة في الجمعية التي أسّستها، ثم أصبحَت أجيرة فيها فيما بعد.

- هل زوجتكَ على علم بهذه العلاقة؟

- لو علمت كارولين، لما ظلّت زوجتي.

- وأين تسكن هذه الجويس كارلايل الآن؟

- في نيويورك. لكن القصّة لا تقف عند هذا الحدّ. لقد أنجبت طفلة، كلير، وعمرها اليوم ثماني سنوات.

- هل أنتَ والد تلك الطفلة؟

- نعم، من المحتمل جداً أن أكون كذلك.

- هل حاولت جويس أن تبتزّك؟

- لا، إنها امرأة طيبة. إنها متحرِّرة، لكنها محترمة. أمها تعمل في مصلحة القضاء بالمدينة.

- هل ما زلتما على اتصال؟

- لا. أنا لا أعرف عنها شيئاً منذ سنوات، ولم أسعَ إلى ذلك.

- وهل الطفلة كلير على علمٍ بأنك أبوها؟

- لا علم لي بذلك.

تنهّدت زورا، ثم بدت كأنها غائبة عن كلّ ما حولها كعادتها حين تفكِّر في أمرٍ ما. وانتظرت صامتاً أن تُصدِرَ حكمها، كتلميذ فوجئ وهو يفعل الحماقات.

كان عليّ أن أتخلى عن المشروع في تلك اللحظة، لكن زورا نطقت بالكلمات التي كنت أرغب في أن أسمعها إذ قالت:

- إنه أمرٌ محرج فعلاً، وقد يطفو إلى السطح في أية لحظة، لكن هذا لا يمنعك من أن تُغامر. أهم ما في الأمر هو أن تبقى متحكّماً في الوضع. نحن على علم الآن بأنّ هذه القصة قد وقَعَت في حياتك بالفعل، وأنها قد تتحوَّل إلى مشكلة في المستقبل. وقد لا يحدث ذلك أبداً، ولكن إذا حدث، وصارت مشكلة، فسنعالجها في الوقت المناسب.

4.

«إذا حدث، وصارت مشكلة، فسنعالجها في الوقت المناسب».

كانت هذه الجملة نذيراً، وكنتُ أعلم ذلك.

أو لنقُل إني كنت أخشى ذلك على الأقل.

لكن يجب أن أكون أميناً صادقاً. إنني لم أندم على ذلك الاختيار، حتى بعد المأساة التي وقعت فيما بعد، بل سأذهب أبعد

من ذلك وأقول إنني سأكون كاذباً إذا ادّعيت أني لا أشتاق إلى ذلك الصباح. ذلك الصباح الذي بدأ فيه كل شيء. ذلك الصباح الذي قدِمَت فيه تلك الفتاة إلى منزلي بثيابها الغريبة وحقيبتها المهترئة. ذلك الصباح الذي وضعت فيه أغراضها فوق منضدتي العتيقة وقالت: «هل أنت مستعد لأن تكتب فصلاً جديداً من تاريخ السياسية في الولايات المتحدة الأميركية يا تاد؟ فصلٌ تكون أنتَ بطله».

23

دليل قاطع

القانون رقم 2: لا تثقوا بأصدقائكم، استعملوا أعداءكم [. . .]. وإذا لم يكن لكم أعداء، فابحثوا عن وسيلة ليصبح لكم أعداء.

روبرت غرين

1.

- هل ترغب في أن نلعب جولة شطرنج مقابل 20 دولاراً يا سيدي؟

اقتَرَحَ عليّ ذلك متشرِّد ذو لحية كثة يتأبط علبة لعبة شطرنج.

- مرة أخرى، أما اليوم فلديّ موعد، قلت وأنا أناوله ورقة نقدية.

جلستُ إلى طاولة حجرية في ركنٍ من واشنطن سكوير بارك مخصَّص للاعبي الشطرنج، منتظراً زورا زوركين.

كان النهار قد أوشك على نهايته، لكن الحديقة لا تزال تعجّ بالحركة. إنها حركة الناس المرحة النشيطة التي تَشهدها الحديقة في الصيف كلّ ليلة سبت، حين يصبح النهار طويلاً، وحين تساعد

الأجواء على الاستماع للموسيقى، والتجوّل، والضحك، والرقص.

إنها أجواء تتناقض تماماً مع حالتي النفسية. فأنا لستُ في حالة جيدة يا كلير. ولكي لا أصاب بالجنون، عمدتُ، في الأيام الثلاثة الماضية، إلى كتمان القلق الذي بداخلي، ولكن خوفي عليك سرعان ما طفا إلى السطح لمّا جلست وسط هؤلاء الناس اللامبالين.

ما أن أكفّ عن الحركة أو التفكير حتى أتذكّر صور كاميرا المراقبة. تلك الصور التي يعمَد فيها أنجلي الحقير إلى رميك في صندوق السيارة. تلك الصور التي تصرخين فيها: «رافائيل! ساعدني! ساعدني يا رافائيل!».

كيف حالك يا ترى، بعد ثلاثة أيام من الأسر؟ وتلك النطفة الحيّة التي في أحشائه، هل سيساعدنا الحظّ فنراها تتحوَّل إلى جنين، ثم إلى طفل نحتفل بولادته؟

هل ما زلتِ على قيد الحياة؟ لم أشكّ في ذلك يوماً، لكن تأكُّدي هذا أقرب إلى إيمان شخصي منه إلى قناعة مدعمة بالحجَج الدامغة. وقد يكون ذلك مجرّد هروب لأنني خائف من أن لا أكون من القوّة بحيث أستطيع أن أتقبَّل الواقع. تلك صفة الروائيين يا كلير. إنني أردِّد باستمرار أنك لا يمكن أن تكوني قد اختفيت إلى الأبد. لا من هذا العالم ولا من حياتي.

لكي أتغلب على خوفي، فعلت المستحيل خلال الساعات الأخيرة الماضية. أنا الذي لا يتصرَّف عادة إلّا من خلال أبطال رواياته، ها أنا ذا قد تحوَّلتُ إلى محقّق، فاكتشفت خبايا ماضيك، وبحثت في كلّ مكان، وطرقت كلّ الأبواب.

«أنا مَن فعلتُ ذلك. فهل ما زلتَ تحبني يا رافائيل؟». وعلام ألومكِ يا كلير؟ هل ألومك على إنقاذ حياتك؟ أم ألومك لأنك

حاولت أن تبني لنفسك حياة جديدة، وأن تبتعدي عن كل الفظائع التي عشتِها؟ لا، لن ألومكِ طبعاً! بالعكس، لقد أدهشتني قوة شخصيتك، وعزيمتك، وذكاؤك.

«هل ما زلتَ تحبّني يا رافائيل؟».

ها أنا ذا أصل إلى نهاية الطريق، وأكاد أكشف عن هوية مُدبّر اختطافك. زورا زوركين مَن دبر ذلك، ولا شك أنها قاتلة والدتكِ أيضاً. ولكنني ما زلت لم أفهم كيف وصلوا إليك بعد كل تلك السنوات. ولماذا الآن؟ ولماذا حالما كشفتِ لي عن سرّك؟ وبالرغم من أني تأملت كلّ الفرضيات، فإنّ شيئاً أساساً ما زال يفلت مني.

«هل ما زلت تحبني يا رافائيل؟».

توقفي عن طرح هذا السؤال. نعم، أحبك، لكنني لم أعُد أعرف تلك التي أحبّها. لكي نحبّ شخصاً، لا بد أن نعرفه، وأنا لم أعُد أعرفك يا كلير. أشعر الآن وكأنني بحضرة امرأتين: آنا بيكر، الطبيبة المتدربة التي وقعتُ في حبها، الفتاة الودودة، المرحة، الطيبة التي قضيتُ إلى جانبها ستة أشهر هي من أسعد أيام حياتي، المرأة التي كنت أستعدّ للزواج منها. وكلير كارلايل، الناجية من جحيم هاينز كيفر، «فتاة بروكلين» مجهولة النسب. وإنني لأشعر تجاه شبه الغريبة هذه بالإعجاب والانبهار. لكنني عاجز عن أن أجمع بينكما. فمن ستكونين يا ترى حين نلتقي من جديد؟ لقد آمنت دائماً بأنّ التغلب على محنة ما يوحّد قلوب الناس إلى الأبد، وقلوبَ العاشقين بصفة خاصة. إنّ تخطي العقبات المؤلمة يخلق روابط قوّية غير قابلة للتخريب. وهذا ما يجعلني متأكّداً الآن وقد عرفتُ ماضيك، الآن وقد كشفت عن هويات الذين أساءوا إليك، من أننا لن نكون غريبين عن بعضنا أبداً.

.2

تسللت زورا زوركين النحيلة الخفيفة بين صفوف الحشد المتجمهر في مدرجات ماديسون سكوير غاردن. وتمكَّنت، بفضل شارتها، أن تتوجه نحو الكواليس، وأن تقطع عدة مئات من الأمتار وسط ممرات متعرجة، إلى أن تصل إلى بوابة يحرسها جنديان، بوابة تشرف على الشارع 31.

كان بلانت ينتظرها. أطلع الحارسُ الشخصي ابنةَ أخته على هاتفه حيث تظهر نقطة زرقاء مشعّة في تطبيق لتحديد المواقع.

- لم يتحرّك رافائيل بارتليمي من مكانه منذ عشر دقائق.

- وأين هو بالضبط؟

- في الزاوية الشمالية الغربية من واشنطن سكوير، قرب طاولات الشطرنج.

هزت زورا زوركين رأسها. الإشارة واضحة: إنه يتحدّاها على أرضها. إنها تجيد إطفاء الحرائق عامةً، وتحبّ القتال، ولكنها كانت تحرص دائماً ألّا تستخفّ بقدرات خصمها.

طلبت من بلانت أن يتبعها عن بُعد، وعبَرَت الشارع كي تصل إلى الجادة رقم 7. كان الحيّ بكامله مغلقاً. لا فائدة من استعمال السيارة، فلن تمكنها من الوصول أسرع، بل إن فعلت قد تثير انتباه أحد الصحافيين. توقفت لحظة كي تشتري قنينة ماء من بائع متجوّل، ووصلت هاتفها بسمّاعة كي تتمكن من الاستماع إلى خطاب كوبلاند الذي لم تكن قد حضرت منه إلّا البداية.

كان الخطابُ مسكَ الختام لثلاثة أيام أدارتها زورا ببراعة. إنّ في نجاح كوبلاند نجاحاً لها. كلّ المحللين السياسيين يدركون، كما يدرك تاد نفسه، أنّ زورا كانت وراء نجاحه في الانتخابات الأولية، وأنها ستقود خطاه إلى البيت الأبيض غداً.

عَمَدَ المرشحون الآخرون إلى توظيف فرق مكوّنة من مئات الأشخاص: مستشارون في الاستراتيجيات السياسية، مستطلعو الرأي، مستشارون، متخصصون في التسويق. أمّا كوبلاند وزورا، فاختارا العمل على الطريقة القديمة، يعملان لوحدهما، كمقاولة أسرية صغيرة. تتكفل هي بالاستراتيجية، ويتكفل هو بالخطابات والشكليات. وتبيَّن أن هذه الطريقة فعالة، فكلّ واحد منهما كان يدرك أنه لا قيمة له من دون الآخر. كانت قد نصحت كوبلاند أن يترشح للانتخابات الأولية متأخراً جداً، وأن يتظاهر بأنه ترشَّح من باب خوض التجربة فقط. فترك كوبلاند المرشحين المرجحين للفوز يتقاتلون فيما بينهم في المناظرات الأولى، وبقي يترصّد بعيداً، ولم يكشف عن خطَّته إلّا بالتدريج.

كانت فترةً غريبة. فترة افتقدت فيها الولايات المتحدة رجال دولة أكفاء. فترة لم يعُد فيها للخطابات الذكية والتفكير المركّب مكان. فترة وحدهُ الكلامُ المبسَّط أو المتطرّف يلقى فيها صدى إعلامياً. فترة لم يعد للحقيقة فيها أية أهمية. فترة حلّت فيها العواطف السهلة محلّ تحكيم العقل. فترة لا أهمية فيها إلّا للصورة والإعلام.

وإذا كان كوبلاند يبدو اليوم رجلاً جديداً، فإنّ الشهور الأولى من حملته الانتخابية كانت كارثية. فقد فشل تاد في لقاءاته الأولى مع مناصري الحزب الجمهوري، وتجاوزه المرشحون الآخرون يوم الثلاثاء الكبير[1]. ثم حدثت المعجزة، وتحولت عيوب كوبلاند

(1) Super Tuesday وهو أول ثلاثاء من شهر مارس، تقوم فيه الولايات بانتخاب مرشحها للانتخابات الأولية - المترجم.

المزعومة فجأة إلى مزايا، وأصبح لخطابه صدى في الأوساط الناخبة، وقرر مناصرو الحزب الجمهوري أنهم ضاقوا ذرعاً من المرشحين التقليديين. هذه اللعبة، زورا هي مَن نجحت في التحكُّم في خيوطها، وفي بضعة أيام، حصل كوبلاند على الدعم المالي وعلى أصوات المرشحين الذين أعلنوا عن انسحابهم.

رغم هذا الزخم، احتدَمَ الصراع إلى آخر لحظة. في الساعات الأولى من المؤتمر، خشيت زورا أن يشنّ عليه خصومه هجوماً مخاتلاً. واعتقدت أنّ المندوبين المئة والثلاثين سيحاولون أن يقوموا بنوع من الانقلاب ضدّ كوبلاند، إلّا أنّ «الحكماء» لم يجرؤوا على ذلك، وانضمّوا إلى صفوف مرشّحها.

والحق أنّ تاد سياسي ذكي، وصلب، وجاد، يبرع في الشؤون الاقتصادية والسياسة الخارجية، كما أنه متألّق في وسائل الإعلام، ومرح، وجذاب. يراه الرأي العام، رغم مواقفه المعتدلة، شخصاً حازماً، قادراً على أن يقف في وجه بوتين أو شي جين بينغ. وهو بالإضافة إلى ذلك، خطيب متفائل وموحِّد للصفوف. إذا فاز كوبلاند في الانتخابات الرئاسية -وإنها لمتأكدة الآن من أنه سيفوز- فسيعيّنها سكرتيرة البيت الأبيض العامة. إنه أهم منصب في العالم، فالسكرتير العام هو مَن يسيّر البلاد حقاً، في الوقت الذي ينشغل الرئيس المنتخب بالاستعراضات أمام الكاميرات. إنه الشخص الذي يتكلّف بكلّ شيء: بعقد تحالفات مع الكونغرس، والتفاوض مع أعضاء الهيئات التنفيذية المحلّية والوكالات الفدرالية. إنه، في المحصّلة، مَن يهتم بمعالجة معظم الأزمات.

اعتادت زورا أن لا تترك شيئاً للصدفة. لكنها فوجئت منذ ثلاثة أيام بانبعاث قضية كارلايل، قضية اعتقدت أنها أصبحت من الماضي

المدفون، وها هي ذي تطفو إلى السطح في أسوأ لحظة، وتهدّد بتدمير ما بنته على مدى أكثر من خمسة عشر عاماً.

منذ سنوات، كانت قد عملت على دراسة كلّ السيناريوهات المحتملة لتجنّب كلّ الأخطار. السيناريو الوحيد الذي لم تتوقعه لأنه كان من المستبعَد جداً أن يقع، هو الذي حدث: في الوقت الذي اعتقد الجميع أنّ كلير كارلايل ماتت منذ عشر سنوات، ها هي ذي تحيا حياة جديدة باسم جديد.مكتبة .. سُر مَن قرأ

كان ريشار أنجلي مَن أخبرها بذلك. عندما اتّصل بها الأسبوع الماضي، كانت قد أوشَكت على أن تنسى ذلك الشرطي البوردولي الشاب الذي استأجرته بنفسها قبل أحد عشر عاماً، بطلبٍ من الحاكم، قصد الحصول على معلومات متعلّقة باختفاء ابنته. منذ ذلك الوقت، كان ريشار قد تقدّم في مسيرته المهنية، والربّ وحده يعلم كيف علم بأنّ كلير كارلايل لا تزال على قيد الحياة.

قرّرت، من دون تردّد، أن لا تحدِّث المرشح عن الموضوع. فهذا جزء من عملها: معالجة المشاكل كي لا تصل إلى الحاكم. إنها تجيد ذلك، بل وتحبّ ذلك. عمدت، دون أن تُخبر كوبلاند، إلى إرسال مبلغٍ من المال -مبلغ كبير- لأنجلي الذي لا حدّ لجشعه، وأمرته أن يعثر على الفتاة وأن يخطفها ويسجنها.

كانت قد تردَّدت كثيراً أن تطلب منه أن يقتلها وأن يخفي جثّتها، وهو ما كان سيُعالج المشكلة نهائياً، ولم يمنعها من ذلك إلّا خوفها من ردّ فعل كوبلاند إذا علم بالأمر.

اختارت أن تتريّث بضعة أيام قليلة كي تمنح نفسها فرصة للتفكير في الأمر ملياً، لكنها تقول الآن في نفسها إنّ انتظارها طالَ وإن الوقت قد حانَ كي تتصرّف.

.3

رغم أني أترصّدها منذ عدّة دقائق، لم أتعرّف على زورا زوركين حقاً إلّا حين صارت على بُعد مترٍ واحد مني فقط. حتى وإن كانت أكبر سناً، فإنها تبدو كأي طالبة من طالبات جامعة نيويورك اللواتي يرتدن واشنطن سكوير: بنطال جينز، قميص، حقيبة ظهر، حذاء رياضي. قلت وأنا أنهض:

- أنا . . .

- أعرف مَن أنت.

أحسست بيدٍ توضع على كتفي. استدرتُ فإذا بي أرى بلانت ليوبوفيتش بجثته الضخمة. تحسَّس حارس كوبلاند الشخصي جسدي من رأسي إلى قدمَي، وصادر هاتفي خشية أن أسجّل ما سيدور بيننا من حديث. ثم ذهب ليجلس على مقعد يبعد عشرة أمتار عن طاولات الشطرنج.

جلست زورا قبالتي.

- أعتقد أنك طلبتَ مقابلتي يا سيد بارتليمي.

كان صوتها واضحاً عذباً عكس ما تصورت.

- أنا أعرف كلّ شيء، قلت.

- لا أحد في العالم يعرف **كل شيء**، وأنت كذلك. فأنت لا تعرف اسم عاصمة بوتسوانا، ولا تعرف اسم عملة طاجيكستان وعملة كامبوديا. ولا تعرف اسم رئيس الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1901، ولا اسم العالِم الذي اخترع لقاح الجدري.

بداية قوّية.

- أتريدين حقاً أن نلعب لعبة تريفيال بورسوت[1]؟

---

(1) Trivial Pursuit: لعبة شهيرة تعتمد على أسئلة ثقافة عامة - المترجم.

- وما الذي تعتقد أنك **تعرفه**، يا سيد بارتليمي؟

- أعرف أنك تعتقلين في مكان ما في فرنسا شريكة حياتي كلير كارلايل ابنة الحاكم كوبلاند غير الشرعية. أعرف أنك أقدمت، أنت أو ذلك الغوريلا الجالس هناك، قبل أحد عشر عاماً، على قتل أمها جُويس، عشيقة كوبلاند سابقاً.

كانت تستمع إليّ بتركيز، لكن دون أن تبدو متأثرة بما كشفت لها عنه.

- في فترة الحملة الانتخابية، أتوصّل كل يوم بمئات الرسائل المجهولة من هذا النوع، تدّعي أن الحاكم رجلٌ قادم من خارج كوكب الأرض، أنه من المؤمنين بالسيانتولوجيا، أنه امرأة، أنه مصاص دماء، أنه من عشاق ممارسة الجنس مع الحيوانات. هذا نصيب كلّ رجل يمارس السياسة.

- إلّا أن لديّ دلائل.

- وما هي هذه الدلائل؟

ألقَت نظرة على هاتفها النقال الذي كانت قد وضعته فوق الطاولة. كانت تتوصل من دون انقطاع بإشعارات من أرقام مختلفة، وبرسائل نصية. أشرتُ إلى الحارس الشخصي بحركة من ذقني.

- عُثر على حمض عمك النووي في مسرح الجريمة بمنزل جويس كارلايل.

عبست مشكّكة.

- لو كان الأمر كذلك، لحققت معه الشرطة آنذاك.

- آنذاك، لم تكن الشرطة تعلم بهذه الحقيقة، أمّا اليوم فقد اختلف الأمر.

أخرجتُ من جيبي الصورتين اللتين انتزعتهما من الكتاب الذي عثر عليه ألان في المستودع.

- وهناك هاتان الصورتان، صورتا جويس والحاكم.

نظَرَت إلى الصورتين دون أن يظهر عليها أيّ أثر للاندهاش.

- نعم، إنهما صورتان شهيرتان. صورتان جميلتان بالمناسبة، ولكن، علام تدلّان؟ على أنّ تاد وهذه المرأة كانا على توافق. أمر طبيعي، ألا تعتقد ذلك؟ ثم إنه هو مَن وظّفَها، بحسب علمي.

- هاتان الصورتان تدلّان على علاقة. . .

قاطعتني بحركة من يدها:

- إذا كانت هذه هي الدلائل التي في جعبتك، فلن تجد آذاناً صاغية، ولن تجد مَن ينشرها.

- بالعكس، فأنا أعتقد أنّ الصحافيين سيكونون سعداء لو علموا أنك أقدمت على قتل زميلتهم فلورانس غالو.

سخرت من الخبر قائلة:

- فعلاً، لقد رغبتُ في أن أقتل بعض الصحافيين الذين ينشرون مقالات مُغرضة بعيدة عن الحرفية، وتفتقر إلى الذكاء، ولكنني منعتُ نفسي من تحقيق رغبتي.

لما أدركتُ أني في مأزق، غيّرت استراتيجيتي.

- اسمعي يا زورا، أنا لستُ شرطياً، ولست قاضياً، ما أنا إلّا رجل يريد أن يسترجع المرأة التي يحب.

- كلامٌ مؤثّر حقاً.

- لقد أخفَت كلير كارلايل هويتها مدة عشر سنوات. وأعتقد أنها لا تعرف من هو أبوها حتى. أطلقوا سراحها وستختفي عن أنظاركم إلى الأبد.

هزت رأسها بطريقة ساخرة.

- تريد أن تساوم، إلّا أنك لا تملك ما تعتمد عليه في ذلك.

سلمت حانقاً بأنها محقّة. فقد قمنا، أنا ومارك، بتحقيق جادّ مكَّننا من أن نجمع قطع الأحجية ونُعيد تركيبها حتى وإن كانت صعبة التركيب، لكن ولا واحدة من تلك القطع يمكن أن نعتمد عليها في المساومة. توصَّلنا إلى الحقيقة، لكن كان ينقصنا الأهم: الدليل القاطع.

4.

حرم الذاكرة

دخل مارك كاراديك وهيلين كوفالكوفسكي إلى غرفة تيم بخشوع، كما لو أنهما يدخلان إلى كنيسة.

كانت الغرفة توحي بأنّ المراهق لم يزِدْ عن أنه ذهب إلى المدرسة الإعدادية أو إلى منزل أحد أصدقائه، وأنه سيعود بعد قليل، وسيلقي حقيبة ظهره على السرير قبل أن يتوجه إلى المطبخ كي يحضر لنفسه قطعة خبز مدهونة بشكولاتة النوتيلا وكوباً من الحليب.

يا له من وهم ذي حدين: وهمٌ يطمئنك أوّل الأمر، لكنه سرعان ما يدمرك. تقدَّم مارك إلى وسط الغرفة المُضاءة بمصباح ينوس ضوؤه الشحيح، كأنه يحتضر.

كانت الغرفة تعبق برائحة نعناع غريبة. ومن وراء النافذة، ورغم ظلام الليل، كانت تلوح قمة الهُري المسنّنة.

- كان تيم يحلم بأن يلتحق بمدرسة لتعلّم فن السينما، شرحت هيلين وهي تشير إلى الجدران المغطّاة بملصقات لأفلام سينمائية.

ألقى مارك نظرة دائرية على الغرفة. وبالنظر إلى الملصقات، بدا أنّ ذوق الفتى رفيع: Memento, Requiem for a Dream, Old Boy, Orange mécanique, Vertigo...

على الرفوف، كان هناك قصص مصورة، وتماثيل لأبطال أفلام كرتون، ومجلات سينمائية، وأقراص لمغنين أو فرق موسيقية لم يسمع بها كاراديك من قبل: إليوت سميث، أركايد فاير، ذي وايت سترايبس، سفيان ستيفنز...

كان على جهاز تشغيل الموسيقى كاميرا فيديو صغيرة الحجم.

- هدية من جدّته، أوضحت هيلين. كان تيم يخصّص أوقات فراغه كلها لهوايته، وكان يقوم بإخراج أفلام قصيرة.

وعلى المكتب، كانت هناك عدة أشياء: هاتف دارث فيدر، علبة أقلام، علبة بلاستيكية بداخلها أقراص DVD فارغة، كأس عليه صورة جسيكا رابيت، حاسوب قديم من طراز آيماك جي 3.

- هل تسمحين؟ سألت وأنا أشير إلى الحاسوب.

أومأت هيلين موافقة.

- أشغله أحياناً كي أشاهد أفلامه أو صوره. يتوقف ذلك على حالتي النفسية، لكنني أتألم في الغالب أكثر ممّا أرتاح، حين أشاهدها.

جلس مارك على الكرسي الدوار، وخفض من علوه قبل أن يشغل الحاسوب.

دعاه الحاسوب إلى أن ينقر كلمة السر.

- تطلّب مني العثور على كلمة السر سنة تقريباً، قالت هيلين معترفة وهي تجلس بدورها على حافة السرير. «MacGuffin». توصلتُ إليها بصعوبة رغم أن تيم كان يعشق أفلام هتشكوك.

نقر مارك الحروف التسعة. على خلفية الشاشة ظهر تقليد للوحة سلفادور دالي **القديس جورج والتنين**.

وفجأة، سمعا صوت انفجار. كان المصباح قد لفظ أنفاسه الأخيرة، فأحدث انفجاراً أفزعه وأفزع هيلين.

لم يعُد في الغرفة من ضوءٍ إلّا الضوء المنبعث من شاشة الحاسوب. ابتلع مارك ريقه. لم يكن يشعر بالراحة وسط هذا الظلام. أحسَّ بنسمة هواء تلامس مؤخرة رقبته. ظن أنه رأى خيالاً. استدار وكأنه يحسّ أنّ شخصاً آخرَ حاضر معهما في الغرفة. لكن، باستثناء هيلين، الشبح التعب مصفرّ الوجه، لم يكن هناك أحد غيرهما في الغرفة.

عاد إلى الحاسوب وفتح البريد الإلكتروني، لكن لم تكن هناك خدمة إنترنت، كما سبق أن شرحت هيلين، وكان الحساب قد أغلق جراء ذلك منذ زمن طويل، غير أن الرسائل التي قام تيم بتحميلها ظلت سجينة أحشاء الحاسوب. استعمل مارك الفأرة مستعرضاً الرسائل إلى أن وصل إلى تاريخ 25 يونيو 2005.

أحسّ بوخز في عينيه، وبشعر ذراعه ينتصب. ها هي الرسالة اليي يبحث عنها ماثلة أمام عينيه، الرسالة التي بعثت بها فلورانس غالو. عندما نقر كي يفتحها، أحسّ برعشة تسري في جسده. لم يكن البريد يضمّ أيّ شيء آخر سوى ملفٍّ صوتيّ بعنوان: كارلايل.mp3.

أحسّ بجفاف في حلقه. شغل مكبرات صوت الحاسوب ونقرَ على التسجيل الصوتي. كان الصوت واضحاً، وصوت جويس كارلايل كما تصوّره: جهورياً، دافئاً، مخدوشاً من الغضب والحزن. أمّا صوت الرجل الذي قتلها، فلم يكُن غريباً عليه. عندما تعرّف مارك على صاحب الصوت، أعادَ الاستماع كي يتأكّد تماماً ممّا سمعه.

لم يصدّق ما سمعه، فأعاد الاستماع مرة ثالثة معتقداً أنّ مستواه المتواضع في اللغة الإنجليزية يخذله. لبث مذهولاً لحظة، ثم تناول سماعة الهاتف واتصل برافائيل. ردّ عليه المُجيب الآلي.

- اتّصل بي حالما تستطيع يا راف. لقد عثرت على التسجيل الذي قامت به فلورانس غالو. اسمع هذا...

.5

- إذا لم يكن لديك ما تضيفه، فقد انتهت هذه المحادثة يا سيد بارتليمي.

لما رأى بلانت زورا تنهض، تقدّم نحونا عابس الوجه. كان يحمل هاتفي في يده.

- لقد رنّ هاتفه قبل قليل، قال لابنة أخيه. وبما أنه لم يردّ أحد، ترك شخص يدعى كاراديك رسالة.

- هل استمعت إليها؟

أومأ الحارس الشخصي مؤكّداً.

- نعم، وأعتقد أنه يجب أن تستمعي إليها أنت أيضاً.

وبينما كانت تستمع إلى الرسالة الصوتية، أخذتُ أتأمل تعبيرات وجهها، مراقِباً كلّ رمش عين وكل ارتجاف على وجهها الجامد عادة. ولما انتهت من الاستماع، كنت لا أزال أجهل ما علِمَتْه، ولم أدرك أن موازين القوى قد انقلبت وصارت لصالحي، إلّا بعد أن عادت إلى الجلوس.

- هل ما زالت كلير على قيد الحياة؟ سألتها.

- نعم، ردّت زوركين بلا لفّ أو دوران.

لم أكلِّف نفسي عناء أن أخفي ارتياحي.

- وأين هي الآن؟

- مسجونة في مكان ما في باريس تحت حراسة ريشار أنجلي.

- أريد أن أتكلم معها حالاً!

هزت زورا رأسها رافضة.

- سنفعل كما في الأفلام. سنطلق سراح كلير حالما أتوصَّل بنسخة من هذا التسجيل الصوتي وحالما تقوم بمسح التسجيل الأصلي.

- أعدكِ بذلك.

- لا يهمّني وعدك.

بدت لي الأمور من البساطة بحيث لا يجب أن أستسلم لإغرائها. سألتها:

- وما الذي يضمن لكِ بأني لن أنشر هذا التسجيل؟

أجابت:

- وما الذي يضمن لك، حين نصل أنا وكوبلاند إلى البيت الأبيض، أن لا يطلق ضابط من القوات الخاصة رصاصة على رأسك يوماً؟

أعطت الوقت لردّها أن يفعل مفعوله قبل أن تضيف:

- ليس هناك من حالة أكثر استقراراً من توازن الرعب. كلانا يملك السلاح النووي، وأوّل من سيحاول أن يستعمله ليدمّر خصمه سيعرِّض نفسه للدمار هو أيضاً.

نظرتُ إليها بحيرة. بدا لي استسلامها سريعاً، ولم أستطِعْ فهم سبب لمعة الرضا في عينيها. وأعتقد أنها شعرت باضطرابي.

- لم تخسر يا رافائيل، وأنا مَن انتصرت. هل تعرف لماذا؟ لأننا لا نخوض الحرب نفسها، وليس لدينا الأعداء نفسهم.

تذكّرت ما قاله لي ألان من أن زورا تسبق خصومها بعدة نقلات.

- ومَن هو عدوّك أنت؟

- هل تعلم كيف يتصرّف السياسيون حين يصلون إلى السلطة يا رافائيل؟ إنهم يسعون دائماً إلى أن يتخلصوا من أولئك الذين بفضلهم حصلوا عليها، ليقنعوا أنفسهم أنهم نجحوا معتمدين على أنفسهم فقط.

- وهذا التسجيل هو ضمانة لك مدى الحياة، أليس كذلك؟

- إنه يضمن لي أن كوبلاند لن يستطيع إبعادي أبداً، لأنني في هذه الحالة لن أسقط وحدي.

- توازن الرعب، قلت هامساً.

- إنه سرّ العلاقات الزوجية التي تدوم.

- بالنسبة إليكِ، الوصول إلى السلطة يبرِّر كلّ شيء، أليس كذلك؟

- ما دامت ممارسة السلطة في صالح الأغلبية.

قمت كي أغادر طاولة لعبة الشطرنج.

- إنني لا أطيق الأشخاص من أمثالك.

ردَّت بازدراء:

- أتقصد أولئك الذين يسعون إلى ما فيه خير بلدهم؟

- بل أولئك الذين يخيّل إليهم أنهم فوق مستوى شعب مستضعف غير قادر على أن يختار مصيره بنفسه. ففي دولة القانون، حتى السياسة تخضع لقواعد.

نظرت إليّ بعجرفة:

- ليست دولة القانون إلّا خرافة. لا يوجد، منذ الأزل، إلّا قانون واحد وحيد في العالم: قانون الغلبة للأقوى.

24

بعد ظهيرة في هارلم

الإرادة تحرقنا والاستطاعة تدمرنا.

أونوريه دو بلزاك

هارلم

السبت 25 يونيو 2005

أغلقت جويس كارلايل خلفها باب المنزل الذي تعيش فيه أختاها، والواقع في الرقم 266 من شارع بيلبري المنحصر بين الشارعين رقم 131 و132. كان تاد هو مَن طلب منها، في آخر لحظة، أن تغيِّر مكان اللقاء. كان حذراً، لا يريد أن يغامر بأن يراه أحد أمام منزلها.

أخرجت جويس من كيس ورقي قنينة الفودكا التي كانت قد اشترتها منذ دقائق قليلة من دكان إسحاق لانديس. ورغم أنها كانت قد شربت منها عدّة جرعات في الطريق، شربت جرعتين أخريين متتاليتين حرقتا بلعومها دون أن تمنحاها الهدوء المرتجى.

بعد ظهيرة ذلك السبت، كانت ريح خفيفة تعبث بأوراق أشجار الكستناء فيخترقها ضوء عذب يصبغ الرصيف بألوان ذهبية. كانت

علامات فصل الربيع المنصرم في كلّ مكان، لكن جويس لم تكُن ترى شيئاً ممّا حولها، لا البراعم على الأشجار، ولا شجيرات الأزهار أمام منزلها. لم تكُن جويس إلّا كتلة مظلمة من الحزن، والغضب، والخوف.

شربت مزيداً من الفودكا قبل أن تسدل الستائر وتتناول هاتفها لتتصل مرتعشة برقم فلورانس غالو.

- فلورانس؟ هذه أنا، جويس. لقد غيّر وقت اللقاء!

فوجئت فلورانس، لكن جويس لم تمنحها فرصة التعليق:

- إنه قادم الآن! لا أستطيع التحدث معك!

حاولت فلورانس أن تهدئ من روعها:

- اتبعي الخطة التي اتفقنا عليها بالحرف يا جويس. ثبّتي الهاتف تحت طاولة غرفة الطعام بشريط لاصق. أسمعتِ؟

- سوف... سوف أحاول.

- لا، يا جويس، لا تحاولي، بل افعلي!

عثرت في جارور المطبخ على شريط لاصق استعملته في تثبيت الهاتف تحت طاولة صغيرة قرب الكنبة.

في اللحظة نفسها، انعطفت سيارة عند ركن الشارع: سيارة من طراز كاديلاك إسكاليد سوداء ذات نوافذ مظللة. توقّفت السيارة لحظة تحت الأشجار، انفتح الباب الخلفي، فنزل تاد كوبلاند. ولكي لا تُثير الانتباه، عادت السيارة من حيث أتت، ورُكنت في مكان بعيد، عند ناصية شارع لنوكس. كان كوبلاند حادّ القسمات، يرتدي قميصاً داكن اللون وسترة من التويد. لم يمكث الحاكم على الرصيف طويلاً، بل صعد على الفور الأدراج التي تؤدي إلى مدخل

المنزل رقم 266. كانت جويس تنظر من النافذة، مضطربة، زائغة العينين، ففتحت له الباب قبل أن يقرع الجرس.

ما إن رآها كوبلاند حتى أدركَ أنّ اللقاء لن يكون سهلاً. فها هي ذي المرأة التي أحب، المرأة المشرقة، النشيطة سابقاً، قد تحوّلت إلى قنبلة يدوية على وشك الانفجار، قنبلة متخمَة بالهيروين وتفوح منها رائحة الكحول.

- مساء الخير يا جويس، قال وهو يغلق الباب خلفه.

هاجمته من دون مقدّمات:

- سأكشف للصحافة أنّ كلير ابنتك.

هزّ كوبلاند رأسه مستنكراً.

- كلير ليست ابنتي. ليست روابط الدم هي ما يؤسّس الأسر، وأنتِ تعلمين ذلك جيداً.

تقدّم نحوها وقال بصوت اجتهد أن يكون مقنعاً علّه يعقّلها:

- لقد قمتُ بكلّ ما أستطيع القيام به يا جويس. جنّدتُ شرطياً هناك كي يُطلعَني على تطورات القضية على مدار الساعة. الشرطة الفرنسية فعّالة يا جويس، والمحققون يعملون كل ما في وسعهم.

- هذا لا يكفي.

تنهد تاد.

- أعرف أنك عدتِ إلى تعاطي المخدرات، ولا أعتقد أن الوقت مناسب لذلك.

- هل تراقبني؟

- نعم، لمصلحتك! لا يمكن أن تستمري على هذه الحال! سأبحث لكِ عن مصحّة لـ. . .

- لا أريد مصحة! أريد أن تعثر على ابنتي!

تذكر في لحظة خاطفة، ويا للمفارقة، حين رآها تصرخ وتزبد، اللحظات الحميمية التي تشاركاها قبل خمسة عشر عاماً، لحظات منسجمة، متقدة، لذيذة. شعر تجاهها بانجذاب غريب آنذاك، انجذاب جسدي وفكري شديد لا علاقة له بالحب.

- كلير ابنتك وعليك أن تتحمل مسؤولية ذلك، قالت مكرِّرة.

- لم نتّفق يوماً على أن ننجب طفلاً. كنت تعرفين وضعي جيداً، واسمحي لي أن أذكّركِ بأنك كنت تدّعين أنك تأخذين احتياطاتك، ولمّا حملتِ قلت إنك لا تنتظرين مني شيئاً، وإنك ستقومين بتربية هذه الطفلة لوحدكِ.

- وهذا ما فعلته طوال خمسة عشر عاماً، ردّت جويس. أمّا الآن، فالوضع تغيّر.

- وما الذي تغيّر؟

- اللعنة، لقد اختُطِفت كلير منذ شهر، ولا أحد يعبَأ بذلك! حين ستعلم الشرطة أنها ابنتك، فستوظف كلّ ما لديها من إمكانات لتعثُر عليها.

- كلام تافه.

- بل ستصبح قضية اختفائها قضية وطنية يتحدث عنها الجميع.

اكتست نبرة كوبلاند بصرامة محمَّلة بالسخط والغضب:

- لن يغيِّر ذلك من الأمر شيئاً يا جويس. إذا كان هذا الاعتراف سينقذ كلير، لقُمتُ به، ولكن الأمر ليس كذلك.

- إنك حاكم ولاية.

- بالضبط، أنا حاكم ولاية منذ خمسة أشهر، ولا يمكنكِ أن تدمّري حياتي بهذا الشكل!

انفجرت باكية.

- ما لا يمكنني فعله هو أن أتخلى عن ابنتي دون أن أحرّك ساكناً.

تنهد كوبلاند. في الحقيقة، كان يتفهّمها تماماً. وضع نفسه مكانها، وفكّر في ناتاشا، ابنته **الحقيقية** التي سهر على تربيتها، التي حضّر لها الرضاعات في الثالثة صباحاً، التي كان يخاف عليها كلّما مرضت. واعترف بينه وبين نفسه أنه لو كان مكانها، لو اختطفت ابنته، لقام هو أيضاً بكلّ ما في وسعه كي يعثر عليها، بما في ذلك القيام بتصرفات خرقاء متهورة لا تخضَع لحكم العقل. وفي هذه اللحظة بالذات، أدرك أنّ باب جهنم كان قد انفتح أمامه، وأنه سيخسر كلّ شيء: أسرته، ووظيفته، وشرفه. سيخسر كلّ شيء رغم أنه ليس مسؤولاً عن اختطاف تلك الفتاة. لقد كان دائماً ممّن يتحمّلون مسؤولية أفعالهم، ولكن عمَّ نتحدث هنا؟ عن ربط علاقة مع امرأة بإرادتها وموافقتها؟ عن معاشرة امرأة تدّعي الحرية؟ عن مجتمع منافق يندّد بالخيانة الزوجية، ويتقبل المجازر التي يسببها بيع الأسلحة؟ لا، إنه لا يرغب في أن يعتذر عمّا فعل، ولا يرغب في أن يُعلن عن ندمه.

- لقد اتّخذت قراري يا تاد. يمكنك أن تنصرف الآن، قالت ثم أدارت له ظهرها مبتعدة نحو الرواق، لكن تاد لم يكُن مستعداً للاستسلام من دون مقاومة. جرى وراءها إلى أن لحق بها في الحمّام.

- اسمعيني يا جويس! صرخ ووهو يمسك بكتفيها. إنني على وعي تامّ بما تكابدينه من آلام، لكن هذا لا يعطيك الحق في أن تدمريني.

لكي تتخلّص من قبضته، ضربته على وجهه بقبضتيها.

فوجئ، فأخذ يهزّها.

- اللعنة، عودي الى صوابك!

مكتبة
t.me/soramnqraa

- لقد فات الأوان.

- لماذا؟

- لأنني اتصلت بإحدى الصحافيات.

- ماذا تقولين؟

راحت تشهق:

- التقيت بصحافية تعمل لدى **الهيرالد**، اسمها فلورانس غالو، ستكشف عن الحقيقة.

- الحقيقة هي أنك عاهرة!

كان كوبلاند قد كتم غيظه طويلاً، لكنه انفجر في تلك اللحظة. كانت جويس لا تزال تحاول أن تتخلص من قبضته، فصفعها.

- النجدة يا فلورانس! النجدة!

مدفوعاً بغضب أعمى، هزها بقوة ورمى بها إلى الوراء بعنف.

فتحت جويس فمها لتصرخ، إلّا أن الوقت لم يسمح لها بذلك. سقطت على ظهرها وهي تحاول أن تتمسك بشيء ما، لكن من دون جدوى. انخبطت مؤخرة جمجمتها بحافة حوض المغسلة، فسمع صوتاً يشبه صوت انكسار غصن جاف. تسمّر كوبلاند في مكانه غير مصدِّق ما حصل. تباطأ الوقت إلى أن كادَ أن يتوقف تماماً. استمر ذلك طويلاً، ثم عاد إلى الحركة شيئاً فشيئاً.

كانت جويس ملقاة على الأرض. جثا سياسي على ركبتيه ليسعفها، لكنه سرعان ما أدرك أن لا مجال لاستدراك ما اقترفته يداه. ظل جاثياً عند قدميها بفعل الصدمة، صامتاً، مذهولاً، مرتعش اليدين. ثم صرخ فجأة وهو ينفجر باكياً:

- لقد قتلتها!

كان قد فقد التحكّم في نفسه ثلاث ثوانٍ فقط! ثلاث ثوانٍ كانت كافية كي تجرف حياته نحو الهاوية.

دسّ وجهه بين يديه، وترك موجة الهلع تزحف نحوه وتغمره. ثم تراجع الرعب شيئاً فشيئاً، واستعاد رشده بالتدريج. تناول هاتفه كي يتصل بالشرطة. بدأ ينقر الرقم، لكنه سرعان ما توقف. خطر إلى ذهنه سؤال: لماذا أخذت جويس تصرخ طالبة النجدة من تلك الصحافية؟ غادر الحمّام متوجّهاً إلى الصالون، وهناك فتح أبواب الخزائن والأدراج، وتحسس الستائر والأثاث. لم يتطلب منه العثور على الهاتف ملصقاً تحت الطاولة إلّا دقيقتين اثنتين، فسارع إلى إطفائه.

كان لهذا الاكتشاف أثر غريب عليه. لقد حوَّله من حال إلى حال، وغيَّر ما كان يشعر به. فلم يعُد ينوي الآن أن يسلِّم نفسه للشرطة، أن يطأطئ رأسه، أن يندم على فعله. أقنع نفسه بسهولة بأنه ليس مذنباً، بل ضحية، وقرّر أن يقاوم وأن يقوم بكلّ ما يستطيع أن يقوم به كي ينقذ نفسه. لقد ابتسمت له الحياة دائماً، ولن يتخلى عنه حسن الطالع في هذه اللحظة.

تناول الهاتف واتصل بحسن طالعه الذي تركه في السيارة المركونة غير بعيد عن المنزل.

- تعالي بسرعة أنت وبلانت! ولا أريد أن يراكما أحد.

- ماذا حدث يا تاد؟ سألته زورا.

- وقعت مشكلة مع جويس.

العالم ينقسم إلى قسمين...

آنا

اليوم

الأحد 4 سبتمبر 2016

الجدران ترشح. الرطوبة في كلّ مكان. الهواء محمّل برائحة عفونة ونتانة.

كانت آنا مضطجعة فوق الأرض الباردة، بجانب مستنقع صغير من المياه الراكدة. كانت تتنفس بصعوبة. يداها المصفدتان كانتا مربوطتين إلى أنابيب معدنية، ورجلاها مقيدتان بأسلاك من البلاستيك. على فمها كمّامة تجرح طرفَي شفتيها. ذراعاها ترتجفان، وركبتاها تصطكان، وخاصرتاها مشلولتان من بالألم.

كان الظلام من حولها يكاد يكون حالكاً. لا ينفذ إلى الغرفة من ثقبٍ في السقف إلّا ضوء شحيح يسمح بتخمين جدران السجن. كان المكان في ما مضى محطة كهربائية استغنت عنها إدارة السكك الحديد منذ زمن طويل. برج مساحته عشرون متراً مربّعاً، وعلوه عشرة أمتار، كان يضم محوّلاً كهربائياً.

بالرغم من أنها سجينة تلك الجدران، كانت آنا تسمع أصوات القطارات وضجيج حركة المرور البعيدة. إنها معتقلة في هذا المكان

منذ حوالي ثلاثة أيام. كانت ساكنة، مشوّشة الذهن، وتحاول أن تتذكر مرة أخرى تسلسل الأحداث الذي قادها إلى هنا.

كانت الأحداث قد توالَت بسرعة بحيث إنها لم تفهم حينذاك ما حدث لها. في أنتيب، بدأ كلّ شيء بذلك الشجار، بتلك المواجهة العنيفة بينها وبين رافائيل التي انتهت بالدموع. لم يستطِعْ الرجل الذي أحبّت أن ينصت إلى سرّها فتخلى عنها، وردّ فعله ذاك آلمها ودمّرها.

منذ علمت أنها حامل وهي لا تني تقول في نفسها إنه لا يعقل أن تبني أسرة على الكذب. لذلك تعمّدت، لمّا عاد رافائيل إلى إثارة الموضوع نفسه، أن لا تصرّ على رأيها كما كانت تفعل من قبل، بل أحسّت بنوع من الراحة حين قرّرت أن تبوح له بالحقيقة، رغم أنها ادّعت العكس. وشجّعتها كلماته المطمئنة فتمنّت، خلال لحظة عابرة، أن يتفهّمها ويُساعدها على أن تتغلّب على الوضع المعقّد الذي كانت تعيشه منذ سنوات.

لكن لم يحدث شيء من ذلك. أحسّت أنه خذلها وتخلى عنها، فأطلقت العنان لغضبها وقلبت رفوف الكتب التي سقطت على الطاولة الزجاجية فهشَّمتها. ثم طلبت سيارة أجرة، وتوجّهت إلى المطار لتعود إلى باريس.

وصلت إلى منزلها في مونروج حوالي الواحدة صباحاً. وما أن دخلت شقتها حتى أحسَّت أنّ شخصاً ما وراءها وتلقّت ضربة على رأسها حالما استدارت. حين استيقظت، وجدت نفسها سجينة في مستودع.

بعد ساعات قليلة، حطمت سيارة مجنونة بوابة المستودع، ليس لتحرّرها، بل بالعكس، لتحملها إلى هذا المكان بعد رحلة قصيرة في

صندوق سيارة رباعية الدفع. لم تتمكّن من أن ترى ممّا حول هذا المكان إلّا صوراً عابرة: امتداد شاسع تحيط به شبكة طرق سيارة وسكك حديد. كان اسم الرجل الذي حملها إلى هنا ستيفان لاكوست، لكنه يشتغل لحساب رجل آخر اسمه ريشار أنجلي. حين استرقت السمع إلى حديثهما، علمت أنهما شرطيان، ولم تطمئن لذلك. كان هناك شيء آخر ينشر الرعب في نفسها: لقد ناداها أنجلي باسم «كارلايل» عدة مرات. إنه اسم لا يعرفه أحد. لماذا داهمها ماضيها بهذا العنف؟ لماذا عادَ السجن، والرعب، والسعادة المسلوبة من جديد؟

بكت حتى جفّت دموعها. كانت على وشك الانهيار. عقلها عاجز عن التفكير، وتسبح وسط ضباب كثيف خانق، وفي ثياب غارقة في العرق والقذارة.

ولكي لا تنهار، كانت تردِّد في نفسها أنّ ما هي فيه الآن لا يمكن أن يكون أسوأ وأكثر رعباً من السنتين اللتين قضتهما في قبضة هاينز كيفر. لقد سرق منها ذلك الوحش كلّ شيء: براءتها، ومراهقتها، وأسرتها، وأصدقاءها، وبلدها، وحياتها. لقد نجح كيفر في أن يقتل كلير كارلايل. ولكي تستمر في الوجود، كان لا بد لها من مفرّ: أن تتخذ لنفسها هوية أخرى. كانت كلير قد ماتت منذ زمن طويل. أو هذا ما اعتقدته آنا على الأقل حتى هذه الأيام الأخيرة. قبل أن تدرك أنّ كلير الميتة عادت إلى الحياة، وأن عليها أن تتعايش مع هذا الخيال الأبيض حتى النهاية.

سمعت صخباً ينذر بسوء. ها هو ذا الباب يفتح. ظهر شبح أنجلي في ضوء الفجر الكالح. تقدّم نحوها حاملاً سكيناً. حدث كلّ شيء بسرعة لم تسمح لها بأن تصرخ حتى. بضربة سكين واحدة،

قطع أنجلي أسلاك البلاستيك، ثم خلّصها من الأصفاد. هرعت آنا نحو الباب وخرجت من المحطة الكهربائية غير مدركة ما يحدث لها.

وجدت نفسها في أرض قفر ملأى بالسرخس، والأشواك، والنباتات الطفيلية، أرض مروعة ليس فيها إلّا مستودعات مهجورة، ومبانٍ صناعية مغطاة بالكتابات الجدارية ومتداعية للسقوط، وفي سمائها القاتمة رافعات مجمدة حركاتها.

أخذت آنا تجري وسط هذه الأرض المهجورة، الخالية من البشر، ولم تلاحظ أن أنجلي لم يتبَعها. ظلت تجري، وتجري، كما فعلت في ذلك اليوم من نهاية أكتوبر 2007، وسط غابة في الألزاس ليلها حالك بارد. ظلت تجري منهكة وتتساءل لماذا ليست حياتها إلّا سلسلة من الجري المستمرّ من أجل النجاة من جماعة من الحمقى، والهروب من قدر مشؤوم قاتل.

تقع الأرض المهجورة في ملتقى طرق، من بينها على الأرجح طريق تصل باريس بالضواحي. وصلت آنا إلى ورشة حيث كانت مجموعة من العمال، رغم الصباح الباكر، يتدفؤون حول النار. لا أحد من العمال يتحدث الفرنسية، لكنهم أدركوا أنها في حاجة إلى المساعدة، فحاولوا أن يهدّئوا من روعها ويطمئنوها، ثم عرضوا عليها فنجان قهوة وهاتفاً نقالاً.

اتصلت برافائيل لاهثة. لم يردّ عليها إلّا بعد وقت طويل، ولمّا فعل، قال مباشرة:

– أعرف أنهم أطلقوا سراحك يا كلير، ولن يلاحقك أحد بعد الآن أبداً. ستمضي الأمور على أحسن وجه الآن. لقد انتهت هذه القصة.

وتواصل الحديث بينهما متقطّعاً، سريالياً. لم تفهم سبب تواجد رافائيل في نيويورك، ولا لماذا يناديها كلير. لكنها سرعان ما فهمت أنه **يعرف** كل شيء: مَن هي، وما أصلها، ومسارها قبل أن تلتقي به. أدركت أنه يعرف أكثر منها حتى، فأحسَّت بدوار وبارتياح في الوقت نفسه.

- ستمضي الأمور على أحسن وجه الآن، أكّد لها من جديد.

ولكم كانت تتمنى أن تصدّقه.

كلير

بعد يوم واحد

الاثنين 5 سبتمبر 2016

نسيت كم أحبّ ضجيج مانهاتن. هذه الذبذبة المنتشرة في كلّ مكان التي تكاد تبعث على الاطمئنان، وطنين حركة السير الذي أسمعه بعيداً، فيذكّرني بطفولتي.

استيقظت قبل الجميع. لم أنَم تقريباً. أشعر بنفسي نشيطة، غير قادرة على أن أخلد إلى النوم. خلال الأربع وعشرين ساعة الأخيرة، انتقلت من اليأس التام إلى الدهشة والابتهاج المطلقَين. عواطف متناقضة. دوار جميل يُشعرني بالتعب، والسعادة، والحزن في آن معاً.

أحاذر أن لا أوقظ رافائيل وأنا أندس إلى جانبه. أغلق عينَي وأستعيد شريط لقائنا أمس. وصولي إلى مطار كينيدي في نيويورك، ودقات قلبي المتسارعة حين رأيت خالتيّ وولديهما الذين لم أرهم منذ عشر سنوات، وتيو الصغير وهو يجري نحوي ويرتمي في حضني ويعانقني.

ثم رافائيل طبعاً، الذي برهن على أنه الرجل الذي كنت أنتظره.

الرجل الذي استطاع أن يعثر عليّ حيث تهت. حيث توقفت حياتي. الرجل الذي أعاد إليّ تاريخي، وعائلتي، ونسلي.

لا أستطيع تقبّل تلك القصة التي حكاها لي. أعرف الآن مَن هو أبي. ولكنني أعرف أيضاً أن أبي قتل أمي، بسبب وجودي نفسه، ولم أقرِّر بعد ما سأفعله بهذه المعلومة، عدا اللجوء إلى معالج نفسي.

أنا حائرة، لكن رائقة رغم ذلك، لأنني أدرك أني عدتُ إلى أصلي وجذوري، وأن الأمور ستعود إلى نصابها شيئاً فشيئاً.

أنا مطمئنة. سري سيحفظ. لقد استعدتُ هويتي من دون أن أضطرّ إلى كشفها للعلن. وعدتُ إلى أحضان عائلتي، وإلى أحضان الرجل الذي أحبّ والذي يعرف الآن مَن أنا حقاً.

حين استرجعت حريتي -بكلّ ما تحمل كلمة حرية من معنى- أدركتُ إلى أية درجة استطاع ثقل الأكاذيب أن يغيّرني ويشوّهني طوال السنين، ليجعل مني كائناً حربائياً، هارباً باستمرار، متحفّظاً دائماً، قادراً على أن يخلص نفسه من الصعوبات، لكنه كائن بلا جذور، بلا ثقة، وبلا مرجع.

أغمضت عينَي. لا تزال ذكريات عشاء الأمس ماثلة أمامي: الشواء في الحديقة، ضحكات ودموع أنجيلا وغلادس حين علمتا أني سأصبح أمّاً، الشعور الرائع الذي غمرني وأنا أرى الشارع الذي نشأتُ فيه، ومنزلي القديم، وهذا الحي الذي طالما أحببته، ورائحة المساء، ورائحة خبز الذرة، والدجاج المشوي، والحلوى الطازجة. المساء الطويل، والموسيقى الصادحة، والأغاني، وأكواب النبيذ، والعيون الدامعة من فرط السعادة. . .

ورغم ذلك، سرعان ما أخذَت صور الشريط تنزاح تاركة مكانها

صوراً أخرى قاتمة. إنها صور رأيتها في منامي هذه الليلة. رأيتُ نفسي وأنا أعود إلى مونروج في ذلك المساء، استرجعت إحساسي بخطرٍ محدق، وبشخصٍ يقف خلفي لحظة دخولي إلى الشقة. وحين استدرتُ، هوى على رأسي مصباح ثقيل من الألمنيوم.

شعرت بألم رهيب ينفجر في رأسي. وأخذت الأشياء تدور من حولي، فسقطت على الأرض. لكن لم يغمَ عليّ في الحال. قبل أن أغيب عن الوعي، وفي لحظة خاطفة، رأيت...

لا أذكر ما رأيت، وهذا ما عذّبني طوال الليل وسرق النوم من عينَي. أحاول أن أركّز، إلّا أن عقلي يدور كالناعورة. لا فائدة. الضباب يغمر عقلي ويمنعني من التذكر. أحاول أن أستعيد صوراً هاربة. أثابر. وتنبثق من الذاكرة بقايا صور تسبح وسط ضباب كثيف. هلامية، زئبقية، كأنها صور التقطتها كاميرا عائمة في الغموض. وشيئاً فشيئاً، شرع الضباب ينجلي، وأخذت الصور تتضح. بلعت ريقي. تسارعت دقات قلبي. خلال تلك اللحظة الخاطفة، قبل أن يغمى عليّ، رأيت... الأرضية الخشبية، وحقيبتي، والدولاب الذي فُتش وبعثرت أحشاؤه، وباب غرفة نومي المفتوح. وعلى الأرض، عند باب الغرفة كان هناك... كلب. كلبٌ وبري بني اللون، ذو أذنين طويلتين، وأنف مدبب. إنه فيفي، كلب تيو!

أنهض من السرير بسرعة. أتصبّب عرقاً. تتسارع دقات قلبي. **لا بدّ أن الأمر اختلط علي**. ومع ذلك، أشعر أنّ ذكرياتي واضحة وضوح الشمس.

أحاول أن أجد تفسيراً عقلانياً لكن لا فائدة. **يستحيل** أن يكون كلب تيو في مونروج، لأنّ رافائيل لم يسبق له قط أن زارني في

شقتي رفقة ابنه. والحال أنّ رافائيل كان، في ذلك المساء، في أنتيب، وأنّ مارك كاراديك هو مَن كان مكلّفاً برعاية تيو.

مارك كاراديك. . .

تردّدت في أن أوقظ رافائيل. ارتديت بنطالي الجينز وبلوزتي اللذين كانا ملقيين فوق الكنبة جنب السرير، وخرجت من الغرفة. مضيتُ إلى صالون صغير يُشرف على نهر هدسون. الشمس في عنان السماء. أنظر إلى الساعة الحائطية. العاشرة صباحاً تقريباً. أجلس إلى الطاولة وأمسك رأسي بين يدي كي أحاول أن أرتّب أفكاري.

كيف وصلت لعبة تيو إلى شقتي؟ ليس هناك إلّا تفسير واحد: تيو، ومعه مارك كاراديك كانا في منزلي تلك الليلة. استغلّ مارك سفرنا إلى أنتيب، فدخل إلى شقتي كي يفتّشها، إلّا أن عودتي غير المتوقّعة قوّضت خطته. ما أن دخلتُ حتى هوى على رأسي بذلك المصباح اليدوي، ثم سجنني في ذلك المستودع بضاحية باريس.

ولكن، لماذا؟

إنني مذهولة. هل حزرَ مارك مَن أكون منذ مدة، عكس ما ادّعى؟ وإذا افترضنا ذلك، لماذا أقدَم على ما أقدم عليه؟ هل هو مَن اعتدى على كلوتيلد بلونديل؟ هل كان يلعب دوراً مزدوجاً مدمّراً منذ البداية؟

غمرني إحساس مروع. لا بدّ أن أتأكد من شيء.

هرعتُ نحو الكنبة التي وضعتُ عليها حقيبة سفري. فتحتها وفتّشتُها إلى أن عثرت على ما كنت أبحث عنه: دفتر سميك ذي غلافٍ أزرق. ذلك الدفتر الذي استطعتُ أن أحتفظ به ليلة هروبي من منزل هاينز كيفر. ذلك الدفتر الذي ظلّ مخبأ في شقتي إلى جانب الحقيبة الملأى بالأوراق النقدية. ذلك الدفتر الذي لم يهتدِ إليه

رافائيل ومارك. ذلك الدفتر الذي غيَّر حياتي، والذي ذهبت إلى منزلي صباح أمس كي أستعيده هو وجواز سفري وبعض الثياب بعد أن أطلق أنجلي سراحي.

قلّبتُ الصفحات بحثاً عن مقطعٍ معيّنٍ ما زلتُ أذكره. وحين عثرتُ عليه أخيراً، أعدتُ قراءته عدة مرات محاوِلةً أن أتبيّن ما بين السطور، فإذا بقلبي يتجمّد.

فتحت باب غرفة تيو. لا أثر للطفل، السرير فارغ. وفوق السرير، رسالة بخطّ اليد مكتوبة على ورقة من أوراق الفندق.

لم أتردّد لحظة. انتعلت حذائي، ووضعتُ الرسالة على طاولة المدخل، وتناولت حقيبة ظهري ووضعت فيها الدفتر الأزرق. المصعد، ثم مكتب الاستقبال. على إحدى الدعايات الموضوعة في الغرفة، كنت قد قرأت أنّ نادي البريدج يضع رهن إشارة الزبائن دراجات هوائية بالمجان. ركبت أوّل دراجة عرضوها عليّ ومضيت في شارع غرينتش.

كان الجو قد أصبح غائماً جزئياً، والريح تصفر في الشوارع. قدتُ الدراجة كما كنت أقودها أيام مراهقتي. مضيتُ جنوباً، ثم انعطفت صوب شارع شامبرز حالما استطعت. استعدتُ أحاسيسَ كنت قد نسيتها. نيويورك هي مدينتي، بيئتي، فرغم السنوات التي مرّت، ما زلت أعرف جغرافية المدينة، ونبضها، وتنفّسها، وقوانينها عن ظهر قلب.

في امتداد الشارع، رأيت بناية البلدية بطوابقها الأربعين. سرتُ تحت قوسها الضخم كي أصل إلى طريق جسر بروكلين المخصّص للدراجات الهوائية. تسللت بعد ذلك بين السيارات، وسرت بمحاذاة حديقة كادمان بلازا، ومن هناك مضيت نحو ضفاف النهر الشرقي.

وصلت إلى دامبو، وهو أحد الأحياء الصناعية الساحلية في المدينة، الواقع بين جسر بروكلين وجسر مانهاتن. كنت آتي إلى هذا المكان أحياناً لأتنزه رفقة أمي. أتذكّر الواجهات المبنية بالآجر الأحمر، وأحواض السفن، والمستودعات التي تشرف على ناطحات السحاب.

واصلت السير إلى أن وصلت إلى منطقة خضراء تفضي إلى منتزهٍ غابوي قبالة مانهاتن. المنظر هنا يثير الدهشة والإعجاب. توقّفت أتأمّله لحظة. ها قد عدت.

وللمرة الأولى في حياتي، أصبحت «فتاة بروكلين» بالفعل.

رافائيل

منحتني سعادتي بعودة كلير نوماً عميقاً هادئاً. والحق أن الأختين كارلايل نظَّمتا لعودة كلير احتفالاً رائعاً ليلة أمس، وأغدقتا عليّ بعدّة كؤوس من كوكتيل من نبيذ الروم الأبيض وعصير الأناناس حضَّرَتاه في المنزل.

أيقظني الهاتف من غفوتي. استقبلتُ المكالمة وأنا أبحث عن كلير. لا أثرَ لها في الغرفة.

- رافائيل بارتليمي؟ كرَّر الصوت في الهاتف.

إنه الشرطي جان-كريستوف فاسور الذي كان قد تعرّف على بصمات كلير بطلب من مارك كاراديك. بالأمس توصّلت إلى رقم هاتفه، وتركت له عدّة رسائل على مجيبه الآلي. وفي انتظار عودة كلير، جلستُ أستعيد شريط قصّتنا بلا كَلل. وأنا أحاول إعادة بنائها، اصطدمتُ ببعض التناقضات، معظمها بمحفز المأساة التي عشناها، فظلّ سؤال محدّد يؤرقني: كيف توصّل ريشار أنجلي، الشرطي الذي كان رهن إشارة زورا، إلى اكتشاف هوية آنا بيكر الحقيقية؟ ولم أجد إلّا جواباً واحداً لهذا السؤال: لأنّ فاسور أخبَرَه بذلك.

- شكراً على الاتصال أيها الملازم الأول. لكي لا أضيع

وقتك، سأدخل في الموضوع مباشرة. . .

بعد دقيقة مكالمة، وبينما كنت أحاول أن أفكّ خيوط القصة بمساعدته، أدركتُ أنّ فاسور كان قلقاً. قال:

- عندما طلب مني مارك كاراديك أن أتحقَّق من البصمات من خلال حاسوب الشرطة، نفذت ما طلب مني من دون حذر، فأردتُ فقط أن أقدِّم خدمة لزميل سابق.

وأن تحصل على 400 يورو بالمناسبة. . . قلت في نفسي، لكن لا فائدة من مواجهته بذلك.

- ولكنني اندهشت لمّا علمت أنها بصمات الطفلة كارلايل، واصل الشرطي. وبعد أن أطلعت مارك على النتيجة، لم يهدأ لي بال، وقلت في نفسي إن هذه الحكاية ستلاحقني لا محالة وتنفجر في وجهي في يوم من الأيام. غمرني الذعر، فاتصلتُ بريشار أنجلي.

لقد كان تخميني في محله إذاً.

- هل تعرفه منذ زمن طويل؟

- كان رئيسي في شعبة جماية القاصرين، أجاب فاسور. اعتقدتُ أنه سينصحني.

- وماذا قال لك؟

- أني أحسنتُ باتصالي به، و. . .

- و. . .؟

- وأنه سيعالج الأمر، وأنه يجب ألّا أخبر أحداً بتلك النتيجة.

- وهل حدثته عن مارك؟

غمغم فاسور مضطرباً:

- الحق، أني كنت مرغَماً قليلاً. . .

خرجت من غرفة النوم. الصالون فارغ، وسرير ابني أيضاً. لكنني لم أقلق. فقد كان الوقت متأخّراً، ولا بدّ أنّ تيو أحسَّ بالجوع فنزلت كلير برفقته كي يتناولا وجبة الفطور معاً. وبهدف الالتحاق ألحق بهما، أخذتُ أرتدي بنطالي وحذائي الرياضي، ووضعتُ الهاتف بين أذني وكتفي كي أتمكن من ربط حذائي.

- وهل لديك فكرة عما فعله أنجلي بالمعلومة؟

- إطلاقاً، أكّد الشرطي. حاولتُ الاتصال به عدّة مرات، لكنه لم يرد عليّ قط.

- ألم تحاول أن تتصل به في منزله أو في مقر عمله؟

- بلى، حاولت طبعاً، ولكنه لم يرد على مكالماتي.

كلّ ما قاله الشرطي حتى الآن منطقي. لم يكشف لي عن شيء مهم، لكنه أكَّد ما حدسته. وفي اللحظة التي أردتُ أن أنهي المكالمة، قررتُ أن أطرح سؤالاً أخيراً أنهي به سلسلة أسئلتي دون أن أتوقّع منه الكثير:

- متى أخبرت أنجلي بما توصلت إليه؟

- تردّدت طويلاً. وفي النهاية، اتصلت به بعد أسبوع من إخبار كارادیك.

قطبت حاجبَي. لا يمكن أن تكون هذه الرواية صحيحة، فلم يكن قد مرَّ أسبوع بأكمله، بل بالكاد أربعة أيام على حصول مارك على بصمات كلير في مطبخي من الكأس الذي شربت فيه الشاي. فما غاية الشرطي من كذبة مكشوفة كهذه؟

رغماً عني، دفعني شك تسلل إلى ذهني إلى أن أسأله:

- لم أفهم يا فاسور، في أيّ يوم طلب منك مارك أن تقوم بعرض البصمات على حاسوب الشرطة؟

أجاب الشرطي من دون تردّد:

- منذ اثني عشر يوماً بالضبط. أتذكّر ذلك اليوم جيداً لأنه يُصادف آخر يوم عطلة قضيته مع ابنتي: الأربعاء 24 أغسطس. مساء ذلك اليوم، أخذت أغاتا إلى محطة الشرق كي تركب القطار وتعود إلى منزل أمها، وكنت قد حدَّدت موعداً مع مارك في مطعم صغير قبالة المحطة اسمه «الأصدقاء الثلاثة».

كنت قد توقفت عن ربط حذائي منذ عدة ثوانٍ. ها هو ذا قطار حياتي يخرج عن سكّته في اللحظة التي لم أتوقع فيها ذلك على الإطلاق.

- ومتى أخبرته بالنتيجة؟

- بعد يومين، في 26 أغسطس.

- هل أنتَ متأكد من ذلك؟

- طبعاً، لماذا هذا السؤال؟

ذهلت. لقد كان مارك يعرف مَن هي كلير منذ عشرة أيام! لقد أخذ عينة من بصمات حبيبتي قبل أن تختفي بعدة أيام، ومثّل عليّ منذ البداية. أما أنا، الصديق الساذج، فلم أرَ شيئاً.

اللعنة! لماذا فعل ذلك؟

وبينما كنت أتساءل عن دوافعه، تلقيتُ مكالمة أرغمتني على أن أتوقف عن التفكير في الأمر. شكرتُ فاسور، وردَدْت على المكالمة:

- سيد بارتليمي؟ أنا مليكة فرشيشي. أشتغل في الملجأ الطبي بسانت بارب في...

- طبعاً، أنا أعرفكِ جيداً يا مليكة. لقد سبق لمارك كاراديك أن حدَّثني عنك.

- حصلت على رقم هاتفك من كلوتيلد بلونديل. لقد استفاقت لتوّها من غيبوبتها. إنها لا تزال خائرة القوى، لكنها ترغب في أن تطمئن على ابنة أختها. لقد استغربت أن لا أحدَ أخبرنا بأنها تعرَّضت لاعتداء! لقد قلقنا بشأنها حين لم تعد تتردّد على الملجأ.

كان صوتها غير مألوفٍ، يجمع بين الجهر والوضوح. قلت:

- على كلّ حال، أنا سعيد بأن السيدة بلونديل بخير الآن، وإن لم أدرك جيداً السبب الذي دفعها إلى أن تُعطيك رقم هاتفي...

التزمَت مليكة الصمت لحظة قبل أن تقول:

- أنت صديق مارك كاراديك، أليس كذلك؟

- صحيح.

- وهل...؟ وهل أنتَ على علم بماضيه؟

قلت في نفسي إني أشعر، منذ خمس دقائق، أني لا أعرفه على الإطلاق.

- إلى ماذا تلمِّحين بالضبط؟

- هل تعلم لماذا غادر صفوف الشرطة؟

- أصابته رصاصة طائشة في أثناء عملية سطو على محل مجوهرات في ساحة فاندوم.

- صحيح، لكن ليس هذا السبب الحقيقي. في ذلك الوقت، كانت سمعة كاراديك في صفوف الشرطة قد ساءت. فبعد أن كان شرطياً مشهوداً له بالكفاءة والتميّز، أصبح مشهوراً بفترات توقفه عن العمل وبإقامته المتكرّرة في كوربا.

- كوربا؟ وما هو هذا المكان؟

- مصحّة استشفائية تقع في إقليم أندر ولوار قرب تور. مصحّة

تستقبل في الغالب رجال الشرطة الذين يعانون من الاكتئاب، أو المدمنين على الكحول والأدوية.

- ومن أين لكِ هذه المعلومات يا مليكة؟

- من أبي. إنه رئيس شعبة مكافحة المخدرات، فقصة مارك معروفة في أوساط الشرطة.

- لماذا؟ أليس الاكتئاب شيئاً شائعاً في أوساط الشرطة؟

- هناك شيء آخر. هل كنتَ على علم بأنّ مارك فقدَ زوجته؟

- طبعاً.

لم أرتَحْ للمسار الذي اتّخذه حديثنا ولا للمعلومات الجديدة عن مارك، لكن الفضول كان فوق كلّ اعتبار.

- وهل تعلم أنها انتحرت؟

- نعم، لقد ذكر ذلك بحضرتي بضع مرات.

- ألم تسعَ إلى معرفة المزيد؟

- لا. فأنا لا أحبّ أن أطرح على الآخرين أسئلة لا أحبّ أن يطرحوها عليّ.

- إذاً، أنت لا تعرف عن ابنته؟

كنتُ قد عدت إلى الصالون، وأخذتُ أجاهد لأرتدي سترتي، ثم تناولت محفظتي من فوق الطاولة.

- بل أعرف أنّ لدى مارك ابنة لم يعُد يراها كثيراً. أعتقد أنها تتابع دراستها في الخارج.

- في الخارج؟ هل تمزح؟ لقد قُتلت لويز منذ أكثر من عشر سنوات!

- ماذا تقولين؟

- نعم، اختطف منحرفٌ اقترفَ عدة جرائم قَتْل في بداية القرن ابنته لويز، وسجَنَها، ثم قتلها.

توقف الوقت من جديد. تسمَّرتُ أمام النافذة، أغمضت عينيّ، وأخذت أدلِّكهما. وتذكرت. تذكرت اسماً. اسم لويز غوتييه، أول ضحايا هاينز كيفر، التي اختطفها في ديسمبر 2004 ولم تتجاوز الرابعة عشر من عمرها، اختطفها حين كانت تقضي العطلة في منزل جدّيها قرب سانت بريوك، في الكوت دارمور.

- هل تقصدين أنّ لويز غوتييه هي ابنة مارك كاراديك؟

- هذا ما أخبرني به والدي.

لمتُ نفسي. منذ البداية، كان جزءٌ من الحقيقة ماثلاً أمام عيني. ولكن كيف كان لي أن أفكّ شفرتها؟

- مهلاً. لماذا لم تكن الطفلة تحمل اسم أبيها العائلي؟

كان لدى مليكة جواب عن كلّ سؤال. أليسَت ابنة شرطي؟

- في ذلك الحين، كان كاراديك مكلّفاً بالتحقيق في ملفات ساخنة خطيرة. ولم يكن غريباً على مَن هُم معرّضون للخطر أمثاله أن يحاولوا إخفاء هوية أطفالهم كي يجنّبوهم الاختطاف ويتجنبوا الابتزاز.

كانت على صواب طبعاً.

أحسستُ بدوار وأنا أفكر في تداعيات هذه المعلومات. وبينما كنت أستعدّ لأن أطرح عليها سؤالاً أخيراً، رأيتُ الرسالة الموضوعة على طاولة المدخل، مكتوب عليها فيها بخط اليد جملة واحدة:

راف

أخذتُ تيو إلى لعبة الخيول الخشبية ببروكلين.

مارك

تملَّكني الخوف فجأة. جريتُ مغادراً الغرفة، وبينما كنت أنزل الأدراج سألتُ مليكة:

- والآن، هل ستُخبرينني بالسبب الذي دفعكِ إلى أن تتّصلي بي؟

- لكي أحذِّرك. إنّ كلوتيلد بلونديل تتذكر جيداً مَن اعتدى عليها، وقد وصفته للشرطي الذي كان مكلَّفاً بالتحقيق معها، ووصفته لي.

توقَّفَت عن الكلام لحظة، ثم باحَت بما كنت قد حزرته:

- الشخص الذي وصفته يشبه مارك كاراديك شبهاً تامّاً.

مارك

بروكلين

تغير الطقس.

صار بارداً الآن، وصارت السماء غائمة، واشتدّت الرياح. في ممشى النزهة الخشبي المحاذي للمضيق، كان المتنزهون يرتعشون من البرد، ويرفعون ياقاتهم، ويدعكون أذرعهم لعلّهم يبعثون فيها قليلاً من الدفء. في أكشاك الباعة المتجوّلين، حَلّت القهوة الساخنة والهوت-دوغ محلّ المثلّجات.

مياه النهر الشرقي نفسها تغيّرت، ومالت إلى اللون الأخضر الباهت. كانت الأمواج تزفر زفرات جشّاء، تعلو، وتتدحرج، لتتحطّم على الضفاف ملطّخة المارة بالماء.

وسط سماء ملبّدة بغيوم رمادية، كان خيال أفق مانهاتن يبدو جلياً. سلسلة ناطحات سحاب متفاوتة الطول شيّدت في فترات مختلفة: ناطحة مركز التجارة العالمي بقمّتها المسنونة، قلعة جيري الضخمة الملفوفة في فستانها الحديدي، وقصر العدل ذو السقف المدبّب والواجهة الكلاسيكية. وبالقرب منها، في الجهة الأخرى من الجسر، منازل ذوي الدخل المحدود المشيّدة بالآجر البني في حي الجسرَين.

تخلّت كلير عن دراجتها فوق العشب. رأت قرب رصيف المرفأ قبّة زجاجية تضمّ لعبة خيول خشبية تعود إلى العشرينيات من القرن العشرين أُعيد ترميمها بإتقان. كانت اللعبة الدائرية كأنها راسية فوق الماء. كان في تجاور الخيول الخشبية العتيقة وأفق المدينة الحديثة التي تلوح من خلال الزجاج شيء محير وساحر في الآن نفسه.

وقفت قلقة، وضيقت عينيها منعِمَة النظر في كل خيل يدور على إيقاع الموسيقى الصادحة.

- مرحباً يا تيو! صاحت حين تعرّفت على ابن رافائيل الذي كان جالساً إلى جانب مارك كاراديك في عربة خشبية صغيرة.

أخرجَت من جيبها دولارين، واشترَت تذكرة، وانتظرت أن تتوقف لعبة الخيول الخشبية عن الدوران كي تلتحق بهما. كان الطفل سعيداً، وسعد أكثر لما رآها. كان يمسك في يديه الصغيرتين حلوى كوكيز كبيرة أهداه إياها مارك. كان وجهه المستدير وبدلته ملطخين بالشوكولاتة، وبدا أنّ ذلك يفرحه.

- فيها حبّات شوكولاتة، حبّات! قال وهو يُريها حلواه، فخوراً بأنه تعلَّم كلمة جديدة.

إذا كان تيو على أحسن حال، فإنّ كاراديك كان عكس ذلك، كان يبدو متعباً تماماً. كانت التجاعيد قد حفرت جبينه وما حول عينيه، ولحيته الشعثاء تأكل ثلاثة أرباع وجهه رمادي اللون، ونظرته الفارغة المنطفئة توحي بأنه غائب تماماً عمّا حوله، كأنه مقطوع عن العالم.

ما أن عادت اللعبة تدور حتى دوّى صوت الرعد. جلست كلير في أرجوحة قبالة كاراديك.

- أنت والد لويز غوتييه، أليس كذلك؟

التزم الشرطي الصمت لحظة، لكنه كان يدرك أنْ لا مجال الآن للتهرّب وإخفاء الحقائق. فقد حانت لحظة الشرح التي انتظرها طوال عشر سنوات. حدَّقَ في عينَي كلير وشرع يحكي قصته:

- لمّا اختطفها كيفر، كان عمر لويز أربع عشرة سنة ونصف. إنه سنّ صعب بالنسبة إلى فتاة، وكانت لويز حينذاك قد صارت نزقة لا تُحتمل إلى درجة أننا اتفقنا، أنا وأمها، على أن نرسلها إلى منزل والدَي في بروتان كي تقضي عطلة الميلاد هناك.

توقف عن الكلام لحظة ريثما يعدل وشاح تيو.

- يصعب عليّ أن أعترف اليوم بأنّ ابنتنا كانت قد بدأت تنحرف آنذاك، قال متنهّداً. أصبحت تُكثر من التردّد على الأصدقاء، وتخرج في كلّ الأوقات، وترتكب الحماقات من كلّ نوع. جُننت من تصرفاتها. وبصراحة، آخر مرة تحدّثنا فيها معاً انتهت بشجارٍ عنيف. نعتتني بالوغد، فصفعتها.

خنقه الانفعال، فأغمض عينيه لحظة قبل أن يواصل:

- لمّا علمت زوجتي أنّ لويز لم تعُد، اعتقدَت أنها هربت من المنزل، فلم تكُن تلك المرة الأولى التي تذهب فيها إلى منزل إحدى صديقاتها، وتعود بعد ست وثلاثين ساعة. دفعني حسي المهني إلى أن أشرع في البحث عنها والتحقيق في أمرها على الفور. لم أنَم طوال ثلاثة أيام. بحثتُ عنها في كلّ مكان، ولكنني لا أعتقد أنّ الشرطي ينجح في مسعاه إذا كان يحقِّق في قضية تخصّه. ثم إنني كنت قد قضيتُ عشر سنوات في صفوف شعبة مكافحة السطو، حيث اختصاصي كان القبض على اللصوص، لا التحقيق في جرائم اختطاف المراهقات. ومع ذلك، كنت أعتقد أني سأعثر على لويز، لكنني مرضتُ بعد أسبوعٍ واحد من اختفائها.

- مرضتَ؟

تنهّد مارك وهو يمسك رأسه بين يديه.

- مرضت مرضاً غريباً لا بد أنك تعرفينه، فأنتِ طبيبة: مُتلازمة غيلان-باريه.

أومأت كلير مؤكّدة، وقالت:

- اعتلال عصبي يُصيب الأعصاب المحيطة، ينتج عن خللٍ في المناعة.

- صحيح. تستيقظ يوماً فإذا بأعضائك لا تقوى على حملك. وتحسّ بتنمّل في فخذيك وربلتي ساقيك، كما لو أنّ تياراً كهربائياً يخترق جسدك. ثم تُصبح قدماك ثقيلتين إلى أن تُشَلّا تماماً. ويسري الألم في خاصرتيك، وصدرك، وظهرك، وعنقك، ووجهك. وتبقى ممدّداً على سريرك في المستشفى متجمِّد الأعضاء، وقد تحوّلت إلى تمثال لا يقوى على الحركة. تعجز عن الوقوف، تعجز عن البلع، وتعجز عن الكلام. وتعجز عن التحقيق حول اختفاء ابنتك التي عمرها أربع عشرة سنة. تتسارع دقات قلبك، وتعجز عن السيطرة عليها. وتختنق ما أن يضعوا طعاماً في فمك. وبما أنك تصبح عاجزاً عن التنفس حتى، فإنهم يملؤون جسمك كله بالأنابيب كي لا تموت سريعاً.

كان تيو جالساً بالقرب منا، بعيداً عن انشغالاتنا. كان كلّ شيء يدهشه، وكان يحرك صدره الصغير إلى الأمام وإلى الخلف على إيقاع الموسيقى.

- ظللتُ على هذه الحال قرابة شهرين، استأنف مارك. ثم شرعَت أعراض المرض تتراجَع، إلّا أنني لم أشفَ من ذلك المرض

اللعين كلياً، ولم أستطِع العودة إلى العمل إلّا بعد سنة تقريباً، أصبحت خلالها الحظوظ في العثور على لويز شبه منعدمة. هل كنتُ سأنجح في العثور على ابنتي لو لم أمرض؟ لن أعرف الجواب أبداً. والحقّ أني أميل إلى القول بأني ما كنت لأنجح في ذلك، وهو أمر لا يُحتمل. خجلتُ من إليز. كيف يعقل أن أعجز -أنا الشرطي الذي طالما نجح في حلّ ألغاز كثير من القضايا، الذي يعتبر عمله سبب وجوده ودوره المنوط به في المجتمع- كيف أعجز عن العثور على ابنتي!؟ لكن عزائي أني كنت أعمَل وحدي من دون فريق، وأني لم أكُن أستطيع الحصول على ملفات القضية المتعددة، وأني كنت، على الخصوص، مشوّش الأفكار. وزادت أفكاري تشوّشاً لـمّا انتحرت زوجتي.

بدأت لعبة الخيول الخشبية تتباطأ معلنة عن قرب توقفها. أخذت دموع كاراديك تسيل على خديه، ثم قال وعو يشدّ على قبضتيه:

- لم تعُد إليز تقوى على التعايش مع فكرة اختفاء ابنتنا، فالشك أسوأ شيء في الحياة. إنه سمّ قاتل يتسرَّب إلى دواخلنا، وقد يؤدي بنا إلى الهلاك.

توقفت اللعبة عن الدوران. أخذ تيو يطالب بجولة أخرى، لكن مارك تدخل في الوقت المناسب، واقترح عليه أن يذهبا للتنزه على ضفاف النهر. بعد أن زرَّر مارك سترته، حمل الطفل بين ذراعيه، ومضيا برفقة كلير نحو الممشى الخشبي المحاذي للنهر. انتظر ريثما يضع الطفل على الأرضية الخشبية قبل أن يستأنف اعترافه:

- حين عثرت الشرطة على جثة لويز المتفحِّمة في منزل كيفر، شعرتُ أول الأمر بنوع من الارتياح. قلت في نفسي ما دامت ابنتي

قد ماتت، فهي لم تعُد تعاني على الأقل. لكن الألم سرعان ما يعود، ولا يُصلِح الزمن شيئاً، ويصبح الرعب أبدياً. لا تصدقي تلك الترهات التي تقرئينها في مجلات أو كتب علم النفس: الحداد، السلوان... إنها مجرد كلمات، خاصة حين يموت طفلك في مثل تلك الظروف التي ماتت فيها لويز. ابنتي لم يقضِ عليها مرض عضال، ولم تمُت في حادثة سير. لقد استطاعت أن تبقى على قيد الحياة عدة سنوات بين براثن ذلك الشيطان. حين تفكّرين في ما عانته طوال تلك المدة، تشعرين بالرغبة في أن تطلقي على رأسك رصاصة تريحك من هول الرعب الذي يسكن دماغك ليل نهار.

رفع كاراديك صوته عالياً كي تسمع كلماته رغم الريح القوية.

- أعرف أنك حامل، قال وهو ينظر إلى كلير. حين تصبحين أماً، ستدركين أن العالم ينقسم إلى قسمين: الذين لديهم أطفال والآخرين. إنّ الأمومة تمنحك سعادة أكثر، ولكنها تجعلك ضعيفةً إلى أقصى حدّ بالمقابل. فمتى فقدت طفلك أصبحت شخصاً يعاني ويتألّم على مدار الساعة، شخصاً تمزّق بداخله شيء إلى الأبد. وتعتقدين كل يوم أنك بلغت ذروة الأسى والمعاناة، لكن الذروة تبقى رهينة المستقبل أبداً. وهل تعرفين ما هي الذروة؟ إنها الذكريات التي تشرع في الذبول والتلاشي، إلى أن تزول نهائياً. فتستيقظين يوماً لتكتشفي أنك نسيت صوت ابنتك. نسيت وجهها، نظراتها البراقة، الطريقة التي تُعيد بها خصلة شعرها خلف أذنها. وتعجزين عن سماع رنة ضحكتها في رأسك. فتدركين أنّ الألم لم يكن هو المشكلة، بل صار مع مرور الأيام رفيق دربك، وتعويضاً أليفاً لتلك الذكريات. حين تدركين ذلك، تصبحين مستعدةً لأن تبيعي روحك للشيطان كي تؤجّجي ألمك من جديد.

أشعل مارك سيجارة، واستدارَ نحو المراكب التي كانت تبحر على سطح الماء.

- ورغم ذلك، استمرّت الحياة من حولي، قال وهو ينفث سحابة من الدخان. استمر زملائي في الذهاب لقضاء عطلهم، استمروا في إنجاب الأطفال، والطلاق، والزواج. أما أنا، فكنت أتظاهر بأنني أحيا فقط. كنت حياً-ميّتاً، أسير على غير هدى في ليل بهيم، وأقف على حافة الهاوية. فقدت عصارتي، وفقدت الرغبة في الحياة. كانت السلاسل تقيّد جسدي من رأسي إلى قدمي. ثم أتى يوم... يوم التقيت بك...

وعادت نظرة الشرطي ترمي بشررٍ.

- حدث ذلك ذات صباح، في نهاية فصل الربيع. خرجتِ من شقة رافائيل كي تذهبي إلى المستشفى. مررتِ بي في فناء العمارة المشمس. حييتني بخجل، وطأطأت رأسك. رغم تحفّظك، كان من الصعب أن لا أنتبه إليكِ. لكن خلف قامتكِ الرشيقة، وبشرتك الخلاسية، وشعركِ الأملس، كان هناك شيء يحيرني. وكنت كلما التقيتُ بكِ إلّا وعاودني الشعور نفسه. كنت تذكرينني بشخص ما، بذكرى بعيدة عجزت عن تحديدها؛ ذكرى تبخّرت، لكنها ظلت حية في أعماقي حاضرة رغم ذلك. استغرق الأمر عدة أسابيع قبل أن أفهم سبب اضطرابي: كنت تشبهين كلير كارلايل، تلك المراهقة الأميركية التي اختطفها كيفر هي الأخرى، والتي لم تعثر الشرطة على جثتها أبداً. رفضتُ هذه الفكرة مدة طويلة، لأنها كانت غير معقولة من جهة، ولأنني اعتقدت أنها لا تعكس إلّا هواجسي من جهة أخرى. لكنها لازمتني رغم ذلك. عشّشَت في دماغي. ولم أجد وسيلة للتحرّر منها إلّا أن أحصل على بصماتك، وأن أعهَد بها إلى

أحد الزملاء كي يعرِضها على ملفّ البصمات المخزّنة في حاسوب الشرطة. وقبل أسبوعين، نفذتُ ما عزمت عليه. وأكّدت النتيجة ما كنت أعتقد أنه من باب المستحيل: لستِ تشبهين كلير كارلايل فحسب، بل أنت كلير كارلايل نفسها.

ألقى مارك بعقب السيجارة على الأرضية الخشبية، وسحقه بكعبه كما يُسحق البق.

- ومنذ تلك اللحظة لم يعُد لدي إلّا هاجس واحد: مراقبتكِ، وفهم ما جرى، والانتقام. لم تضعكِ الحياة في طريقي صدفة. كان لا بد أن تؤدّي ثمنَ ما فعلتِ. كانت تلك مهمّتي. مهمة كنت مديناً بها لابنتي، ولزوجتي، ولأسَر ضحيتَي هاينز كيفر الأخريين: كامي ماسون، وكلويه ديشانيل. هما أيضاً هلكتا بسببكِ! صاح قائلاً.

- لا! ردَّت كلير مدافعة عن نفسها.

- لماذا لم تخبري الشرطة بعد نجاحكِ في الهروب؟

- أخبرني رافائيل أنك قمت بالتحقيق معه في القضية، فأنت تعرف جيداً إذاً لماذا لم أقُم بذلك: علمتُ بموت أمي بعد هروبي مباشرة! ولم أرغب في أن أصبح محطّ أنظار وسائل الإعلام. كنت في حاجة إلى أن أعيد بناء نفسي في هدوء.

واجهها مارك وهو يحدِّق فيها بنظرة جنون:

- إنّ قيامي بتحقيق عميق هو بالضبط ما جعلني أقتنع بأنّك تستحقين الموت. وأردتُ حقاً أن أقتلك يا كلير، كما قتلتُ الدركي فرانك ميزوليبه القذر في سافيرن.

فجأة، بدأ تسلسل الأحداث يرتسم أمام ناظريها واضحاً متماسكاً.

- وكما حاولتَ أن تقتل كلوتيلد بلونديل؟

- لا، لم أنوِ قتلها! صاح مارك مدافِعاً عن نفسه. ذهبتُ إليها كي أستجوبها، لكنها ظنَّت أني أتيتُ لأعتدي عليها، فسقطَت من النافذة وهي تحاول الفرار. لا تقلبي الأدوار. أنت المذنبة الوحيدة. لو كنت قد بلغت الشرطة، لبقيت لويز على قيد الحياة، وكامي وكلويه أيضاً!

اشتدّ به الغضب، فأمسك بذراع كلير وأخذ يصرخ ألمه في وجهها:

- مكالمة واحدة! رسالة مجهولة تتركينها على مجيب آلي! لم يكن ذلك ليكلّفك أكثر من دقيقة واحدة، كانت كافية لتُنقذي ثلاث حيوات! فكيف تجرئين على الادّعاء أنك بريئة؟

خاف تيو فأخذ يئن، لكنه لم يجد مَن يطمئنه هذه المرة. تخلَّصت كلير من قبضة مارك، وردَّت عليه بالنبرة نفسها:

- لم أتّصل بالشرطة لأنه لم يخطر لي لحظة أن فتيات أخريات كانت سجينات معي هناك!

صاح مارك:

- لا أصدّقك!

مكتبة
t.me/soramnqraa

كان تيو يبكي الآن، متفرّجاً على مواجهتهما.

- لم تكُن معي في ذلك المنزل اللعين! صرخَت كلير. لقد أمضيتُ 879 يوماً معتقلة في غرفة مساحتها اثنا عشر متراً مربعاً فقط. كنت مقيّدة معظم الوقت. وكان يضع سلسلة صدئة حول عنقي أحياناً! هل تريد أن تسمع الحقيقة؟ نعم، عشنا في رعب! نعم، عشنا في جحيم! نعم، هاينز كان وحشاً! نعم، كان يعذّبنا! نعم، كان يغتصبنا!

فوجئ مارك بهجومها، فطأطأ رأسه وأغمض عينيه، كملاكمٍ أُرغم على أن ينسحب إلى إحدى أركان الحلبة.

- لم يكلّمني كيفر عن فتيات أخريات قط، هل سمعت: **قط!** صاحت مؤكدة. كنت محبوسة طوال الوقت. على امتداد سنتين، لم أرَ الشمس إلّا خمس مرات، ولم أعتقد ولو مرة واحدة أني لم أكن وحيدة في ذلك السجن. ورغم ذلك، أشعر بالذنب منذ عشر سنوات، وأعتقد أني سأشعر بذلك طوال حياتي.

هدأت كلير قليلاً، واستعادت بعضاً من برودة أعصابها، ثم انحنت نحو تيو وأخذته في حضنها. وبينما الطفل رابض في حضنها ويمتصّ إبهامه، واصلت كلير حديثها بنبرة أكثر رصانة:

- أتفهّم غيظك إزاء هذا الظلم. اقتلني إذا كنت تعتقد أنّ موتي سيخفِّف ألمكَ ولو قليلاً. ولكن عليك أن تعرف عدوك الحقيقي في هذه المعركة يا مارك. ليسَ في هذه القضية إلّا مذنب واحد، هو هاينز كيفر.

التزم كاراديك الصمت أمام هذه الكلمات، وتسمر في مكانه جاحظ العينين. بقي على تلك الحال وسط البرد القارص دقيقتين طويلتين. وشيئاً فشيئاً، استعادَ الشرطيّ حسّه العملي. ودون أن يعرف السبب، عاد إلى ذهنه سؤال ظلّ يراوده طويلاً، سؤال لم يعثر له على جواب. سؤال ذُكر في التحقيق مرتين.

- قبل أن تُختطَفي، كنت تكررين دائماً أنك ترغبين في أن تصبحي محامية. كانت رغبة راسخة بداخلكِ.

- صحيح.

- ولكن، بعد هروبكِ، غيّرتِ رأيك وأردتِ أن تصبحي طبيبة. لماذا هذا الـ. . ؟

- بسبب ابنتكَ، قاطعته كلير. بسبب لويز. ألم تكُن تلك رغبتها دائماً؟

أحسَّ مارك بالأرض تنسحب من تحت قدميه.

- وكيف علمتِ بذلك؟ ألم تقولي إنك لم تكوني تعلمين بوجودها؟

- منذ ذلك الوقت، تعلَّمتُ عنها الكثير.

- ماذا تقولين؟

وضعت كلير تيو على الأرض، وأخرجَت من حقيبة ظهرها الدفتر السميك ذا الغلاف الأزرق.

- عثرتُ عليه في حقيبة كيفر، شرحَت قائلة. إنها يوميات لويز. لا أعرف كيف وصل إلى الحقيبة التي كانت فيها فدية ماكسيم بواسو. لا بد أنّ كيفر كان قد أخذه من ابنتكَ. كان غالباً ما يلجأ إلى مثل ذلك التصرّف: يترك لنا حرية الكتابة، ثم يصادر دفاترنا.

مدّت الدفتر لمارك، لكن الشرطي بقي متسمّراً، مندهشاً، عاجزاً عن أيّ حركة.

- خذه، إنه لكَ الآن. لقد كتبت إليك لويز كثيراً طوال مدة اعتقالها. في البداية، كانت تكتب رسالة كلّ يوم تقريباً.

أمسك مارك الدفتر بيدٍ مرتعشة، وانحنت كلير لتأخذ تيو بين ذراعيها من جديد. وهناك، في بداية الممشى الخشبي، رأت رافائيل يجري في اتجاههم.

- تعال، ها قد أتى بابا، قالت للطفل الصغير.

جلس مارك على مقعد قبالة البحر. فتح الدفتر، وأخذ يتصفحه. وتعرّف على الفور خطّ ابنته المتماسك الدقيق، وتلك الزخارف والرسوم التي تعودت أن ترافق كتاباتها: عصافير، نجوم،

أزهار متعانقة، زخارف قوطية. وعلى الهامش، بجانب الرسوم، أشعار مخربشة. مقتطفات من قصائد حفّظتها إياها أمها. تعرَّف مارك على بعض أشعار فكتور هيغو («كل إنسان في ليله يتوجّه نحو النور»)، وإلوار («كنت جدّ قريب منك حتى أني أشعر بالبرد بالقرب من الآخرين»)، وسانت-إكس («ستتألمين. سأبدو ميتاً، لكن لن يكون ذلك صحيحاً»)، وديدرو («حيثما لا يوجد شيء، اقرأ أني أحبك»). غلبته المشاعر. وعاد إليه الألم مدمراً، خانقاً، مكتسحاً. لكنه كان ألماً مصحوباً بذكريات شتى تنبثق كنبع دفّاق يسقي روحه الذابلة.

وعاد إليه صوت لويز من جديد.

وتعرف على ضحكتها، وحيويتها، وذبذبات صوتها.

إنها ماثلة أمامه بين طيات هذه الصفحات.

إنها حيّة بين طيات هذه الصفحات.

لويز

أنا خائفة يا بابا . . .

لن أكذب عليك: أنا أرتجف، وقلبي يتمزّق. وأشعر، في كثير من الأحيان، أن سيربيروس[1] يفترس أحشائي. أسمعه ينبح، لكنني أدرك أنْ لا وجود لكل هذا إلّا في رأسي. أنا خائفة، لكنني أعمل بنصيحتك، فأحاول أن لا أخاف من خوفي.

وحين يهدّد الذعر بمداهمتي، أقول لنفسي إنك ستأتي لتنقذني.

رأيتك وأنت تعمل، وأنت تعود إلى المنزل متأخراً. أعرف أنك لا تستسلم أبداً، أعرف أنك لا تتخلّى عن قضية أبداً. فيمنحني هذا القوةَ على الصمود، وعلى البقاء قوية.

لم نكن، أنا وأنت، نفهم أحدنا الآخر دائماً. وفي الآونة الأخيرة لم يعُد أحدنا يكلِّم الآخر تقريباً. آه كم أنا نادمة على ذلك اليوم. كان ينبغي أن نعرب عن حبنا أحدنا للآخر باستمرار، وعن تشبثنا أحدنا بالآخر.

---

(1) سيربيروس في الأساطير اليونانية، كلب له ثلاثة رؤوس يحرس باب جهنم، ويمنع الموتى من الهرب - المترجم.

حين نجد أنفسنا في الجحيم، يصبح لما نملكه من ذكريات سعيدة أهمية كبرى. أستعيد ذكرياتنا السعيدة باستمرار، كي أخفف من إحساسي بالبرد، وبالخوف. وأستظهر الأشعار التي حفظتها من ماما، وأعزف في دماغي الألحان التي تعلّمتها في معهد الموسيقى، وأحكي لنفسي الروايات التي جعلتَني أقرؤها.

تنهال عليّ الذكريات غزيرة. أرى نفسي وأنا طفلة صغيرة فوق كتفيك، نتجول في غابة فيزافونا، معتمرة طاقيتي الصوفية. أشمّ رائحة الخبز بالشكولاتة الذي كنا نشتريه معاً، صباح يوم الأحد، من مخبزة في شارع سان-ميشيل حيث تمنحني العاملة حلوى أخرجت من الفرن لتوّها. وأتذكر تنقلاتنا في طرق فرنسا لمّا كنت ترافقني وأنا ذاهبة لإجراء اختبارات ركوب الخيل. كنت في حاجة إلى وجودك، وإلى نظرتك، حتى وإن كنت أدّعي العكس. حين تكون معي، أدرك أني بمنأى عن أيّ خطر.

أتذكر عطلاتنا نحن الثلاثة، أنا، وأنت، وماما. كنت أتأفّف طوال الوقت، ولكنني أدرك الآن كم تساعدني ذكريات تلك الرحلات على أن أهرب من سجني هذا.

أتذكر النخيل ومقاهي ساحة ريال في برشلونة. أتذكّر قمم المنازل القوطية المسنّنة على طول قنوات أمستردام. أتذكر ضحكنا الطلق في اسكتلندا تحت المطر وسط قطيع من الغنم. أتذكر زليج ألفاما الأزرق، ورائحة الأخطبوط المشوي في شوارع لشبونة، وعذوبة الصيف في السينترا، وحلوى بيليم. أتذكر الرز بالهليون في بيازا نافونا، والضوء الأحمر الذي يشعّ من كلّ مكان في سان جيمنيانو، وأشجار الزيتون المتمايلة في بادية سيينا، والحدائق السرية في براغ القديمة.

بين هذه الجدران الباردة، لا أرى ضوء النهار أبداً. الظلام في كلّ مكان هنا. أنحني، لكنني لا أنكسر. وأقول في نفسي إن هذا الجسد النحيل المليء بالبقع الحمراء ليس جسدي. لست أنا تلك الميتة-الحية الشاحبة ذات السحنة البشعة. لست أنا هذه الجثة الخزفية المتأرجحة بين الحياة والموت.

أنا تلك الفتاة المشرقة التي تجري فوق رمال بالومباغيا الدافئة. أنا الريح التي تعبث بشراع مركب مسافر. أنا ذلك السحاب الذي نشعر بدوار حين ننظر إليه من خلف نافذة السفينة. أنا نار الفرح الموقدة في سان-جان. أنا حصى إيتريتا التي تتدحرج على الشاطئ. أنا مصباح من مدينة البندقية صامد في وجه الأعاصير.

أنا مذَنَّب يضيء السماء. أنا ورقة من ذهب تتلاعب بها الرياح. لازمة جذابة تردّدها الجماهير.

أنا رياح الصابيات تداعب سطح الماء. أنا رياح السموم تكنس التلال. أنا قنينة تائهة في المحيط الأطلسي.

أنا رائحة الفانيليا المنبعثة من البحر خلال عطلة الصيف، ورائحة الأرض المبللة العنيدة.

أنا خفقان أجنحة الفراشات الزرقاء الإسبانية.

أنا وهج عابر فوق مياه مستنقع.

أنا غبار نجمة بيضاء أومضت ثم سرعان ما تلاشت.

مكتبة | 1110
telegram @soramnqraa

غيوم ميسو

فتاة بروكلين

كنا ننتمي إلى عالمين مختلفين: أنا رجل ورقيّ، وهي امرأة رقمية.

❖ ❖ ❖

- لماذا تتهرّبين كلما سألتك عن ماضيك؟

- لأن الماضي مضى، ولا يمكننا أن نغيّره.

- بل الماضي يسلّط الضوء على الحاضر، وأنت تعرفين ذلك جيداً. ما هو ذلك السرّ الذي تحاولين إخفاءه؟

كنت أشعر أني قادر على أن أسمع منها كل شيء، وأن أتفهّم كل شيء، وأن أتحمّل كل شيء، لأنني أحبها.

هذا ما كنت أعتقده قبل أن تدسّ يدها في حقيبتها وتُخرج صورة وهي تقول: «أنا مَن فعلتُ ذلك».

رحت أتأمل سرّها مصدوماً، وعلمت حينها أن حياتنا انقلبت رأساً على عقب. نهضت وانصرفت دون أن أنطق بكلمة. وحين عدتُ أدراجي، كان الأوان قد فات.

اختفت آنا. ومنذ ذلك الوقت وأنا أبحث عنها.

❖ ❖ ❖

«انتبه، ما إن تشرع في قراءة رواية ميسو الجديدة هذه، لن تتركها حتى تعرف من هي «فتاة بروكلين» هذه حقاً». **مارك فيرنانديز - ميترونيوز**

telegram @soramnqraa

ISBN 978-9920-657-45-7

سما للنشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)

markaz.casablanca@gmail.com